المؤسسة الدينية

الوظيفة والتحديات

المؤسسة الدينية

الوظيفة والتحديات

حسن موسى الصفار

جمع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣٩هـ - ٢٠١٨م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

إنسان هذا العصر أصبح أكثر معرفة واطّلاعًا، حيث تتوفر المعلومات والتقارير بين يديه حول أيّ شأن من الشؤون أو أيّ قضية تهمه من القضايا، وقد انحسرت رقعة الأسرار والممنوعات إلى حدٍّ كبير، حتى محاضر اللقاءات الخاصة لدهاقنة السياسة الدولية وجدت طريقها للتسريب والنشر عبر موقع ويكيلكس وغيره.

ومع تطور تكنولوجيا التواصل والاتصالات فإنه يمكن تسجيل وتوثيق كل كلمة تلفظ، أو حركة تحدث في أيّ بقعة من العالم، ويمكن تخزينها واستدعاؤها عند الطلب والحاجة.

وأصبح الإنسان اليوم أكثر ثقة بنفسه، حيث لا يحجم عن التفكير في أيّ أمر، ولا يتردد في تقرير أيّ رأي وموقف يقتنع به.

كما تعززت لدى الإنسان المعاصر جرأة التعبير عن رأيه، حيث تقلصت سلطات القمع والبطش، وأمكن تجاوز حواجزها ورقابتها إلى حدٍّ كبير.

وفقدت مراكز القدرة والقوة في المجتمع البشري الكثير من هيبتها ورهبتها المادية والمعنوية، التي كانت تُحكم بها سيطرتها على من حولها، وتمنعهم من النقد والاعتراض والتمرد عليها.

حتى الأسرة لم تعد قادرة على الهيمنة على أفرادها كما في الزمن الغابر، حيث كانت الزوجة والأولاد يعلنون الخضوع التام لربِّ الأسرة.

فقد تطور الوعي الحقوقي بين بني البشر، وأصبحوا مهتمين بالتمتع بتلك الحقوق وممارستها في حياتهم، ضمن مختلف المواقع، وأصبحت تلك الحقوق محميّة بسياج من القوانين والمواثيق والمعاهدات الدولية، والرأي العام العالمي.

كما تواجه الحكومات وخاصة غير الديمقراطية تحديًا أكبر في ممارسة سلطتها وهيمنتها على شعوبها.

ونصل في هذا السياق إلى الحديث عن مواقع القدرة المعنوية المتمثلة في المؤسسة الدينية والقيادات الروحية من علماء الدين، فهل هم في منأى عن هذه التطورات؟

هل يحظون اليوم بالدرجة ذاتها التي كانوا يتمتعون بها في الماضي من الهيبة والتقديس؟

هل لا يزال علماء الدين والمؤسسة الدينية منطقة محظورة لا يقتحمها النقد والاعتراض؟

صحيح أن دور الدين قد تصاعد في المجتمعات، وتبعًا لذلك زاد نفوذ علماء الدين وتأثيرهم.

لكن ذلك أيضًا أدى إلى تسليط الأضواء عليهم، فأصبحوا تحت المجهر، وهناك

مراكز وأطراف تشعر بمنافسة القوى الدينية لنفوذها، فتسعى لإضعافها والنيل من مكانتها ودورها في المجتمع.

كما أن الوسط الديني ليس مجتمعًا ملائكيًا، ومن الطبيعي أن تعتريه النواقص، وتحدث فيه الثغرات، شأن كل مجتمع وأداء بشري.

وفي صفوف علماء الدين قد تتعدد الاتجاهات، وتتنوع الانتماءات، وتختلف الآراء، وتتضارب المصالح، وبالتأكيد لن تنحصر خلافاتهم في داخلهم، ولن يمكن التستر عليها، بل سيسعى كل طرف منهم للانتصار بالمجتمع على الطرف الآخر، ذلك لأن كسب الجمهور هو ساحة التنافس.

وملحوظ أن تجريح بعض علماء الدين لبعضهم، خارج إطار النقاش العلمي، هو ما شجع الآخرين وجرّأهم على النيل من مكانة علماء الدين، وتشويه سمعتهم.

لكل ما سبق، فإن من الطبيعي أن تثار التساؤلات، ويحصل النقد والاعتراض على بعض مواقف وأداء المؤسسة الدينية، وعلى تصرفات وممارسات بعض المنتمين إليها.

ولم يعد ممكنًا ردع هذه التساؤلات والاعتراضات بالوعيد والتحذير الوعظي، كالقول بأن لحوم العلماء مسمومة، وأن الرادّ عليهم كالرادّ على الله ورسوله.

كما لا يصح تجاهل حالة النقد والاعتراض؛ لأن ذلك يعني اتساع رقعتها، وإضعاف الحالة الدينية، وانحسار دور العلماء، وحصول ردة فعل من الجيل الجديد تجاه الدين.

والمنحى الصحيح الذي يجب أن تسلكه المؤسسة الدينية، هو استقبال النقد

والتساؤلات برحابة صدر، ودراستها بموضوعية، والإجابة عنها بوضوح، والإقرار بمواقع الخطأ، والسعي للمعالجة والتصحيح، وتشجيع النقد الذاتي في الوسط الديني، انطلاقًا من التوجيه النبوي الكريم: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسبوا وزِنُوها قبل أن تُوزنوا»[1].

ضمن هذا السياق جاءت فكرة كتابة هذه الصفحات الماثلة بين يدي القارئ الكريم، حيث تناقش بعض ما يُثار حول الخطاب الديني وأداء المؤسسة الدينية، والممارسة السلوكية لبعض المنتمين إليها.

وهي مساهمة في الاستجابة لتحدي بعض التساؤلات والانتقادات، وممارسة لشيءٍ من النقد الذاتي، كتبتها في أوقات متباعدة، من وحي بعض الأحداث والمناسبات، ونشرت في كتاب تحت عنوان (القيادات الدينية الخطاب والأداء الاجتماعي)، ثم رأيت دمجها مع بحوث سبق أن نشرتها في كتاب تحت عنوان (علماء الدين قراءة في الأدوار والمهام) لأنها تستكمل معالجة سائر الزوايا والأبعاد لذات الموضوع، أرجو أن يكون في نشرها نفع وفائدة. وأن يتقبلها الله بأحسن القبول إنه يقبل اليسير ويعفو عن الكثير وهو ولي التوفيق والتسديد.

حسن بن موسى الصفار
٣ جمادى الأولى ١٤٣٩هـ
٢٠ يناير ٢٠١٨م

---

(١) محمد بن الحسن الحر العاملي. وسائل الشيعة، ج١٦، الطبعة الأولى١٤١٣هـ، (بيروت: مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث)، ص٩٩، حديث٢١٠٨٢.

مدخل

لم يستطع التقدّم العلميّ والتكنولوجيّ الهائل الذي حققته الحضارة الغربية المعاصرة إلغاء الدين في حياة الإنسان، ولا التعويض عنه والحلول محلّه، كما توقّع المنبهرون بهذه الحضارة المادّية في مطلع القرن العشرين.

بل على العكس من ذلك، فقد أفرزت هذه الحضارة الكثير من الأزمات الاجتماعية، وأثارت العديد من التساؤلات الفلسفية والفكرية، ووضعت الإنسان أمام تحدّيات صارخة في مختلف جوانب الحياة.

ممّا أكّد لإنسان العصر ضرورة العودة إلى الدين، والتفيّؤ بظلاله الوارفة وأحضانه الدافئة، هربًا من العراء والتصحّر المادّيّ الّذي أفقد الإنسان إنسانيته، وأضاع أحاسيسه ومشاعره النبيلة، وحوّله إلى أداة وسلعة تتحدّد قيمته بمدى إنتاجه المادّيّ، ويُتعاطى معه على أساس نفعيّ مصلحيّ مجرّد.

وعودة الدين إلى حياة الإنسان، أو عودة الإنسان إلى أحضان الدين، في هذا

العصر، ظاهرة عالمية واضحة في كلّ أرجاء المجتمعات البشرية، وضمن مختلف الديانات، إلّا أن الإسلام يأتي في طليعة الديانات الأوسع نموًّا وانتشارًا، والأقوى حضورًا وإحياءً في ساحة معتنقيه.

هذه الظاهرة تجعل الدين، من جديد، على محكّ التجربة العنيفة، وأمام الامتحان الصعب...

فهل يقدّم للبشرية ما تحتاج إليه من إجابات؟

وهل يمتلك الحلول والمعالجات للأزمات الحادّة الّتي تعاني منها المجتمعات الإنسانية المعاصرة؟

إنّ علماء الدين هم الجهة المعنية أساسًا بهذا التحدّي الّذي يواجهه الدين اليوم، فهم المتخصّصون في دراسته، والمتعمّقون في معرفته، والمتصدّون لنشره وتبيين مفاهيمه وأحكامه.

وعلى عاتقهم تقع مسؤولية تقديم البرامج والمعالجات للإشكالات المثارة، والتحدّيات القائمة، على ضوء هدي الإسلام ومن خلال مبادئه وتعاليمه.

لكنّ المشكلة أنّ الكثير من علماء الدين يعيشون الغربة عن عصرهم، فلا يواكبون التطوّرات، ولا يدركون عمق التحدّيات، وتشغلهم اهتمامات العصور الماضية في مجالات الفكر والفقه.

***

تعيش الأمّة الإسلامية واقعًا متخلّفًا عميق الجذور، فبينها وبين ركب الحضارة المادّية المتقدّم مسافة شاسعة.

وفي شتّى مجالات الحياة، تواجه المعضلات والتحدّيات. فالوضع السياسي مضطرب في أغلب الدول الإسلامية، جرّاء فقد الاستقرار والأمن، حيث تنعدم الديموقراطية، وتغيب فرص المشاركة السياسية والتداول السلميّ للسلطة...

والحالة الاقتصادية سيّئة، مع وفرة الإمكانات والثروات في العديد من البلدان الإسلامية، لكنّ الإدارة متخلّفة، والتنمية الاقتصادية متعثّرة.

والحركة العلمية والفكرية ضعيفة بطيئة، حيث يقلّ الإبداع والتطوير.

والعلاقات الداخلية بين الدول والجهات والقوى المختلفة في الأُمّة لا تتّسم بالتفاهم والانسجام، بل تسودها حالات النزاع والخصام.

لكنّ ما يبعث الأمل هو حركة جماهير الأمّة، وانبعاث الصحوة الإسلامية المباركة في هذا العصر.

هذا الانبعاث بحاجة إلى مناهج ورؤى فكرية ثقافية تصوغ ذهنيات أبناء الأمّة، وتحفظ أصالتهم، وترشد حركتهم، وتعينهم على استيعاب تطوّرات العلم والفكر. وبحاجة إلى برامج وخطط عملية لبناء المستقبل المنشود. وإذا لم تتوفّر المناهج الفكرية والبرامج العملية، وبقي الحماس والاندفاع وحده سيّد الموقف، فإنّ هذا الانبعاث تتهدّده أخطار عظيمة، قد تنحرف بمساره، وتغتال الآمال المعقودة عليه.

وما يلاحظ الآن من وجود حالات تزمّت وتطرّف عند بعض الجهات العاملة باسم الإسلام، أو سياسات خاطئة منحرفة تمارسها قوى إسلامية في موقع السلطة والحكم، كلّ ذلك مؤشّر على الفقر في المناهج والبرامج الفكرية العملية، يثير القلق على مستقبل الدين والأمّة.

والأنظار شاخصة نحو علماء الدين لكي يتصدّوا لإبداع المناهج، وابتكار البرامج المنبثقة من وحي الدين، الّتي تساعد الأمّة على إنجاز عملية النهوض والتغيير، وترسم أمامها طريق المستقبل الحرّ الكريم.

***

علماء الدين بما يحملون من هدي الرسالة، وما يملكون من تأثير روحيّ على الناس، وموقعية ونفوذ في أوساطهم، يشكّلون رصيدًا ضخمًا، ومخزونًا هائلًا من القدرة والإمكانية، إذا ما وظّف في مشروع النهضة والبناء الحضاريّ، فسيخلق أمواجًا من الفاعلية والنشاط، وسيدفع بحركة الأمّة أشواطًا بعيدة إلى الأمام.

إن أكثر علماء الدين لا يدركون خطورة الموقعية الّتي يمثّلونها، ولا يعرفون حجم القدرات الّتي يمتلكونها، ولا أهمّية الدور الّذي يمكنهم أداؤه لمصلحة الدين والأمّة، لذلك ينطوون على أنفسهم، ويكتفون بممارسة أدوار تقليدية محدودة.

كما أنّ أغلب جماهير الأمّة تجهل مدى مسؤولية علماء الدين، لذلك تسكت على تقاعسهم، وتقبل منهم اليسير من المهامّ الدينية المألوفة.

***

المطلوب من علماء الدين في هذا العصر، بالدرجة الأولى، تجديد مناهج الاجتهاد في الدين، لاستنباط الحلول والمعالجات لما يواجه البشرية من مشكلات وأزمات. وذلك يقتضي فهم قضايا العصر، والانفتاح على تطوّرات العلم والحياة، والتحرّر من ضيق الأفق والقوالب الجاهزة في التفكير، ممّا يفقد الاجتهاد معناه، ويحوّل العلماء المعاصرين إلى مقلّدين ومتّبعين لآراء السالفين.

يذكر الراصدون لتطوّر حركة الاجتهاد والفتوى أنّ ركودًا وجمودًا أصاب الوسط العلميّ، بعد عهد الشيخ محمّد بن الحسن الطوسيّ، الملقّب بشيخ لطائفة، والمتوفّى سنة ٤٦٠هـ حيث (لم يكن من الهيّن على أحد منهم أن يعدو نظريات شيخ الطائفة في الفتاوى، وكانوا يعدّون أحاديثه أصلًا مُسَلّمًا، ويكتفون بها، ويعدّون التأليف في قبالها، وإصدار الفتوى مع وجودها تجاسرًا على الشيخ وإهانة له، واستمرّت الحال على ذلك حتى عصر الشيخ محمد بن إدريس الحلّيّ المتوفّى سنة ٥٩٨هـ، أي بعد ١٣٨ سنة من وفاة الشيخ الطوسي فكان الشيخ ابن إدريس يسمّي علماء عصره بالمُقَلِّدة، وهو أوّل من خالف بعض آراء الشيخ وفتاواه، وفتح باب الردّ على نظرياته. ومع ذلك فقد بقي العلماء على تلك الحال، حتى إن المحقّق الحلّيّ المتوفّى سنة ٦٧٦هـ، وابن أخته العلاّمة الحلّيّ المتوفّى سنة ٧٢٦هـ، ومن عاصرهما بقوا لا يعدون رأي شيخ الطائفة)[1]، وذلك بعد حوالي ثلاثة قرون من عهد الشيخ الطوسّي.

ويبدو أن هذا الشلل والركود رأي الأعلام السابقين أصبح منهجًا مستمرًّا في أوساط علماء الدين إلاّ ما ندر. والحاجة ماسّة في هذا العصر لجرأة ابن إدريس وشجاعته العلمية، ليتحرّر العلماء من ربقة رأي المشهور وأقوال علماء السلف، ويتعاملوا مع النصّ الشرعيّ مباشرة، وبالانفتاح على الواقع والتشخيص الدقيق للموضوعات.

ومع أن الفقهاء في مجال الاستدلال والبحث لا يجدون مستندًا ولا دليلًا شرعيًا على الأخذ والالتزام برأي المشهور، ولا يقبلون حجّيّة الشهرة في الفتوى، إلاّ أنهم عمليًا يتقيّدون بذلك.

---

(١) السيد محسن الأمين. أعيان الشيعة، ج٩، الطبعة الثانية ١٩٨٣، (بيروت: دار التعارف للمطبوعات)، ص١٦٠ (بتصرف).

(إن وجه حجّيّة الشهرة أحد الأمور المذكورة من أدلة حجّيّة الخبر الواحد أو المشهور والمقبولة أو بناء العقلاء، لكن شيئًا منها لا يصلح للاستناد لما عرفت من المناقشة في الجميع، ومع ذلك فلو لم يوجد في المسألة دليل يصح الاستناد إليه مما يكون محتملًا لاستناد المشهور، وقامت الشهرة على الفتوى بشيء أشكل الفتوى على خلاف ذلك، مستندًا إلى الأصل العملي أو ما أشبه، إذ الغالب حصول الاطمئنان بوجود دليل معتبر في المسألة لم تصل إليه اليد، خصوصًا إذا كانت الشهرة شهرة القدماء)[١]. فالإنشداد النفسي بالاطمئنان والثقة بالقدماء هما باعث هذا المسلك.

***

علماء الدين ليست مهمتهم إصلاح أمور الناس في الآخرة فقط عبر توجيههم إلى عبادة الله وطاعته، بل هم معنيون، قبل ذلك، بإدارة شؤون الناس في الدنيا وإصلاح أوضاعها.

ذلك أن الدين الذي يحملون رسالته ليس برنامجًا للنجاح في الآخرة فحسب، بل هو نظام لإسعاد الناس في الدنيا قبل ذلك.

يقول تعالى: ﴿**لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ**﴾[٢].

ويقول تعالى: ﴿**رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ**﴾[٣].

(١) السيد محمد الحسيني الشيرازي. الوصول إلى كفاية الأصول، ج٣، الطبعة الثانية ١٩٨٨م، (قم: دار الإيمان)، ص٤٧١.
(٢) سورة الحديد، الآية: ٢٥.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٠١.

و(بالدنيا تُحرز الآخرة) كما يقول الإمام علي عليه السلام.

و(ليس منا من ترك دنياه لدينه أو ترك دينه لدنياه) كما في حديث آخر. و(أعظم الناس همًّا المؤمن يهتم بأمر دنياه وأمر آخرته) كما يروى عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وذلك يعني أن على علماء الدين الاهتمام بمختلف شؤون المجتمع، وأن يوجهوا عنايتهم لجميع حقول الحياة.

***

عالم اليوم هو عالم التكتلات الدولية، والشركات المتعددة الجنسيات، والمؤسسات والمنظمات التي تعمل على مستوى الكرة الأرضية، ولا قيمة في هذا العالم للنشاط الفردي والأعمال الشخصية المحدودة.

وأسلوب العمل السائد لدى الأغلب من علماء الدين العاملين هو التحرك الفردي، حيث تنعدم التجمعات والمؤسسات، ويعتمد كل عالم في حركته على نفسه، وعلى من يلتف حوله من الأتباع دون مأسسة أو تنظيم.

إن من الضرورة بمكان اعتماد أطر للتشاور والتعاون بين علماء الدين على مستوى الأمة، وعلى مستوى المناطق والمجتمعات، وأن يمارس العلماء فاعليتهم ونشاطهم العلمي والعملي ضمن مؤسسات تقوم على أساس النظم الإدارية الحديثة، وتستفيد من تقدم العلم وتطور وسائل الاتصال.

إن المهتمين بمختلف جوانب العلم والحياة، من سياسيين وعلماء الطبيعة وخبراء الاقتصاد وباحثي الاجتماع، وحتى هواة الرياضة والفن، لديهم مؤتمرات وملتقيات يتداولون فيها شؤون اهتماماتهم، ويتبادلون عبرها الرأي والخبرة

والتجربة، ولديهم مراكز دراسات وأبحاث يستندون إليها في أعمالهم وأنشطتهم، فإلى متى يبقى علماء الدين ضمن الحالة الفردية والشخصية، واعتمادًا على القدرة الذاتية المحدودة؟

***

موقعية علماء الدين، والأدوار التي يجب أن يقوموا بها، والمهام التي عليهم أن يتحملوها، وكذلك واقع علماء الدين بما فيه من نقاط ضعف وقوة، ومن ممارسات سلوكية، وأساليب عمل... كل ذلك يجب أن يُفتح فيه باب النقاش، ويُتاح فيه مجال البحث.

فالأمر لا يتعلق بحالات خاصة لأشخاص، ولا بقضايا تمس فئة محدودة، بل هو مرتبط بالشأن العام، ومتصل بمصلحة الدين والأمة.

وقد آن أن تُعالج مثل هذه المواضيع بجرأة وانفتاح، وعبر الحوار الموضوعي، وما يُشاع من أن الأمور المرتبطة بالعلماء تكون محدودة التداول فيما بينهم، وتناقش في غرفة مغلقة بعيدًا عن الأضواء، غير صحيح وغير ممكن في هذا العصر الذي يتسم بالانفتاح وتقدم الإعلام وثورة المعلومات.

وعلى هذه الخلفية تأتي صفحات هذا الكتاب، الذي كُتبت فصوله في فترات زمنية متباعدة، ونشر قسم منها في بعض المجلات الفكرية الإسلامية.

وإذ أقدم هذه الفصول مجموعةً ضمن كتاب، بين أيدي أساتذتي العلماء، وإخواني طلاب العلوم الدينية، والنخبة الواعية من أبناء المجتمع، لأرجو أن يكون مساهمة في بلورة الرؤية، ووضع برامج عمل للأدوار والمهام التي يضطلع بها عالم الدين في حياة المجتمع.

وقد تكون بعض الأفكار والمقترحات الواردة في فصول هذا الكتاب موردًا للنقاش وإبداء الرأي، وذلك أمر مطلوب ومفيد، لإثراء البحث وتلاقح الأفكار وتكامل الآراء.

الفصل الأول

علماء الدين والشأن الثقافي

مدخل

لا بدّ للدين من رجال يتخصصون في دراسة مبادئه وأحكامه، فهي، لشمولها وسعة استيعابها لقضايا الإنسان والحياة، لا يمكن الإلمام والإحاطة بها دون دراسة معمّقة واهتمام مركز.

وخاصة في هذه العصور المتأخرة عن عصر النص الشرعي المتمثل في القرآن الكريم والسنة المطهرة، فإن الوصول إلى الكثير من المعارف و الأحكام الشرعية، يستلزم التوفر على مستوى من الخبرة والمعرفة في مجالات علمية وأدبية مختلفة، ليتمكن الإنسان بها من اكتشاف النص الشرعي الصحيح وإدراك مدلوله.

فقد حدث تغيير في أساليب التعبير، واختلاف في المصطلحات بين الأجيال اللاحقة والسابقة، كما تعرض قسم من النصوص الشرعية للتلف والضياع، وحصل شيء من الدسّ والوضع في الأحاديث والروايات، فأصبحت مهمة استكشاف الحكم الشرعي بحاجة إلى معرفة بعلوم اللغة العربية وآدابها، وإلمام بعلم التفسير الحديث، واطلاع على أصول وقواعد الاستنباط، ودراية بآراء أئمة الفقه.

وذلك بحاجة إلى بذل جهد كبير، وصرف وقت واسع، لا يتأتى إلا بالتوجه والتخصص، كما هو الشأن في مختلف حقول العلم والمعرفة وشتى ميادين الحياة.

بالطبع، فإنه لا يمكن لكل أبناء الأمة التوجه لدراسة الدين والوصول إلى درجة التخصص فيه؛ لأن ظروف الحياة لا تسمح بذلك، كما أن القابليات النفسية والذهنية ليست عند الجميع في مستوى الرغبة والاستيعاب.

فكيف إذًا يستطيع كل مسلم أن يتعرف مبادئ وأحكام دينه، إذا كان الوصول إلى ذلك بحاجة إلى مستوى علمي يصعب توفره لدى الجميع؟

الجواب عن ذلك بيّن واضح؛ لأن الإنسان يواجه هذه المعادلة في مختلف مجالات الحياة، فهو لا يستطيع التخصص في الطب والهندسة والزراعة والصناعة وسائر المجالات مع حاجته إليها، لكنه يعتمد على المتخصصين في كل حقل، حيث يتقاسم الناس بينهم الأدوار والتخصصات، ويعتمدون على بعضهم بعضًا، كل في مجال اهتمامه وتخصصه.

وهذا ما أمضاه الشارع وأقره في مجال الوصول إلى التعاليم والأحكام الشرعية، حيث لم يوجب الدراسة التخصصية في علوم الدين على جميع المكلفين لتعذر ذلك وتعسره، بل أوجب توجه فئة من كل مجتمع للتخصص في دراسة الدين. يقول تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ**﴾[١]. فوجود علماء الدين ضروري في الأمة انطلاقًا من ضرورة العلم بمبادئ الدين وأحكامه، الذي لا يتوفر إلا على أيدي المتخصصين فيه، وهم العلماء.

***

---

(١) (١) سورة التوبة، الآية: ١٢٢.

هناك مهام عديدة ترتبط بالدين، وتستلزم وجود فئة متفرغة للقيام بها. ومن أبرزها المهام التالية:

- تبيين مفاهيم الدين وأحكامه في مختلف جوانب الحياة، وشرحها لأبناء المجتمع المسلم، بالتعليم المباشر، والإجابة عن أسئلة المستفسرين، وعبر شتى أساليب التبليغ والإعلام.
- التذكير بالقيم الروحية والفضائل الأخلاقية، وتوجيه الناس للاستعداد لآخرتهم، عبر الوعظ والإرشاد الذي يثير وجدان الإنسان، ويوقظ ضميره، حتى لا تسيطر عليه الانشدادات المادية الجارفة، فيفقد توازنه ومشاعره الإنسانية.
- القضاء بين الناس، وفصل الخصومات والنزاعات على أساس موازين الشرع.
- معالجة الإشكالات والشبهات الفكرية التي تثار من قبل المخالفين للدين، أو تطرحها تطورات الحياة.
- الدعوة إلى الله تعالى والتبشير بالدين في سائر المجتمعات البشرية.

هذه المهام الدينية الخطيرة وأمثالها، لا يمكن أن تُترك على هامش حياة بعض الأفراد، ولأوقات فراغهم، بل لا بدّ من فئة متفرغة تتصدى لتحمّل مسؤوليتها ولإنجازها في واقع الأمة، وتكون متّصفة بالعلم والفقاهة في الدين.

***

الغرائز والشهوات الموجودة في أعماق نفس الإنسان، وإغراءات الحياة وعالم

المادة، تدفع الإنسان للاستغراق في الاهتمامات المادية المصلحية، وتبعده عن الالتزام بالقيم والمبادئ السامية، فيحتاج المجتمع، إضافةً إلى التعليم والتذكير، إلى قدوات هادية من أبنائه، تشكل بسيرتها وسلوكها نموذجًا في الالتزام بالدين والتقيد بأحكامه، ما يخلق الحوافز والدوافع النبيلة في نفوس أبناء المجتمع نحو الالتزام بالتعاليم والقيم. وعلماء الدين هم المؤهلون ليكونوا قدوات هادية، ونماذج صالحة، تقود الناس إلى طريق الخير والصلاح. يقول تعالى: ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى الله مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ**﴾[1]. فعلماء الدين هم امتداد لحياة الأنبياء والأوصياء كما ورد في الحديث الشريف عنه ﷺ: (العلماء ورثة الأنبياء).

***

من هذه المنطلقات تأتي أهمية وجود علماء الدين، ولذلك أوجب الإسلام وجود هذه الفئة في الأمة، ومنحها مكانة عالية ودرجة رفيعة من التكريم والتبجيل، تمكنها من القيام بمهامها ومسؤولياتها الخطيرة، ودعا الأمة إلى الالتفاف حول علماء الدين والأخذ بهديهم، والسير خلف قيادتهم لتطبيق قيم الدين وشريعته.

إن موقعية علماء الدين في الأمة تتأثر بمدى توجه الأمة لدينها، فكلما تصاعد التوجه الديني في أوساط المجتمع ارتفعت مكانة العلماء.

ونلاحظ الآن، مع تنامي الصحوة الإسلامية المباركة، كيف تعززت مكانة علماء الدين، وتبوّؤوا مواقع قيادية في العديد من المناطق والمجتمعات، واشتهرت شخصياتهم وظهرت أسماؤهم، وزاد الإقبال على الانضمام للحوزات والمدارس الدينية.

***

(١) سورة فاطر، الآية: ٢٨.

إن قيمة علماء الدين ومكانتهم منوطة بمدى تحملهم لمسؤولياتهم تجاه الدين والمجتمع، وقيامهم بالمهام الملقاة على عواتقهم. فهي ليست قيمة ذاتية ثابتة لأشخاصهم وإنما هي تابعة للدور الذي يؤدونه في التصدي للوظائف الشرعية، ومشروطة بالتزامهم بالمواصفات والسمات التي حددتها التعاليم الدينية.

وإذا ما تخلى عالم الدين عن القيام بمسؤولياته، أو قصّر في الالتزام بالقيم والتكاليف الشرعية، فإنه لا يصبح ساقط الاعتبار فقط، بل يكون عنصرَ خطرٍ ومنبعَ شرٍّ وسوءٍ للإسلام والأمة.

فعالم الدين قد يكون سببًا لإعلاء كلمة الله تعالى، ودافعًا لتقدم الأمة، وذلك في حال تقمصه لقيم الدين وقيامه بالمهام والمسؤوليات، وقد يصبح حجر عثرة في طريق الإسلام والأمة، وأداة فساد وإفساد في حياة المجتمع، حينما ينحرف عن الطريق المستقيم.

***

ما هي وظيفة العالم الديني؟

وما هو دوره في الأمة؟

إن الوظيفة المعروفة، والدور التقليدي لعالم الدين في مجتمعاتنا، يتلخص في تعليم الأحكام الفقهية، التي غالبًا ما تنحصر في مسائل العبادات، والأحوال الشخصية، وإجراء المراسيم الدينية كصلاة الجماعة، وعقود الزواج والطلاق، والصلاة على الميت وتلقينه.

ولكن هذا الدور الهامشي المحدود، الذي يضطلع به عالم الدين، لا يتناسب

مع الصورة الخطيرة التي ترسمها النصوص الدينية من آيات وأحاديث لمقام عالم الدين ولموقعيته في الأمة.

فعن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن مثل العلماء في الأرض كمثل النجوم في السماء، يهتدى بها في ظلمات البر والبحر، فإذا انطمست أوشك أن تضل الهداة»[(١)].

وعنه ﷺ: «علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل»[(٢)].

وفي حديث آخر عنه ﷺ: «الفقهاء أمناء الرسل»[(٣)].

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن العالم ليستغفر له من في السماوات ومن في الأرض: والحيتان في جوف الماء، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء»[(٤)] رواه أبو داود والترمذي.

وقال رسول الله ﷺ: «العالم أمين الله سبحانه في الأرض»[(٥)].

وعن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «العلماء حكام على الناس»[(٦)].

---

(١) زين الدين بن علي العاملي الشهيد الثاني. منية المريد في آداب المفيد والمستفيد، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ، (قم: مكتب الإعلام الإسلامي)، ص ٢٥.

(٢) محمد باقر المجلسي. بحار الأنوار، ج٢، الطبعة الثانية ١٩٨٣م، (بيروت: مؤسسة الوفاء)، ص ٢٢.

(٣) المصدر نفسه. ج ١، ص ٢١٦.

(٤) محمد بن عبدالواحد المقدسي. فضائل الأعمال، الطبعة الأولى ١٩٨٧م، (بيروت: مؤسسة الرسالة)، ص ٥٦٥.

(٥) أبو حامد محمد بن محمد الغزالي. إحياء علوم الدين، ج١، (بيروت: دار المعرفة)، ص ٦.

(٦) عبد الواحد الآمدي التميمي. غرر الحكم ودرر الكلم، الطبعة الأولى ١٩٨٧م، (بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات)، ص ٣٢.

وعن الإمام الحسين بن علي عليه السلام: «مجاري الأمور والأحكام على أيدي العلماء بالله الأمناء على حلاله وحرامه»(١).

إلى عشرات النصوص والأحاديث التي تبين فضل العلماء، وتؤكد مكانتهم الخطيرة، وتدعو الأمة إلى الالتفاف حولهم، والسمع والطاعة لهم، وإن الراد على مستكمل الشرائط منهم كالراد على الله، كما هو نص مقبولة عمر بن حنظلة عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنه قال: «من كان منكم ممن قد روى حديثنا، ونظر في حلالنا وحرامنا، وعرف أحكامنا، فليرضوا به حكمًا، فإني قد جعلته عليكم حاكمًا، فإذا حكم بحكمنا فلم يقبله منه فإنما استخف بحكم الله وعلينا ردّ، والراد علينا الراد على الله، وهو على حدّ الشرك بالله»(٢).

وواضح أن الدور الهامشي المحدود لعالم الدين الإسلامي لا يستدعي كلّ هذا التأكيد والتركيز لمكانة العالم وفضله الوارد في تلك النصوص الدينية.

فما هو إذًا دور عالم الدين؟

وما هي وظيفته الحقيقية؟

بدراسة واعية للمفاهيم والنصوص الدينية في هذا المجال يمكننا القول بجزم ويقين أن دور عالم الدين هو دور القيادة للأمة، في مختلف مجالات الحياة، وأن وظيفته هي رعاية شؤون المجتمع في جميع الجوانب.. ذلك أن الإسلام منهج كامل شامل لتنظيم حياة الإنسان، والأمة مطالبة بتنفيذ برامج الدين وتطبيقها، فلا بدّ

---

(١) محمد بن الحسن بن شعبة الحراني. تحف العقول، الطبعة الخامسة ١٩٧٤م، (بيروت: مؤسسة الأعلمي)، ص ١٧٢.

(٢) محمد بن يعقوب الكليني. الكافي، ج ١، الطبعة الثالثة ١٣٨٨هـ، (طهران: دار الكتب الإسلامية)، ص ٦٧.

أن تتوفر في قيادة الأمة صفتا العلم التفصيلي بمبادئ الدين وأحكامه، والالتزام الواعي بها.

ومن هذا المنطلق فإن هناك مصاديق وتجليات للدور القيادي لعالم الدين، وسنعرض في هذا البحث لواحدة من أهم تلك المصاديق والتجليات، وهي دور علماء الدين في قيادة الجانب الفكري والثقافي للأمة.

التوجيه الفكري والحصانة الثقافية

كيف تنتشر معارف الإسلام، ويطلّع الناس على أحكامه وتعاليمه، إذا لم يقم العلماء الفقهاء بمسؤولية التوعية والإرشاد والتعليم؟ لقد كان رسول الله ﷺ يتحمل هذه المسؤولية الخطيرة لقوله تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ..** ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿**وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ**﴾[2].

وبعد رسول الله ﷺ كان الأئمة الهداة من أهل بيته عليهم السلام والخيرة الطيبة من صحابته يضطلعون بهذا الدور الخطير.

أما في هذا العصر فإن المسؤولية تقع على عاتق الفقهاء الأعلام ورثة الأنبياء، وأمناء الرسل، ونوّاب الأئمة.

---

(١) سورة الجمعة، الآية: ٢.

(٢) سورة النحل، الآية: ٤٤.

بالطبع فإن القيام بدور التوجيه الفكري لأمة يستلزم الرصد والمواجهة، للأفكار والتيارات المضادة والمنحرفة التي قد تغزو الأمة من الخارج، أو التي تنشأ في أوساط المجتمع نتيجة جهل أو سوء فهم أو نزعات مغرضة.

أما تحديد دور الفقهاء المراجع باستنباط المسائل الفقهية المحدودة، دون أن يكون لهم شأن أو اهتمام بتبيين مفاهيم القرآن، وعقائد الإسلام، وتعاليمه ومناهجه لمختلف جوانب الحياة، ودون أن يحصنوا جماهير الأمة عن تأثيرات الكفر والإلحاد والجهل والانحراف العقائدي والثقافي... أما هذا الفهم الضيق لدور الفقهاء المراجع على الصعيد العلمي المعرفي، فهو ناشئ عن قصور في فهم أبعاد الرسالة الإلهية، وتأثر بحالة التخلف والانحطاط التي عاشتها الأمة في هذه العصور.

ولنتأمل الآن بعض الآيات والروايات التي تنص وتؤكد هذه المسؤولية الخطيرة الملقاة على كاهل علماء الدين وفقهائه:

يقول تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾(١).

ويقول تعالى: ﴿**وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ**﴾(٢).

ويقول تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ**

(١) سورة البقرة، الآية: ١٧٤.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٨٧.

لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ الله وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ (١).

فالآيات الكريمة تعتبر تقاعس العلماء عن تبيان ما أنزل الله من البينات والهدى كتمانًا لرسالة الله، ونبذًا وإعراضًا عن دينه، وتتوعد أولئك المتقاعسين بأشد العذاب والنكال.

إن هدف العلماء من طلبهم للعلم وتعمقهم فيه، إنما هو إرشاد مجتمعاتهم، وصيانة مسيرتها من الخطأ والانحراف، يقول تعالى: **﴿فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾** (٢).

أما الأحاديث والروايات فتتناول هذا الموضوع بتأكيد ووضوح، فعن النبي ﷺ: «من كتم علمًا نافعًا ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار» (٣).

ونقل الحديث أبو حامد الغزالي بالنص التالي: قال ﷺ: «من علم علمًا فكتمه ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار» (٤).

وقال ﷺ: «ما آتى الله عالمًا علمًا إلا وأخذ عليه من الميثاق ما أخذ على النبيين أن يبينوه للناس ولا يكتموه» (٥).

وعن الإمام محمد بن علي الجواد عليه السلام: «والعلماء في أنفسهم خانة أن كتموا النصيحة إن رأوا تائهًا لا يهدونه، أو ميتًا لا يحيونه فبئس ما يصنعون» (٦).

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٥٩.
(٢) سورة التوبة، الآية: ١٢٣.
(٣) بحار الأنوار. ج٣، ص ٧٨.
(٤) إحياء علوم الدين، ج١، ص ١٠.
(٥) المصدر نفسه. ص ٦.
(٦) الكافي. ج ٨، ص ٥٤.

وإذا ما عشش الجهل في أوساط الأمة، فإن العلماء يتحملون مسؤولية ذلك؛ لأن تعليم الناس واجب ديني ملقى على عاتق العلماء، قبل أن يكون التعلم فريضة على الجهّال، يقول الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: «ما أخذ الله على أهل الجهل أن يتعلموا حتى أخذ على أهل العلم أن يعلموا»(١).

وبلفظ آخر يرويه حفيده الإمام جعفر الصادق عليه السلام قال: «قرأت في كتاب علي عليه السلام: إن الله لم يأخذ على الجهال عهدًا لطلب العلم حتى أخذ على العلماء عهدًا ببذل العلم للجهّال؛ لأن العلم كان قبل الجهل» (٢).

أما وظيفة العالم تجاه الانحرافات الفكرية فبينها حديث شريف عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إذا ظهرت البدع في أمتي فليظهر العالم علمه، فمن لم يفعل فعليه لعنة الله» (٣).

وفي حديث آخر عنه صلى الله عليه وآله وسلم: «يحمل هذا الدين في كلّ قرن عدول ينفون عنه تأويل المبطلين وتحريف الضالين، وانتحال الجاهلين، كما ينفي الكير خبث الحديد» (٤).

ولكي ندرك مدى أهمية وخطورة تصدي العالم للمقاومة والصراع الفكري الثقافي، لتثبيت مفاهيم الدين ومبادئه، وللوقوف أمام العدوان والانحراف الفكري.. لكي ندرك ذلك علينا التأمل في الأحاديث التي تؤكد أفضلية مداد العلماء (الحبر) الذي تكتب به أقلامهم على دماء الشهداء الذين يسقطون في معارك الجهاد دفاعًا عن الدين والأمة.

---

(١) الشريف الرضي الموسوي. نهج البلاغة، الطبعة الأولى ١٩٦٧م، (بيروت: دار الكتاب اللبناني)، حكمة ٤٧٨.

(٢) بحار الأنوار. ج٢، ص٦٧.

(٣) الكافي. ج ١، ص ٥٤.

(٤) محمد رضا الحكيمي. محمد علي الحكيمي. الحياة، ج٢، الطبعة الثانية ١٤٠٠هـ، (بيروت: الدار الإسلامية)، ص ٢٩١.

فهذه الأحاديث تلفت أنظارنا إلى أن هناك نوعين من العدوان ومن الفتوحات، عدوان عسكري، وعدوان فكري، وفتح عسكري، وفتح فكري. وكما أن على الأمة أن، تواجه العدوان العسكري، تفكر في الفتوحات العسكرية، لشق الطريق أمام الرسالة، فكذلك عليها مواجهة العدوان الفكري، وإيصال الهداية إلى سائر المجتمعات عبر القلم والبيان، وإذا كان الجنود يبذلون دماءهم في ساحة المعركة العسكرية، فإن العلماء هم جنود معارك الفكر والثقافة، وأقلامهم سلاحهم المشرع، ومدادها يوازي دماء الشهداء بل يرجح عليه.

وأيّ هزيمة عسكرية ستصيب الأمة لو بخل الجندي ببذل دمه؟

لكنها هزيمة تهون أمام الانكسار والانهزام الفكري والثقافي، لو لم يبذل العلماء الجهود، ويتحملون المسؤوليات في التوجيه والتثقيف، ومقاومة التيارات الفاسدة والمنحرفة.

لذلك يقول رسول الله ﷺ: «يوزن يوم القيامة مداد العلماء ودم الشهداء فيرجح مداد العلماء على دم الشهداء»[١].

إن من أهم امتيازات عالم الدين، ودواعي تفضيله على الآخرين، هو تصديه للأفكار الشيطانية المنحرفة، كما ورد في الحديث الشريف عن رسول الله ﷺ: «فضل العالم على العابد سبعين درجة.. وذلك أن الشيطان يدع البدعة للناس فيبصرها العالم فينهي عنها والعابد مقبل على عبادته لا يتوجه لها ولا يعرفها»[٢].

---

(١) علاء الدين علي المتقي الهندي. كنز العمال، ج١٠، الطبعة الخامسة ١٤٠٥هـ، (بيروت: مؤسسة الرسالة)، ص١٤١، حديث ٢٨٧١٥.

(٢) بحار الأنوار. ج٢، ص ٢٤.

وعنه ﷺ: «زكاة العلم تعليمه من لا يعلمه»[١].

وإن قيام العلماء بوظيفتهم في تبيين معالم الدين وأصول الشريعة، وفضح شبهات المناوئين هو سبب بقاء الدين وتمسك المؤمنين، وإلا فإن مؤامرات وأضاليل الكافرين والمنحرفين قد تخمد أنوار الهدى، وتشيع أجواء الارتداد والابتعاد عن الدين.

ومن أجل أن يتمكن العلماء من أداء هذا الواجب الخطير في هذا العصر لا بدّ من التوجه لمسألة التخطيط والرصد الثقافي. فالغالب على الإنتاج الفكري الديني هو فردية الإنتاج حيث تقل عندنا المراكز والمؤسسات الجماعية في الحقل الفكري، ويندفع الموجهون والمرشدون الدينيون في ممارساتهم التوجيهية بشكل عفوي استرسالي، يتأثر البعض منهم بظروف محدودة، وحسب اهتماماته وملاحظاته الشخصية، دون أن يكون هنالك في الغالب خطة منبثقة عن دراسة لواقع المجتمع، وتشخيص لأمراضه واحتياجاته الفكرية.. وأيضًا دون متابعة ورصد للتطورات الفكرية على مستوى العالم. أو التيارات الناشئة داخل المجتمع والوافدة إليه.

فقد تجد عالمًا متحمسًا لطرح فكرة ما أو الدفاع عنها، بينما لا يكون لتلك الفكرة أيّ أهمية أو تأثير في واقع الأمة المعيش.

وقد تسمع خطيبًا يثير موضوعًا لا يعالج فيه قضية من قضايا العقيدة والمجتمع، بل يكرس حالة القشرية، والاهتمامات الثانوية الزائفة!

إننا بحاجة ماسة إلى أن تولي المرجعية الدينية والقيادات الإسلامية، اهتمامًا كبيرًا تجاه المسألة الفكرية الثقافية، بأن تكون هناك أجهزة ولجان ومؤسسات

(١) المصدر نفسه. ج٢، ص٢٥.

تتابع تطورات المعرفة في العالم، وترصد المؤامرات التي تستهدف فكرنا وعقيدتنا، وتخطط لتوجيه المؤلفين والخطباء والمبلغين.

بالإضافة إلى ذلك لا بدّ من تطوير وسائل التوجيه كمًّا وكيفًا، والاستفادة من الأجهزة الحديثة والأساليب الفنية.

نحو فاعلية ثقافية

لكي يتحمل علماء الدين مسؤوليتهم في التوجيه الفكري لأبناء الأمة، وفي الدفاع عن قيم الدين ومفاهيمه، على مستوى العالم، لا بدّ أن يدركوا سعة الرقعة التي يجب أن يشملها نشاطهم، فالمسلمون يبلغ الآن عددهم «بليونًا و ٢٣٤ مليون» نسمة، حسبما أعلنته المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (ايسيسكو) في إحصائية لعام ١٩٨٩م[١].

وهم متوزعون في مختلف قارات العالم وإن كانوا يتركزون أكثر في قارتي آسيا وأفريقيا، كما تتعدد لغاتهم، واحتياجاتهم الفكرية والثقافية، نظرًا لاختلاف ظروفهم وأوضاعهم.

من جانب آخر لا بدّ من العمل لإيصال صوت الإسلام ورسالته لغير المسلمين وهم أربعة أضعاف عدد المسلمين.

---

(١) المسلمون: جريدة أسبوعية بتاريخ ١٣ رجب ١٤١٢هـ.

فكم من الجهد والنشاط يجب أن يبذله العلماء حتى يؤدوا ولو جزءًا من وظيفتهم الفكرية الثقافية؟ ولو ألقينا نظرة على النشاط التبشيري الذي يقوم به علماء الديانة المسيحية عبر مؤسساتهم، لنشر أفكارهم ومعتقداتهم على مستوى العالم، لأدركنا خطورة التحدي الذي يواجهه حملة رسالة الإسلام.

وأمامي الآن بعض الأرقام والإحصائيات التي نقلها الداعية الإسلامي المعروف الشيخ أحمد حسين ديدات (من جنوب أفريقيا) أقتطع منها ما يلي:

هناك مجلة مسيحية تبشيرية اسمها (الثمرة الجلية) The Plain Fruit تصدر في الولايات المتحدة الأمريكية، وتوزع منها ثمانية ملايين وثمانمائة ألف نسخة شهريًا، وهي مجانية، ولا تصدر عن دائرة حكومية، بل إن ناشرها هو شخص واحد، ولديه محطات تلفاز واستوديوهات فيديو.

وتوجد في الولايات المتحدة الأمريكية جماعة يطلقون على أنفسهم «شهوديهوه» يبلغ عدد أعضائهم في العالم حوالي مليوني عضو. وإذا نشروا كتابًا يطبعون منه أربعة وثمانين مليون نسخة، ويترجمونه إلى نحو خمس وتسعين لغة!

وإحدى مجلاتهم تطبع وتوزع منها ثمانية ملايين وتسعمائة ألف نسخة وتطبع في أربع وخمسين لغة!

ومجلة أخرى تصدر عن نفس الجماعة اسمها «برج المراقبة» يطبعون منها عشرة ملايين ومئتي ألف نسخة، ويصدرونها في مئة واثنتين من لغات العالم، وكلها توزع مجانًا أو بثمن زهيد!

والمسيحيون يوزعون في جنوب أفريقيا وحدها سنويًا ثمان مئة ألف نسخة من الإنجيل مجانًا.

وفي أفريقيا قاموا بترجمة الإنجيل إلى مئة وسبع لغات أفريقية وتوزع مجانًا!

وهناك رجل أعمال هولندي واحد قام بطبع (١٠٧) مليون نسخة من الإنجيل لتوزع مجانًا!

ويوجد في العالم الآن (٧٠) ألف مبعوث تنصيري نسبة الأمريكيين بينهم تصل إلى ٦٠٪ أي (٤٢) ألف مبعوث أمريكي تنصيري، ومن هذا العدد يوجد في أفريقيا وحدها (٣٥) ألفًا. وفي إندونيسيا ستة آلاف، وقد بلغ عدد المسيحيين في إندونيسيا الإسلامية خمسة عشر مليونًا لحد الآن، ويخططون لتحويلها مسيحية بالكامل نهاية القرن العشرين[1].

ترى، هل يمكن المقارنة بين هذه الأرقام ومستوى العمل التثقيفي من قبل الجهات الإسلامية الدينية؟

أليس نشاط الآخرين وتحركهم حجة علينا أمام الناس وأمام التاريخ وأمام الله سبحانه وتعالى؟

وعالم اليوم هو عالم المعرفة والفكر، حيث تساقطت الحواجز بين البلدان والشعوب، وأصبح العالم كلّه قرية واحدة، وتطورت وسائل التثقيف والإعلام الفكري، وأصبحنا نعيش عصر الثورة المعلوماتية..

فكيف يستطيع علماء الدين مواجهة هذا التحدي الكبير؟ والقيام بمسؤولياتهم وواجبهم الشرعي في تبيين الدين وإبلاغ رسالته للعالم؟

ولنتحدث الآن على الصعيد الفردي، بمعنى مسؤولية كلّ عالم دين شخصيًا في

---

(١) الفيصل: مجلة سعودية العدد ١٣٥، رمضان ١٤٠٨هـ.

تكثيف نشاطه الثقافي، وزيادة مستوى فاعليته وإنتاجه..

إنه لو شمر كل عالم دين عن ساعديه، وبذل ما في وسعه وجهده للتدريس والتوجيه والخطابة والكتابة، وإنشاء المؤسسات العلمية والفكرية، لاستطعنا التقدم إلى مستوى أفضل مما نحن عليه الآن في هذا المجال.

لكن الكثير من علماء الدين لا ينمون في أنفسهم كفاءة العطاء والإنتاج الثقافي فلا يمارسون الخطابة أو الكتابة مثلًا.. وكم من عالم فاضل مات دون أن يترك خلفه حتى ورقة علم واحدة ينتفع بها؟

مع أن الحديث الشريف برواية أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ يقول: «المؤمن إذا مات وترك ورقة واحدة عليها علم تكون تلك الورقة يوم القيامة سترًا فيما بينه وبين النار» [١].

وفي حديث آخر عنه ﷺ: «من كتب عني علمًا أو حديثًا لم يزل يكتب له الأجر ما بقي ذلك العلم والحديث» [٢].

لقد عاصرت في سنّ مبكرة من حياتي عالما تقيًا في بلادي القطيف، هو المرحوم الشيخ فرج العمران (١٣٢١هـ - ١٣٩٨هـ) وكنت أسمعه يوجه اللوم والعتاب على أيّ عالم تنقضي حياته دون أن يترك أثرًا أو مؤلفًا!! حتى إنه كتب ترجمة لأحد علماء بلادنا الماضين هو المجتهد المرحوم الشيخ محمد النمر (١٢٧٧هـ-١٣٤٨هـ) وكان كفيف البصر، وضمّن الترجمة عتابه على الشيخ النمر لأنه لم يخلف أثرًا علميًا، مع أنه كان مكفوفًا وكانت حياته عامرة بالنشاط الاجتماعي والسياسي. وقال

(١) بحار الأنوار. ج١، ص ١٩٨.
(٢) كنز العمال، حديث ٢٨٩٥١.

الشيخ فرج ما نصمه:

(مما يؤسفني جدًا، ويجري دموعي الحارة، حتى تكاد نفسي تطير شعاعًا من الوجد أن لا أرى لهذا العلامة العلم مصنفًا في العلم ولو مختصرًا، ككثير من علمائنا الأعلام من أهالي القطيف، مع أن مثل صاحب الترجمة قد تسنت له الأمور، وساعده المقدور، مدة من الزمن، وطائفة من الوقت، ليست باليسيرة، مع كثرة التلاميذ، وملازمتهم له ليلًا ونهارًا، وتصديهم للقيام بجميع شؤونه من كتابة وقراءة ومطالعة وتصفح كتب، وغير ذلك من مهماته ولوازمه، كما أنه كان باذلًا لهم الأموال، معتنيًا بشؤونهم على كلّ حال، فإنا لله وإنا إليه راجعون)[١].

والبعض من العلماء يبخل على الناس بالتوجيه والإفادة، حينما يصاحبونه أو يجالسونه، إلا إذا بادروه بالسؤال فإنه يجد نفسه مضطرًّا لإجابتهم. بينما نقرأ في سيرة رسول الله ﷺ وسيرة أهل بيته وأصحابه الأخيار كيف أنهم كانوا يغتنمون الفرص، ويبادرون الناس بالحديث، لإرشادهم وتوعيتهم بأمور دنياهم ودينهم..

ومن المؤسف أن تشيع في الأوساط العلمية الدينية قيم وتقاليد خاطئة تثبط، العزائم وتعرقل طريق الإنتاج الفكري والنشاط التبليغي في المجتمع.

فقد كانت الخطابة والكتابة في بعض حوزاتنا العلمية، وكأنهما لا يليقان بشأن العلماء، وليست من أولويات اهتماماتهم في مسيرهم العلمي الدراسي.. وقد سمعت من بعض الثقات أن العلامة المعاصر الشيخ باقر شريف القرشي، وهو باحث ومؤلف قدير، أثرى المكتبة بدراسته القيمة. هذا العالم الباحث حينما طبع أوائل

---

(١) الشيخ فرج العمران. الأزهار الأرجية، ج٣، طبعة ١٣٨٣هـ، (النجف الأشرف: مطبعة النجف)، ص٨٢.

كتبه قامت بعض الجهات المتصدية لشؤون الطلاب في الحوزة العلمية في النجف الأشرف، بقطع راتبه ومكافئته الشهرية، بحجة أنه منشغل بالكتابة والتأليف عن الدرس والتدريس!!

ويتحدث الشهيد السيد مهدي الحكيم ﷺ في مذكراته التي طبعت بعد وفاته: كيف أنه لما بدأ يلقي المحاضرات التوجيهية تعرض لضغوط كثيرة وذهب البعض من علماء الحوزة إلى أبيه الإمام الحكيم ﷺ ليطلبوا منه أن ينصح ابنه بالإقلاع عن ممارسة الخطابة فهي لا تليق بمقامه!!

وكأنّ هؤلاء العلماء لا يعرفون قيمة التوجيه وتأثير الخطابة في الجمهور، وأنها وسيلة مهمة من وسائل الهداية، وسلاح رئيس في مواجهة الباطل، وينقل المؤرخون عن الخليفة العباسي هارون الرشيد انزعاجه من أحاديث هشام بن الحكم ومناظراته بين الناس حتى قال هارون: «إنّ لسان هشام أوقع في نفوس الناس من ألف سيف» (١).

نعم. إن البعض من هؤلاء يشكك في جدوائية النشاط الثقافي، فماذا تجدي الخطابات؟ وماذا تنفع الكتب؟ وقد اتسع الخرق على الراقع وظهر الفساد في البر والبحر ! وهل استفاد الناس من الكتب الموجودة حتى نكتب لهم غيرها؟ وما أشبه هذا الكلام من التبريرات والأفكار السلبية التافهة..

وقسم آخر يعتذر بالمشاكل والظروف السياسية أو الاجتماعية، لإحجامه عن ممارسة دوره التوجيهي التثقيفي في الأمة. ولو تصفحنا حياة العلماء الذين أثروا

---

(١) أسد حيدر. الإمام الصادق والمذاهب الأربعة، ج٣، الطبعة الثانية ١٩٧١م، (بيروت: دار الكتاب العربي)، ص٨١.

معارف الأمة بكتاباتهم ومؤلفاتهم، لما وجدنا أنهم كانوا يعيشون ظروفا مهيأة منسجمة، خالية من المشاكل والمصاعب، بل إن أكثرهم كان يقوم بمسؤوليته ووظيفته الدينية في الكتابة والتأليف، متحديًا ما يحيط به من عقبات وصعوبات.

ونشير فيما يلي إلى بعض النماذج والمواقف:

العلامة شمس الأئمة السرخسي من فقهاء الحنفية أملى كتابه (المبسوط في الفقه) المطبوع في ثلاثين مجلدًا، أملاه وهو في السجن (باوز جند) إذ كان محبوسًا في الجب بسبب كلمة نصح بها الخاقان الحاكم آنذاك. وكان يملي من خاطره وهو في الجب وتلاميذه في أعلى الجب يكتبون عنه! وقال عند فراغه من شرح العبادات: «وهذا آخر شرح العبادات بأوضح المعاني وأوجز العبارات، أملاه المحبوس عن الجمع والجماعات..» وقال في آخر شرح الإقرار: «انتهى شرح الإقرار المشتمل من المعاني على ما هو من الأسرار، بإملاء المحبوس في مجلس الأشرار..» وله كتاب في أصول الفقه، وشرح السير الكبير أملاه وهو في الجب، ولما وصل إلى باب الشروط حصل له الفرج[1].

العلامة الحلي الحسن بن يوسف بن مطهر (٦٤٨هـ-٧٢٦هـ) صاحب المصنفات والمؤلفات الكثيرة المشهورة، فقد نقل بعض الأفاضل أنه وجد بخطه خمس مئة مجلد من مصنفاته غير ما هو بخط غيره من مصنفاته[2].

ونقل أن تصانيفه وزعت على أيام عمره فأصبح نصيب كل يوم منها كراسًا مع

---

(١) عبد العزيز البدري. الإسلام بين العلماء والحكام، ١٩٦٦م، (المدينة المنورة: منشورات المكتبة العلمية)، ص٢١٩.

(٢) فخر الدين الطريحي. مجمع البحرين، ج٦، الطبعة الثانية ١٩٨٣م، (بيروت: مؤسسة الوفاء)، ص١٢٣.

ما كان عليه من الاشتغال. وعن ابن خاتون في شرح الأربعين: أنه وقع نصيب كل يوم من حياته ألف سطر[١].

العلامة الشيخ محمد باقر المجلسي (١٠٣٧هـ-١١١١هـ) يعتبر قدوة ونموذجًا في هذا الجانب، فقد أحصي له من المؤلفات أكثر من ستين كتابًا باللغة العربية والفارسية، وأحد تلك المؤلفات الموسوعة الشهيرة (بحار الأنوار) طبعت في (١١٠) مجلدات، ومؤلف آخر هو (مرآة العقول) طبع في أكثر من عشرين مجلدًا..

ولم يكن الشيخ المجلسى متفرغًا للتأليف فقط، بل كان يمارس التدريس في مدرسته التي كانت تحتضن زهاء ألف طالب، ويقيم الجمعة والجماعة مع الوعظ والإرشاد في مسجده، ويكتب أجوبة الاستفتاءات، ويستقبل المراجعين، وكان شيخ الإسلام في عاصمة الدولة الصفوية حيث كان السلطان حسين الصفوي يعتمد على رأيه ومشورته ويوكل إليه العديد من المهام[٢]..

العالم الباحث محمد عزة دروزة يؤلف كتابه الرائع (عصر النبي وبيئته قبل البعثة) وهو في سجن الاحتلال الفرنسي لحكم المحكمة العسكرية الفرنسية في دمشق بسبب قضية فلسطين من تاريخ ٥حزيران ١٩٣٩م إلى ٣ تشرين الثاني ١٩٤٠م وقد طبع الكتاب في ٨٥٠ صفحة..

المرجع الديني المعاصر السيد محمد الشيرازي تجاوزت مؤلفاته لحد الآن (٣٠٠) كتاب من بينها موسوعته الفقهية الاستدلالية (الفقه) طبع منها (١١٥) مجلدًا، وتفسيره للقرآن (تقريب القرآن إلى الأذهان) طبع في عشر مجلدات، وشرحه

---

(١) محمد باقر الخونساري. روضات الجنات، ج ٣، ص٢٧٠.

(٢) مرتضى العسكري. مقدمة مرآة العقول، ج٢، طبعة ١٤٠٤هـ، (طهران: دار الكتب الإسلامية)، ص٥١٦.

للمكاسب (١٦) مجلدًا، وشرحه لكفاية الأصول (٥) مجلدات، إلى عشرات الكتب في مختلف الحقول والمجالات.. مع مواظبته على التدريس يوميًا، واستقباله الزائرين والسائلين والمراجعين، ومواجهته المشاكل السياسية، وقيامه بمهامه القيادية المرجعية..

إنّ هذه النماذج وأمثالها حجة على كلّ عالم لكي يتصدى لمسؤوليته، ويقوم بواجبه في نشر ثقافة الإسلام، وتوضيح مفاهيمه، ولولا هذه النماذج لما بقي هذا الوجود الإسلامي، ولو تضافرت معهم الجهود وكثر أمثالهم لكان الإسلام الآن أقوى موقعًا وتأثيرًا..

العمل الجمعي والمؤسساتي

غالبًا ما تكون المؤسسات الدينية الثقافية ضمن الإطار والإشراف الحكومي الرسمي، مما يحد من حركتها وحريتها، ويجعل مواقفها وأنشطتها تابعة لمسار الحكم ومواقفه السياسية..

أما العلماء المستقلون في حركتهم ونشاطهم عن وضع السلطة والحكم، فإنهم عادة ما يمارسون أدوارهم ومهامهم كأفراد، وليس كتجمعات ومؤسسات.

والسبب الرئيس في هذا المنحى الفردي هو الحذر من السلطات، التي تنظر إلى أيّ نشاط جمعي خارج إطارها بعين الريبة والشك، وتمنعه أو تعرقل طريقه.

لكن هذا السبب لا يعني انعدام فرص العمل الجمعي بالكامل بين علماء الدين، فهناك هامش من الحرية والمجال، تتفاوت مساحته بين بلد وآخر، كما يمكنهم فرض الأمر الواقع في بعض الأحيان، أو الاتفاق على درجة من التشاور والتنسيق لا يثير السلطة.

بيد أن هناك مشكلة أخرى تكمن في ضعف الاندفاع والاهتمام بالعمل الجمعي والمؤسساتي، وهي مشكلة عامة في المجتمعات المتخلفة، حيث تسود الروح الأنانية والفردية، وينخفض الوعي بأهمية التعاون، وتنعدم الأخلاقيات التي يستلزمها العمل الجمعي.

وكان يفترض في علماء الدين أن يتساموا على واقع التخلف، ويجسّدوا بسلوكهم قيم الوحدة والتعاون والانسجام فيما بينهم أولًا، ومن ثم يعكسون هذه القيم والسلوك في سائر نواحي حياة المجتمع بتوجيههم وإرشادهم.

ويهمنا في هذا البحث الحديث عن التعاون بين العلماء على الصعيد الثقافي..

فهذا العصر عصر التكتلات والتجمعات والمؤسسات، والأخطار والتحديات التي نواجهها فكريًا وثقافيًا تتجلى في تيارات عالمية، ذات مؤسسات تتصف بأعلى درجات النظام والبرمجة والتخطيط.

والفرد مهما بلغ في علمه، ومهما أوتي من كفاءات، وتوفرت له من إمكانات، يبقى محدود القدرة، وتعاونه مع الآخرين يجعل رأيه أصوب، وعلمه أقوى وأكمل.

وفي المجال الثقافي فإن تبادل الرأي، وتداول المعرفة، وتلاقح الفكر، لا يكون إلا عبر تلاقي العلماء وتشاورهم، وتعاونهم في رسم الخطط وبلورة المفاهيم ووضع البرامج، وتقويم الموضوعات.

وإذا كانت كل مجالات الحياة في حاجة إلى تبادل الرأي، فإن مجال الثقافة هو الأحرى بتكاتف العقول وتداول الآراء.

خاصة وأن تراثنا الديني أحاطت به ظروف وملابسات، جعلت استكشاف القيم واستنباط الأحكام والأنظمة، من هذا التراث ليست مهمة سهلة، وتداول

الرأي بين العلماء، والتعاون في البحث والتحقيق والمناقشة يساعدهم كثيرًا في إنجاح مهمتهم الخطيرة، بالوصول إلى حقائق الدين وثوابت أحكامه.

والتطورات والتغيرات المعيشة على مستوى الأمة والعالم، التي لم تكن حادثة في عصر التشريع تحتاج إلى دراسة وبحث عميق لتحديد رؤية الدين إليها، وموقفه منها، وذلك لا يتم بشكل أفضل إلا عبر عمل علمي جمعي، ومؤسسات فكرية قائمة على التخطيط والتنظيم.

إننا نجد العلماء المتخصصين في سائر مجالات العلم يتداولون الرأي، ويعقدون المؤتمرات، لمعالجة ما يستعصي عليهم من قضايا تخصصهم، كعلماء الطب والفلك والاقتصاد... بل حتى أصحاب الفنون والهوايات المختلفة لهم تجمعاتهم ولقاءاتهم ومؤتمراتهم.. فلماذا لا نجد لدى علماء الدين توجهًا واهتمامًا من هذا القبيل؟!

وقد طرح الشهيد الشيخ مرتضى مطهري في إيران مثل هذه الفكرة قبل سنوات عدة تحت عنوان «المجلس الفقهي» ومما جاء في اقتراحه قوله:

إنه بعد أن ظهرت الفروع التخصصية في جميع علوم الدنيا، فكانت سببًا في تقدم العلوم تقدمًا محيرًا للعقول، ظهر أمر آخر إلى حيز الوجود كان أيضًا عاملًا مهمًّا من عوامل التقدم والتطور، ألا وهو التعاون الفكري بين العلماء من الطراز الأول، والمنظرين في كل فرع في عالم اليوم لم يعد لفكرة الفرد والتفكير الفردي قيمة تذكر والعمل الفردي لا يوصل إلى نتيجة.. إنّ علماء كل فرع من فروع العلم مشغولون دائمًا بتبادل النظر مع بعضهم بعضًا، يضعون حاصل فكرهم، وعصارة عقولهم تحت تصرف العلماء الآخرين. بل إن علماء قارة ما يتبادلون مع علماء قارة أخرى ويتعاونون معهم، فيكون من أثر هذا التعاون وتبادل المعلومات والتعرف

على وجهات نظر الآخرين، إنه إذا كانت هناك نظرية نافعة وصحيحة أمكن نشرها بسرعة أكثر لتأخذ مكانها، وإذا كانت النظرية باطلة أمكن إعلان بطلانها سريعًا، واطّراحها بعيدًا، دون أن يضطر طلاب العلم إلى التمسك بها حتى يتبين لهم بطلانها بعد سنين.

إنه مما يؤسف عليه أننا لا نرى بيننا أيّ تقسيم للعلم والتخصص، ولا أيّ تعاون وتبادل نظر. ومن البديهي أننا بهذا الوضع لا يمكن أن نتوقع تقدمًا وحلًّا للمشاكل. على الرغم من أن أهمية التشاور العلمي وتبادل النظر واضحة، ولا تتطلب البرهنة عليها، ولكن لكي يتبين أن الإسلام نفسه يحتوي على أمثال هذه التطلعات والمبادئ التقدمية نورد آية من القرآن وقطعة من نهج البلاغة:

جاء في القرآن في سورة الشورى (الآية٣٨):

﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾

هذا هو الوصف الذي يصف به الله المؤمنين وأتباع الإسلام، إذًا فالإسلام يرى أن التعاون الفكري وتبادل النظر من المبادئ الأصيلة في حياة المؤمنين.

وفي نهج البلاغة: «واعلموا إن عباد الله المستحفظين علمه، يصونون مصونه، ويفجرون عيونه، يتواصلون بالولاية، ويتلاقون بالمحبة، ويتساقون بكأس روية ويصدرون بريّة» أي اعلموا أن الذين عهد الله إليهم بعلمه يحفظونه، ويجرون ينابيعه، أي إنهم يفتحون أبواب العلم بوجوه الناس، يرتبط بعضهم ببعض بروابط المحبة والتعاطف، يتلاقون بالمحبة والبشاشة، ويرتوون من كأس العلم والفكر، يتعاطون كؤوس العلم والمعرفة التي يدخرها كلٌّ منهم، وتكون النتيجة أن يرتوي

الجميع ريًّا.

فلو أنشئ مجمع علمي للفقهاء، وتحقق مبدأ تبادل النظر، فإن ذلك فضلًا عن أنه يؤدي إلى تكامل الفقه وتطويره، فإنه يزيل كثيرًا من الاختلاف في الفتاوى.

ليس هناك طريق آخر، لأننا إذا كنا ندعى أن فقهنا من العلوم الحقة في العالم، فلا بدّ من اتباع الأساليب التي تتبع في سائر العلوم الأخرى، وإذا لم نفعل ذلك فمعنى ذلك أن الفقه خارج عن صف العلوم [1].

ثم تقويم الأوضاع وتشخيص الموضوعات هو الآخر يحتاج إلى تضافر الآراء والأفكار من قبل العلماء قبل أخذ موقف متسرع من أيّ نظرية أو فكرة أو موضوع.

والسؤال الذي يطرح نفسه بإلحاح على الواعين والمخلصين: لماذا تنعدم مبادلات الحوار والتلاقي والتنسيق بين علماء الدين؟

والمفترض أنهم كعلماء مطلعون على تأكيدات الإسلام على التشاور والتعاون، كقوله تعالى: ﴿**وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى**﴾[2]. وقوله تعالى: ﴿**وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ**﴾[3]. وقوله تعالى: ﴿**وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ**﴾[4].

وما روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما من رجل يشاور أحدًا إلا هدي إلى

(١) الشيخ مرتضى المطهري. الاجتهاد في الإسلام، (طهران: مؤسسة البعثة)، ص٣١.
(٢) سورة المائدة، الآية: ٢.
(٣) سورة الشورى، الآية: ٣٨.
(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٥٩.

الرشد»[١].

وقال النبي ﷺ فيما ذكره الماوردي: «ما تشاور قوم إلا هدوا لأرشد أمرهم»[٢].

وقال أبو هريرة فيما رواد الترمذي: «لم يكن أحد أكثر مشاورة من رسول الله ﷺ »[٣].

وقول الإمام علي عليه السلام: «من شاور ذوي العقول استضاء بأنوار العقول»[٤] وَ«الاستشارة عين الهداية»[٥].

ويفترض أيضًا في علماء الدين أن يكونوا متحلّين بمكارم الأخلاق، التي تبعدهم عن حالات الحقد والحسد والبغض والأنانية والمزاجية..

كلّ ذلك صحيح، لكن لا يصح أن ننسى أن العلماء جزء من المجتمع، وما دام المجتمع كلّه يعيش حالة التخلف، ولا تسوده أجواء الحرية والتعددية والتعاون والتشاور، فإن العلماء قد شملهم هذا الداء الخطير.

ثم لا تخلو أوساط العلماء من عناصر تفتقد الالتزام بالضوابط والأخلاق الكاملة المطلوبة، فتؤدي هذه العناصر دورًا سلبيًا تجاه أيّ مسعى تعاوني.

وهناك بعض العلماء يفرطون في الحذر والخوف من رد فعل السلطات الحاكمة

(١) ١٠٢) علي بن جمعة العروسي الحويزي. تفسير نور الثقلين. تحقيق السيد علي عاشور، ج٤، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ (بيروت: مؤسسة التاريخ العربي)، ص٥٨٤.

(٢) وهبة الزحيلي. التفسير المنير، ج٤، طبعة ١٩٩١م، (دمشق: دار الفكر)، ص١٤٠.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) غرر الحكم ودرر الكلم.

(٥) نهج البلاغة. حكمة ٢١١.

فيتحفظون على أيّ عمل جمعي.

إضافة إلى ضعف الوعي الاجتماعي، والاستعداد لتحمل المسؤولية، ورفض أيّ فكرة للتطوير والتغيير في الوضع الديني السائد عند البعض من العلماء، مما يجعل هذا البعض معارضًا لطروحات العمل الجمعي والمؤسساتي، وقد يعرقل أيّ محاولة في هذا الاتجاه.. وكأمثلة على ذلك نشير إلى ما ذكره الأديب الباحث علي الخاقاني في موسوعته «شعراء الغري» من فشل العديد من المحاولات الإصلاحية، والمشاريع التعاونية في أوساط الحوزة العلمية في النجف الأشرف آنذاك [١].

لكننا نراهن الآن على التطورات الإيجابية في الوسط الديني، مع إشراقة الصحوة الإسلامية، وتوفر أجواء الوعي والانفتاح، مما يجعلنا نأمل في انطلاق مبادرات جديدة في هذا المجال، عل مستوى الأمة جمعاء، وعلى مستوى الأقاليم و المناطق.

فكم هو رائع ومفيد أن يجتمع العلماء في كل منطقة ليتبادلوا الرأي فيما بينهم، ولينسقوا الجهود في نشاطهم العلمي والثقافي. وأن يجتمع الخطباء وخاصة قبيل مواسم الإرشاد والوعظ، ليتداولوا الفكر حول أوضاع المجتمع، ومحتوى وأساليب تثقيفه وتوجيهه.

---

(١) علي الخاقاني. شعراء الغري، ج ٥، الطبعة الثانية، (قم: مكتبة المرعشي)، ص٣٣١، ج١١ ص٣١١.

تنقية الثقافة

تتنزل رسالة الله تعالى إلى البشر، على يد أنبيائه نقيَّة سليمة، لكن البشر بفهمهم الخاطئ والمحدود، وبنزعتهم المادية المصلحية، وبدافع الشهوات والأهواء، يحرفون الرسالات الإلهية، وينحتونها حسب توجهاتهم ومصالحهم، ويضيفون إليها من عاداتهم وتقاليدهم، ومع الزمن يصبح ذلك الخليط المشوّه دينًا ومقدسًا.

حدث هذا لكل شرائع الأنبياء تقريبًا. وإذا بالبيت الحرام والكعبة المشرفة، التي بناها ورفع قواعدها نبي الله إبراهيم الخليل ﷺ لتكون قبلة الموحدين لله سبحانه، تصبح قاعدة تنتصب على ظهرها أصنام الشرك والوثنية، من قبل العرب المنحدرين من نسل نبي الله إبراهيم وذريته!!

ونبي الله موسى ﷺ الذي قاوم برسالته التمييز العنصري الطائفي للفراعنة لتصبح توراته بعد تحريفها منبعًا للروح العنصرية ونظرية شعب الله المختار لدى الصهاينة!!

ورسالة المسيح عيسى بن مريم عليه السلام التي أنزلها الله تعالى لهداية البشر إلى عبادته وتوحيده، أصبحت بالتزوير والتحريف مظلة لعقيدة الشرك والتثليث، ودافعًا نحو زخارف الحياة ومفاسدها!!

فهل نجا الإسلام، وسلمت رسالته من هذا الخطر الذي أصاب ما سبقه من الرسالات الإلهية؟

كلا، فما هو معروف من الإسلام مشوب في جانب كبير منه، بالتحريف والتزوير والتشويه.

صحيح أن القرآن الكريم بقي نصه سالمًا مصونًا من أيّ تحريف أو تغيير، تحقيقًا لقوله تعالى: ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾[١] وقوله تعالى: ﴿**وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ * لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ**﴾[٢].

لكن القرآن الحكيم تعرض للتحريف والتزوير في تفسيره وفهم معانيه، فأصبح أمامنا ركام متناقض في تفاسير آيات القرآن، وكثير من التفاسير تعكس محدودية أفكار أصحابها، وتبرر للفهم والتقاليد السائدة في عصورهم.. وإن كنا نعتز ببعض التفاسير القيمة، وعطاء المفسرين الواعين المخلصين الذين لم يفسروا آيات القرآن ولم يجيّروها لصالح آرائهم وتوجهاتهم، بل اجتهدوا في فهم معانيها حسب قدراتهم ومستوى وعيهم..

أما السنة الشريفة فابتلاؤها أعظم، حيث كثر الكذابة على رسول الله صلى الله عليه وآله كما تنبأ هو بذلك حيث قال: «ستكثر عليَّ الكذابة».

---

(١) سورة الحجر، الآية: ٩.

(٢) سورة فصلت، الآيتان: ٤١-٤٢.

وهناك آراء المتكلمين المسلمين وما تحتويه من تناقضات ومعارك جدل محتدم، وآراء أصحاب المذاهب الفقهية وما تتضمنه من اختلافات..

وهناك محاولات الدس في تراث الإسلام من قبل الأعداء، والتأثيرات الفكرية والسلوكية التي نقلتها المجتمعات التي التحقت بالمسلمين.. وهناك ما تسرّب إلى الثقافة الإسلامية من فلسفة الإغريق.. ومحاولات بعض الحكام المسلمين تطويع الدين وتشريعاته وفق رغباتهم.

كما أن حالة التخلف التي عاشتها الأمة طوال الفترة الماضية، انعكست على التراث الفكري والثقافي.

كل ذلك جعل في تراثنا وثقافتنا خليطًا من الآراء والتصورات المتناقضة والمعوقة للانطلاق والتقدم.

وعلماء الدين في هذا العصر، مطالبون بنفض غبار التخلف، وركام التحريف عن تراثنا وثقافتنا، ليعود للدين خلوصه ونقاؤه، ولتتحرر جماهير الأمة من أغلال الفهم القشري، وقيود الفكر الرجعي المتزمت، ولتستطيع ثقافة الإسلام الحقيقية مواجهة تحديات الحضارة المادية المتقدمة وتموجاتها الفكرية.

بالطبع لن تكون تلك مهمة سهلة ميسّرة بل إنها تحتاج إلى جهد علمي عميق لتمحيص القيم الأساس في الدين، والمقاصد العليا للشريعة، ولوضع المقاييس الدقيقة الثابتة التي نغربل على أساسها التراث ونحاكم مروياته.

كما تحتاج المهمة بعد ذلك إلى جرأة وشجاعة وإقدام؛ لأن إنكار ما ألفه الناس وتعودوا تقديسه باعتباره دينًا، أو عرض ما جهلوه من الدين وكان غائبًا عن أسماعهم وأفهامهم.. إن ذلك يعني المواجهة والصدام مع مراكز القوى المتشبثة

بالفهم السائد والمنتفعة منه، ومع عامة الناس المتدينين البسطاء والسطحيين..

وفى تاريخنا المعاصر نقرأ عن عالم ومرجع ديني كبير كيف اضطر للتراجع أمام تلك الضغوط حينما طرح رؤيته الإسلامية المخالفة للرأي السائد، وهو الإمام الشيخ محمد حسين النائيني (١٢٧٣هـ-١٣٥٥هـ) وكان من كبار المجتهدين في النجف الأشرف في العراق، فقد ألف كتابًا ينتصر فيه لمبدأ الشورى «الديمقراطية» ويؤصِّل هذا المبدأ إسلاميًا، ويهاجم الاستبداد والديكتاتورية ويشرّع مقاومتها دينيًا، وصدر الكتاب تحت عنوان «تنبيه الأمة وتنزيه الملة».

يقول الأديب علي الخاقاني عن هذا الكتاب وصدوره: رسالة تنبيه الأمة وتنزيه الملة كتبها الإمام النائيني... وقد بيّن فيها أن الدين الإسلامي يدعو إلى الشورى، وتشكيل المجالس النيابية، لأخذ آرائهم في مقررات الدولة، وأن الدين الإسلامي دين الحرية لا دين التعسفية والذلة، وإنه يدعو إلى التعليم العام للنساء والرجال، وإنه يدعو إلى وجوب التعبير عن الآراء بصراحة، ومنه وجوب إصدار الصحف والنشرات إلى غير ذلك من الأمور التي كانت محظورة عند بعض أهل الدين المتطرفين بالرجعية»

واشتدت الضغوط على الإمام النائيني من الأوساط المتحجرة والرجعية فسحب الكتاب من الأسواق وسعى إلى جمعه وبذل على ما قيل يومذاك لشراء كل نسخة ما لا يقل عن ليرتين ذهبيتين، وهو مبلغ جدّ كبير كثمن لرسالة لم تزد على عشرات الصفحات(١).

(١) محمد سعيد الطريحي. مجلة الموسم، العدد الخامس، المجلد الثاني ١٩٩٠م ص٤١-٤٢.

من أعلام الإصلاح الثقافي

وعلى الرغم من صعوبة مهمة الإصلاح وتنقية الثقافة الدينية، إلا أنّ العلماء المخلصين قد اقتحموا هذا الميدان، وتحملوا آلام ومشاكل موقفهم الشجاع بدافع ديني عقيدي.. وأثمرت أفكارهم وطروحاتهم تيارًا دينيًا تجديديًا. تعقد عليه آمال خلاص الأمة..

بالطبع فإنّ تضافر جهود العلماء، ودخول أكبر قدر ممكن منهم في ساحة الإصلاح يجعل المهمة أسهل، وتحقيق الهدف أسرع.

ومن علمائنا المخلصين والمكافحين لتنقية القضايا الدينية مما شابها وأدخل فيها من بدع وتحريفات، الإمام السيد محسن الأمين العاملي (١٢٨٤هـ-١٣٧١هـ)، فإنه تصدى لترشيد الخطابات والمنابر في المجالس الدينية، ومحاربة ما يطرحه الخطباء من روايات وقصص لا صحة لها. وتخالف أصول العقيدة، كما قاوم الزيادات والممارسات الخاطئة، التي أدخلت على الشعائر الحسينية أيام عاشوراء، وألف كتابًا استدلاليًا منطقيًا بعنوان «التنزيه في أعمال الشبيه». ولما صدر الكتاب، وانتشرت آراء السيد الأمين الإصلاحية، ثارت ثائرة المعارضين للإصلاح والتطوير.

وكان يرحمه الله يتوقع ذلك، ويراقب التفاعلات، وكتب في مذكراته ما يلي: «وقد عملت في ذلك رسالة التنزيه، وطبعت وترجمت إلى الفارسية، وقام لها بعض الناس وقعدوا، وأبرقوا وأرعدوا، وجاشوا وأزبدوا، وهيّجوا طغام العوام والقشريين، ممن ينسب للدين، فذهب زبدهم جفاء ومكث ما ينفع الناس في الأرض.. لقد أشاعوا في العوام أن فلانًا حرم إقامة العزاء، بل زادوا على ذلك أن نسبونا إلى الخروج عن الدين، واستغلوا بذلك بعض الجامدين من المعممين».

وألّف بعض العلماء كتبًا في الرد على السيد الأمين، والواقع أنّ المعارضة الشعبية لدعوة السيد محسن الأمين، قد بلغت حدًّا من الهياج دفع بعض مناصريه إلى الكتابة إليه، يرجونه لسحب الرسالة من المكتبات وإخفائها عن العيون، خوفًا على شخصه من التعرض للأذى.

كما أنشد بعض الشعراء القصائد والأبيات في التهجم على شخصيته، كقول أحدهم:

يا عابرًا أما مررت بجلّق فاعبث ببيت أمينها المتزندق

وجلّق هي الشام.

وقال آخر:

ذرية الزهراء إن عددت يومًا ليطري الناس فيها الثنا
فلا تعدوا محسنًا منهم فإنها قد أسقطت محسنا

لكن السيد الأمين تحلّى بالجرأة والشجاعة، وصمد أمام الضغوط والإثارات، واستمر يكافح لتنقية الدين من الشوائب مهما كلفه ذلك من ثمن، وأبلغ جملة تختصر موقفه الفقهي والاجتماعي في هذا المجال قوله: «الأسماء لا تغيّر حقائق الأشياء، وعادات الطغام من العوام لا تكون دليلًا للأحكام» ولم تقتصر جهوده النقدية الإصلاحية على هذا الجانب، بل شملت العديد من مجالات الدين والثقافة، كبرامج الدراسة في الحوزات العلمية والمدارس الدينية، وعادات المجتمعات المتدينة وتقاليدها، وقضايا الخلافات المذهبية(١).

---

(١) المستشارية الثقافية للجمهورية الإسلامية الإيرانية بدمشق، المصلح الإسلامي السيد محسن الأمين، طبعة ١٩٩٢م، ص ٢٨.

ومن المعاصرين نشيد بالجهود الكبيرة الجبارة التي بذلها عالمان من أعلام الأمة في هذا المجال، هما: الشيخ محمد الغزالي من مصر والشهيد الشيخ مرتضى المطهري من إيران..

فقد انبرى الشيخ محمد الغزالي (١٩١٧ ـ ١٩٩٦م) منذ نصف قرن من الزمن لنشر الفكر والثقافة الإسلامية الهادفة، ولتوعية الناس بحقائق ومفاهيم دينهم، وتحذيرهم من البدع والانحرافات والتحريف والتزوير الذي تسلل إلى الأفكار والممارسات الدينية..

وقد صدر له أخيرًا كتابان قيّمان يحملان خلاصة نضاله وأفكاره في هذا المجال، هما: كتاب «السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث» وكتاب: «تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل».

وكتاب ثالث لا يقل عن هذين الكتابين قيمة وأثرًا وهو «كيف نتعامل مع القرآن».

والقضية المحورية في هذه الكتب الثلاثة، هي الفرز والتمييز بين ما هو دين في حقيقته، وما أُلحق بالدين وتسرب إليه من آراء وأعراف وتقاليد.. كما تركز فصول هذه الكتب على ضرورة الرجوع إلى المنابع الأصيلة للإسلام، والاهتمام بقيمه وقضاياه الأساس، بدل الانشغال بالجزئيات والأمور الجانبية الهامشية، التي جعلت المسلمين متخلفين عن ركب الحضارة، غارقين في الجهل والمشاكل والأزمات..

أما الشهيد المطهري (١٣٣٨هـ-١٣٩٩هـ) فقد كرس نشاطه الفكري والعلمي لإماطة الحجب وإزالة الأستار ونفض الغبار عن حقائق الإسلام، وكان يسلط

الأضواء في كتاباته وخطاباته على مواقع الزيف والتحريف في الثقافة المتداولة في الوسط الديني، ويفضح الممارسات والتقاليد الخاطئة التي ينظر إليها الناس كمقدسات يقول ﵀: «منذ عشرين عامًا حيث مسكت القلم وكتبت المقالات والكتب لم يكن لي هدف من كل ما كتبته إلا حلّ المشاكل والجواب على الأسئلة المطروحة في عصرنا في مختلف المسائل الإسلامية.

وقد كتبت في الموضوعات الفلسفية والاجتماعية والأخلاقية والفقهية والتاريخية. ومع أن مؤلفاتي تختلف من حيث الموضوع تمامًا ولكن الهدف العام من جميعها أمر واحد فحسب: أن الشريعة الإسلامية المقدسة مجهولة لدى العامة، وقد حرفت حقائق هذا الدين في أنظار الناس تدريجيًا، والسبب الأساس في تفرق جمع من الناس عن هذا الدين هو التعاليم الخاطئة التي ألقيت إليهم باسم الدين، وأن هذا الدين المقدس في الوقت الحاضر يصاب بالصدمات والضربات من جانب بعض المدعين حمايته أكثر من غيرهم، فالهجوم الاستعماري الغربي مع عملائه المعروفين والمجهولين من جهة، والقصور أو التقصير الصادران من المدعين حماية الإسلام في هذا العصر من جهة أخرى كانت السبب في الهجوم التدريجي على الأفكار والنظريات الإسلامية في مختلف المجالات من الأصول والفروع. ولهذا فإنني-وأنا عبد ضعيف-رأيت من واجبي أن أقوم بما أستطيع اسداءه من خدمة في هذا المجال»[1].

لقد تحدث المطهري وكتب ناقدًا وضع الحوزات والمدارس العلمية الدينية، وجمود مناهجها، وضعف برامجها، وأخطاء طريقة الإدارة فيها.. كما عالج مسألة الفقاهة والاجتهاد ونقاط الضعف في مسارها، وسلّط الأضواء على أسلوب

(١) المستشارية الثقافية للجمهورية الإسلامية الإيرانية بدمشق، المطهري العبقري الرسالي، ص٢٢.

ومحتوى الخطابات الدينية، والمجالس الحسينية، وما يتخللها من غلو وتحريف وتشويه.. وناقش وضع المرأة في المجتمع، وتأثيرات رواسب الجاهلية في التعامل مع المرأة.. إلى كثير من القضايا الحساسة والخطيرة التي تعرض لها في كتبه العديدة ومحاضراته الكثيرة..

لقد شقّ هؤلاء العلماء المصلحون من أمثال النائيني والغزالي والمطهري وغيرهم طريق غربلة الثقافة وتنقيتها، وعلى باقي العلماء تقع مسؤولية مواصلة هذا الطريق، ليتجلى الإسلام في صورته الحقيقية القادرة على إقناع العقول و استقطاب النفوس، وحلّ مشاكل البشرية وأزماتها..

معالجة المشاكل الراهنة

يتصور كثير من علماء الدين ودعاته أن مهمتهم الأساس هي إرشاد الناس لإصلاح آخرتهم، وتقديم الحلول للمشاكل التي يعانونها بعد الموت.. ولكن كيف يعيش الناس في هذه الدنيا؟ وكيف يعالجون المشاكل التي تواجههم في هذه الحياة؟ وهل ذلك من برنامج الدين ووظيفته أم ماذا؟

لا شك أن الإسلام جاء لإسعاد الناس في الدنيا قبل الآخرة: ﴿**رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً**﴾[1]. ﴿**وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ**﴾[2] و﴿**مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً**﴾[3] و﴿**اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ**﴾[4].

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٠١.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٥٦.
(٣) سورة النحل، الآية: ٩٧.
(٤) سورة الأنفال، الآية: ٢٤.

وورد عن رسول الله ﷺ: «أعظم الناس همًّا المؤمن يهتم بأمر دنياه وأمر آخرته»[(١)].

وروي أيضًا: «ليس منّا من ترك دنياه لدينه، أو ترك دينه لدنياه» [(٢)].

وإنما ينجح الإنسان ويفوز في آخرته عبر تنظيمه وإصلاحه لدنياه كما يقول الإمام علي عليه السلام: «بالدنيا تحرز الآخرة» [(٣)].

وعن الإمام الباقر عليه السلام: «نعم العون الدنيا على الآخرة» [(٤)].

وذلك يعنى أن يهتم علماء الدين بدراسة مشاكل المجتمع وقضاياه الراهنة، ويقدمون له الفكر والثقافة التي تساعده على حل هذه المشاكل ومعالجتها، أما أن يترك الناس يتخبطون في أزماتهم الحياتية والمعاشية الحاضرة، بينما تقدم لهم الحلول والوسائل لتجاوز أهوال الآخرة والقيامة، فهذا تنكّر لحقيقة الإسلام ولواقع الحياة..

فإذا كان الناس يعيشون أزمة السكن والمأوى في الدنيا، فهل يقنعهم أن ندلّهم على طريق توفير القصور لهم في الجنة عبر العبادات والذكر والدعاء؟.. وإذا كان الشاب يعاني صعوبة في الحصول على زوجة من الطين، فهل تجديه نصائحنا له لتأمين عشرات الزوجات من الحور العين..؟

لقد نشر الكاتب المصري المعروف فهمي هويدي مقالة في إحدى الصحف،

---

(١) كنز العمال. ج١، ص١٤٤، حديث٧٠٢.

(٢) بحار الأنوار. ج٧٥، ص٣٢١.

(٣) نهج البلاغة. خطبة ١٥٦.

(٤) الكافي. ج٥، ص٧٢.

أنحى فيها باللائمة على العلماء والوعاظ الذين يجترون للناس الحديث عن قضايا الغيب والقيامة، بينما يتجاهلون البحث حول قضايا الشهود والحياة، وكانت مقالته تحت عنوان: «أهوال الدنيا قبل أهوال الآخرة» [١].

والبعض من العلماء والخطباء يتحدثون حول العموميات والكليات والقضايا التاريخية، دون أن يلامسوا في حديثهم وكتاباتهم قضايا الواقع المعيش..

إن هناك مشاكل رئيسة عامة تعاني منها الأمة الإسلامية بشكل عام، كالتخلّف الحضاريّ، والتقهقر العلميّ والتكنولوجيّ، والاستبداد السياسي، وحالة التجزئة، والخلافات الطائفية.. وهناك مشاكل خاصة تعانى منها بعض المجتمعات، كالإرهاب الفكري، والتمييز الطائفي، والبطالة، والأمية، وحياة البذخ والترف..

وعلى العلماء في عطائهم الثقافي أن يركزوا على المشاكل والقضايا التي يعاني منها المجتمع، ليرى الناس في دينهم أمل الخلاص ومشروع الإنقاذ، ولئلا يجدوا أنفسهم في حاجة إلى اتباع المبادئ والتيارات المخالفة للدين.. ومن ثم ليأخذ الإسلام دوره الريادي والقيادي في الحياة..

وإذا تأمّلنا أسلوب الأنبياء والرسل في دعوة مجتمعاتهم إلى الدين، وجدنا كل نبي يركز على معالجة أهم مشكلة يعاني منها مجتمعه، ويجعل تلك المعالجة عنوانًا لدعوته ورسالته، مع أن كلّ الأنبياء يدعون إلى عبادة الله وتوحيده والخضوع لرسالته، ولكن المشروع الذي يقدمه كل واحد منهم للمجتمع، كان يركز على المشاكل والقضايا الرئيسة لذلك المجتمع.

فنبي الله شعيب عليه السلام كان يركز في دعوته على العدالة الاقتصادية؛ لما كان يعانيه

---

(١) فهمي هويدي. أزمة الوعي الديني، الطبعة الأولى ١٩٨٨م، (صنعاء: دار الحكمة اليمانية)، ص ٦٥.

مجتمعه من بخس وظلم في هذا المجال، وذلك واضح في حديث القرآن الحكيم عن دعوة نبي الله شعيب وسيرته، في أكثر من سورة، كما في سورة الأعراف الآية ٨٥: **﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا الله مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾**.

وفي سورة الشعراء الآيات ١٧٧ إلى ١٨٣، يقول تعالى: **﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلا تَتَّقُونَ* إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ* فَاتَّقُوا الله وَأَطِيعُونِ* وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ* أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ* وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ* وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾**.

وتكرر ذلك في سورة هود الآيات ٨٣ و٨٥ وبنفس الكلمات تقريبًا، أي الكيل والميزان والبخس.

بينما كان نبي الله لوط عليه السلام يركز على مسألة الشذوذ الجنسي؛ لأنه كان مشكلة مجتمعه، يقول تعالى في سورة الأعراف الآيتان ٨٠ -٨١: **﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ* إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ﴾**.

وفي الحديث عن نبي الله لوط في سورة النمل آية ٥٥ وسورة العنكبوت الآية ٢٩ يتكرر الموضوع نفسه أيضًا.

أما نبي الله موسى عليه السلام فإن الحديث عن دعوته في القرآن الكريم يقترن دائمًا بالحديث عن طغيان فرعون، ومواجهة نبي الله موسى له؛ لأن الاستبداد والطغيان

السياسي كان هو المشكلة الرئيسة في عصر نبي الله موسى، ولدى مجتمعه، لذا كانت مواجهة هذا الاستبداد والطغيان هي عنوان رسالة نبي الله موسى، وهي أول تكليف له في رسالته من قبل الله تعالى ﴿**اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى**﴾ سورة طه الآية ٢٤. ويتكرر الحديث عن فرعون في القرآن الكريم ضمن الحديث عن نبي الله موسى عليه السلام في نحو سبعين موردًا.

بينما نجد التركيز في رسالة نبي الله إبراهيم عليه السلام على قضية الوثنية وعبادة الأصنام، يقول تعالى في سورة الشعراء الآيات ٦٩ - ٧٣: ﴿**وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ * قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ * قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ**﴾ ويتكرر الحديث عن هذا الموضوع في قصة نبى الله إبراهيم عليه السلام في سورة الأنبياء الآية ٥٧ وسورة الأنعام الآية ٧٤ وغيرها.

ألا نستوحي من ذلك أن الاهتمام بالمشاكل الراهنة هو منهج رسالة الأنبياء؟

الفقيه ومتغيرات البيئة الاجتماعية

تختلف أوضاع المجتمعات الإسلامية باختلاف البلدان التي يعيشون فيها، والبيئات التي ينتمون إليها، حيث تتفاوت طبيعة الأنظمة والظروف السياسية، بين وضع سياسي مستقر، ووضع قلق مضطرب، وبين نظام يتيح فرصة المشاركة السياسية وحرية الحركة والتعبير، وآخر تنعدم في ظله تلك الفرص، وقد يكون النظام ملتزمًا بمبادئ الإسلام وشريعته، أو يكون علمانيًا محاربًا للدين، أو محايدًا تجاهه.

كما تتفاوت الظروف والأوضاع الاجتماعية: من حيث التجانس أو التنوع القومي والديني، ومن حيث التوازن والاستقرار في العلاقة بين الأطراف المتنوعة في الوطن الواحد.

وهناك اختلاف على مستوى الثقافات والعادات والأعراف السائدة في كل مجتمع. كما أن لطبيعة الظروف الحياتية والاقتصادية المختلفة انعكاسات على أنماط التفكير والسلوك في المجتمعات، بين مجتمع حضري وآخر بدوي، ومجتمع زراعي

وآخر صناعي، ومجتمع يعيش الرخاء والوفرة المادية، وآخر يعاني من الأزمات والصعوبات الاقتصادية.

هذا الاختلاف في أوضاع وظروف المجتمعات، يُنتج اختلافًا في ألوان التحدّيات والإشكاليات التي تواجهها، وحين تتطلب هذه التحدّيات والإشكاليات معالجات شرعية، وتوجيهًا دينيًا، فإن الفقهاء هم الجهة التي يُرجع إليها، ويُلجأ لها لأخذ أحكام الدين، وآراء الشرع، في النوازل والحوادث الواقعة.

وبما أن بعض المجتمعات قد تخلو من وجود فقهاء في أوساطها، يعايشون معها التحدّيات التي تواجهها، ويدركون بالمباشرة انعكاسات الظروف والأوضاع على الأبعاد المختلفة من حياتها، فإنها حينئذٍ إما أن تعيش الحاجة والفراغ في مجال التوفر على معالجات وحلول شرعية لقضاياها ومشاكلها، وإما أن تلجأ إلى الاستفادة من آراء وطروحات الفقهاء من خارج محيطها وبيئتها.

وهنا قد تثار إشكالية تتعلق بمدى قدرة الفقيه من خارج البيئة الاجتماعية، على التشخيص الدقيق للموضوعات التي تتطلب الرأي الشرعي، وفيها ما يتعلق بالشأن السياسي، وما يرتبط بالواقع الاجتماعي، وما يلامس الأمر الاقتصادي، أو يدخل في نطاق المسألة الثقافية.

المرجعية والضوابط الشرعية

لا بدّ من التأكيد هنا بأن للمرجعية الدينية شروطًا ومواصفات ليس من بينها الاعتبارات المادية والاجتماعية، فمن يرجع إليه في أخذ الحكم الشرعي، يجب أن يكون فقيهًا، أي مجتهدًا قادرًا على استنباط الحكم الشرعي من مصادره المقررة، وأن يكون عادلًا نزيهًا لا يخالف في سلوكه وممارساته شيئًا من أوامر الدين. وقد

تشترط فيه الأعلمية بأن يكون الأعلم من غيره، كما هو الرأي المشهور لفقهاء الشيعة المعاصرين.

أما الاعتبارات المادية: كالنسب، أو القومية، أو الجنسية بأن يكون من رعايا هذه الدولة أو تلك، فليس لها اعتبار في اختيار المرجع، إذا ما فقدت الشروط الأساسية المطلوبة.

وبحمد الله تعالى فقد بقيت المرجعية الدينية بعيدة عن تأثير هذه الاعتبارات غالبًا، فقد يكون المرجع الديني عربيًا أو فارسيًا أو تركيًا، أو عراقيًا أو إيرانيًا أو باكستانيًا أو غير ذلك، وقد يكون هاشميًا في نسبه، أو ينتمي إلى نسب آخر.. وبقي مقياس الاختيار غالبًا هو الكفاءة العلمية ومستوى العدالة والالتزام الديني.

والحديث عن أهمية وجود الفقيه ضمن البيئة المحلية الاجتماعية، لا يعني تجاوز تلك الضوابط الشرعية لصفات المرجع الديني، وإنما هي عنصر إضافي إلى جانب تلك المواصفات.

كما أنه لا تلازم بين وجود الفقيه المحلي وبين المرجعية والتقليد، فقد يكون المرجع خارج البلاد، وضمن الحوزات العلمية المركزية، كالنجف الأشرف وقم، لتوفره على صفة الأعلمية، ويكون وجود الفقيه في المجتمع وإن لم يكن مقلدًا، عاملًا مساندًا ومساعدًا للمرجعية، تعتمد عليه في تشخيص الموضوعات، وتقويم الظروف، وتقديم المعالجات، وتناط به مهمة القضاء والقيام بالأمور الحسبية الأخرى. وهذا ما حصل في الماضي ويحصل بالفعل في عدد من البلدان والمجتمعات.

ومن أواخر الأمثلة والشواهد دور السيد موسى الصدر ١٩٢٨ ـ ١٩٧٨م والشيخ محمد مهدي شمس الدين ١٣٥٠ ـ ١٤٢١هـ في لبنان، فقد كانا فقيهين، قام

كل منهما بدور قيادي في الساحة اللبنانية، وقدّما معالجات نافعة لمشكلات المجتمع هناك، وكانا على تواصل وتنسيق مع المرجعية الدينية.

وفي القطيف يمكن الإشارة إلى دور الفقيه الشيخ علي الجشي ١٢٩٦ ـ ١٣٧٦هـ الذي تولى القضاء وكان محلّ ثقة المرجعية واعتمادها.

والفقيه الشيخ محمد الهاجري ١٣٤٤ ـ ١٤٢٥هـ شكّل نموذجًا لهذه الحالة على الساحة الأحسائية. وهناك نماذج مماثلة في ساحات أخرى.

الحكم الشرعي هل يتأثر بالبيئة؟

قد يؤثر اختلاف الأوضاع والبيئات الاجتماعية في استنباط الحكم الشرعي من قبل الفقيه، أو في كيفية تطبيقه، ويتضح ذلك من خلال الموارد التالية:

تغيّر العناوين والموضوعات من زمن لآخر ومن بيئة إلى أخرى، ومن أمثلته المتداولة بين الفقهاء صدق المثلي والقيمي، حيث كانت الألبسة والأواني تعدّ من القيميات في الماضي؛ لأن صناعتها يدويًا كانت تسبب اختلافًا في مواصفاتها يؤثر في قيمتها، لكنها الآن تعد من المثليات. حيث تنتجها الآلات والمصانع فهي متماثلة متشابهة.

والقيمي في الاصطلاح الفقهي: ما لا يوجد له مثل في السوق، أو يوجد لكن مع التفاوت المعتدّ به في القيمة. أما المثلي فهو ما يوجد مثله في السوق بدون تفاوت يعتدّ به.

وهناك بعض المسائل الشرعية التي ترتبط بهذا التغيّر في صدق القيمي والمثلي، كضمان ردّ المغصوب إذا تلف بمثله إن كان مثليًا، وبقيمته إن كان قيميًا. وكإقراض

المثلي والقيمي وما يثبت عوضًا له في الذمة.

ومن أمثلة تغيّر العناوين: صدق المكيل والموزون على شيء، حيث إن الحكم الشرعي بيع المكيل بالكيل، والموزون بالوزن، لا بالعدّ، ولكن هذا يختلف حسب اختلاف البيئات والمجتمعات، ويلحق بكل حكمه. فقد يباع البيض مثلًا في بعض المناطق بالوزن، وفي أخرى بالعدّ. فلو باعه بالعدّ في المناطق الأولى، أو بالوزن في المناطق الأخرى لم يكن البيع صحيحًا. وكذلك لو باع البيضة ببيضتين والجوزة بجوزتين في الأماكن التي يباع فيها بالعد لا يكون من الربا، بينما يكون ربًا في المناطق التي يباع فيها بالوزن عند اختلاف وزنها.

وكذلك فإن المصاديق الخارجية لبعض العناوين التي ترتبط بها أحكام شرعية قد تختلف باختلاف البيئات، فيختلف الحكم تبعًا لذلك، فالاستطاعة والفقر والغنى، ومقدار النفقة، والمعاشرة بالمعروف للزوجة، مصاديقها وحدودها متفاوتة من مجتمع لآخر.

اختلاف المقاصد والملاكات، فالأحكام الشرعية لها استهدافات ومناطات تابعة للمصالح والمفاسد، وحين يكون المناط والمقصد واضحًا أمام الفقيه، فإنه يأخذه في الاعتبار حين تختلف الظروف والبيئات، فيتغير الملاك، ويتغير الحكم تبعًا لذلك.

فمثلًا: كان بيع الدم محرّمًا في الماضي لعدم وجود منفعة مباحة له، لكن بيع الدم لم يعد الآن حرامًا لوجود الحاجة إليه لإسعاف المرضى.

وكان التصرف في جسد الميت بقطع شيء منه حرامًا؛ لأنه كان يحصل في الماضي بقصد التمثيل والانتقام، لكنه الآن أصبح ضروريًا في بعض الحالات لزرع الأعضاء وإنقاذ حياة المشرفين على الموت، فلا يعتبر حرامًا لهذه الغاية.

تطور أساليب الحياة بما يؤثر على كيفية تطبيق الأحكام الشرعية، فإذا كانت الغنائم الحربية سابقًا في حدود السيف والرمح والفرس وما شابه، فإنها من نصيب المقاتلين بعد تخميسها، لكن الغنائم الحربية اليوم أصبحت في مستوى الدبابات والمدرّعات والقذائف والصواريخ، فكيف يطبق الحكم الشرعي بتوزيعها على المقاتلين الآن؟

وكذلك الحال في حكم امتلاك الإنسان للمعدن الذي يكتشفه في أرضه، كيف يمكن الآن تطبيقه في مجال آبار النفط، فهل تكون هذه الثروة الهائلة ملكًا للأشخاص الذين تكتشف في أراضيهم؟

مراعاة المصلحة العامة وتقدير الحاجات والضرورات: ففي الفقه الإسلامي أكثر من عنوان يتيح للفقيه المتصدّي، أن يفتي بأولوية حكم شرعي على آخر عند التزاحم، وأن يفتي بتجاوز بعض الأحكام بمقتضى العناوين الثانوية كالضرورة والاضطرار، والضرر والضرار، والعسر والحرج، والأهم فالأهم، والذرائع للواجبات والمحرمات، والمصالح العامة للأمة. وهي عناوين تعطي المجال للفقيه لمعالجة التزاحم بين الأحكام والأزمات الاجتماعية.

إن هذه الموارد وأمثالها تؤكد وجود مساحة من التشريع تتأثر باختلاف الأزمنة والأمكنة والبيئات، وعلى الفقيه مراعاة ذلك في استنباطه للأحكام الشرعية، ولعلّ من أهم مبررات وجود الفقيه وإيجاب الشارع المقدس طلب الفقاهة على أبناء الأمة على نحو الوجوب الكفائي، هو تصدّي الفقهاء لهذه المهمة، بتجديد البحث والنظر في الأحكام الشرعية التي يمكن تأثرها باختلاف البيئات وتطور الحياة.

نصوص وشواهد

جاء في نهج البلاغة أنه سئل الإمام علي عليه السلام عن قول رسول الله صلى الله عليه وآله: «غيّروا الشيب، ولا تشبهوا باليهود»، فقال عليه السلام: «إنما قال صلى الله عليه وآله ذلك والدين قُلٌّ، فأما الآن وقد اتسع نطاقه، وضرب بجرانه، فامرؤ وما اختار»[١].

قال الشيخ محمد جواد مغنية في شرحه لهذه الكلمة:

كان النبي قد أمر الشيوخ من أصحابه أن يستروا الشيب عن العدو بالخضاب، ليظهروا أمامه في هيئة الأقوياء. فقال الإمام علي عليه السلام: ذاك حيث كان الإسلام ضعيفًا بقلة أتباعه، أما اليوم وقد ظهر على الدين كله، فلم يبق لهذا الحكم من موضوع، فمن شاء فليترك الخضاب، ومن شاء فليخضب.

وتسأل: ألا يتنافى هذا مع الحديث المشهور عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «حلال محمد حلال إلى يوم القيامة، وحرامه حرام إلى يوم القيامة»؟

الجواب: إن الأحكام الشرعية على نوعين:

الأول منهما: يرتبط بطبيعة الإنسان وفطرته من حيث هو إنسان، وهذا النوع من الأحكام لا يتغير ولا يتبدل تمامًا كنظام الكون والأفلاك في حركتها الدائبة، وهذا النوع هو المقصود بالحديث المشهور.

والنوع الثاني: يرتبط بالحياة الاجتماعية، وهذا تتغير أحكامه تبعًا لتغير المجتمع من حالٍ إلى حالٍ، حيث يتغير موضوع الحكم وسببه الموجب[٢].

وفي هذا السياق ما ورد في الوسائل عن محمد بن مسلم، وزرارة، أنهما سألا

(١) نهج البلاغة. قصار الحكم ١٧.

(٢) محمد جواد مغنية. في ظلال نهج البلاغة، ج٤، الطبعة الأولى ١٩٧٣م، (بيروت: دار العلم للملايين)، ص٢٢٦.

الإمام محمد الباقر عليه السلام عن أكل لحوم الحمر الأهلية؟

فقال عليه السلام: نهى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن أكلها يوم خيبر، وإنما نهى عن أكلها في ذلك الوقت؛ لأنها كانت حمولة الناس، وإنما الحرام ما حرّم الله في القرآن[1].

وفي نص آخر: «إنما نهى عنها من أجل ظهورها مخافة أن يفنوها، وليست الحمير بحرام»[2].

وقد أشار إلى هذه الحقيقة المحقق الأردبيلي توفي ٩٩٣هـ حيث قال:

«ولا يمكن القول بكلّية شيء بل تختلف الأحكام باعتبار الخصوصيات والأحوال والأزمان والأمكنة والأشخاص، وهو ظاهر، وباستخراج هذه الاختلافات والانطباق على الجزئيات المأخوذة من الشرع الشريف امتياز أهل العلم والفقهاء»[3].

وتحدّث الإمام الخميني عن هذا الموضوع في كلمة اشتهرت عنه حيث قال: «إني على اعتقاد بالفقه الدارج بين فقهائنا، وبالاجتهاد على النهج الجواهري، وهذا أمر لا بدّ منه، لكن لا يعني ذلك أن الفقه الإسلامي لا يواكب حاجات العصر، بل إن لعنصري الزمان والمكان تأثيرًا في الاجتهاد، فقد يكون لواقعة حكم لكنها تتخذ حكمًا آخر على ضوء الأصول الحاكمة على المجتمع وسياسته واقتصاده»[4].

وللفقيه المعاصر الشيخ جعفر السبحاني رسالة موجزة قيمة تحت عنوان «تأثير

---

(١) وسائل الشيعة، الطبعة، حديث ٣٠١٢٠.

(٢) المصدر نفسه. حديث ٣٠١٢٥.

(٣) أحمد بن محمد الأردبيلي. مجمع الفوائد والبرهان، ج٣، الطبعة الثانية١٤١٩هـ، (قم: مؤسسة النشر الإسلامي)، ص٤٣٦.

(٤) السيد روح الله الموسوي الخميني. صحيفة النور، ج٢١، ص٩٨.

الزمان والمكان على استنباط الأحكام الشرعية والحكومية»[1]، استفدنا منها في بحثنا هذا.

(١) الشيخ جعفر السبحاني. البلوغ، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ، (قم: مؤسسة الإمام الصادق).

زكاة العلم

الزكاة لغة: النمو والزيادة. يقال: زكا الزرع: إذا نما وزاد، وزكت النفقة: إذا بورك فيها. وقد تطلق بمعنى الطهارة، قال تعالى: ﴿**قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا**﴾[1]. أي طهّرها عن الأدناس. ومثله قوله تعالى: ﴿**قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى**﴾[2]. جاء في لسان العرب: «وأصل الزكاة في اللغة: الطهارة والنماء والبركة، وفي حديث الباقر عليه السلام أنه قال: «زكاة الأرض يُبسها، يريد طهارتها من النجاسة كالبول وأشباهه بأن يجفّ ويذهب أثره»[3].

ومن فلسفة الزكاة في التشريع الإسلامي يظهر أن المعنيين قد أخذا فيها بعين الاعتبار، فإيتاء زكاة المال يطهّر نفس الإنسان من الأنانية والبخل والحرص، لشعور الإنسان بأن المال الذي يحصل عليه ملك له وحده، وتحت سيطرته وتصرفه

(١) سورة الشمس، الآية: ٩.

(٢) سورة الأعلى، الآية:١٤.

(٣) محمد بن مكرم ابن منظور. لسان العرب، ج٣، طبعة ١٤٠٥هـ (قم: نشر أدب الحوزة)، ص٣٦.

هو فقط، وإعطاؤه للزكاة تشذيب وتعديل لهذه المشاعر والأحاسيس، لذلك يقول تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾(١).

في الوقت ذاته فإن إخراج الزكاة ينمي المال ويزيده، ببركة الله وفضله، وحتى وفق المنظور الاجتماعي والاقتصادي، فإن رعاية الفقراء يوفّر الأمن الاجتماعي، حيث يمنع من تشكّل حالات الإجرام والعدوان الناتجة من الفقر والحرمان، كما أن تدوير الثروة في المجتمع، يحرّك الوضع الاقتصادي، ومردوده سيكون على أصحاب رؤوس الأموال أيضًا. من هنا نرى الدول الكبرى في العالم تقدم شيئًا من الدعم والمساعدة للدول الفقيرة المتخلفة، التي إذا تحرّك اقتصادها فستستهلك من إنتاج تلك الدول المتقدمة.

والنصوص الدينية تشير إلى دور الزكاة والصدقة في تنمية المال والثروة كما ورد عن رسول الله ﷺ: «إذا أردت أن يثري الله مالك فزّكه»(٢) وقول الإمام محمد الباقر عليه السلام: «الزكاة تزيد في الرزق»(٣).

لكل شيء زكاة

ليس امتلاك الإنسان للثروة فقط هو الذي يشعره بالأنانية والبخل، بل إن كل إمكانية يتوفر عليها الإنسان تسبب له هذا الشعور، وتشيعه في نفسه وسلوكه، لذلك فهو في حاجة لترشيد مشاعره وتصرفاته تجاه كل ما يتحصّل عليه من إمكانات ومكاسب في هذه الحياة، ليتجه لتوظيفها في خدمة المصلحة العامة.

---

(١) سورة التوبة، الآية: ١٠٣.

(٢) بحار الأنوار. ج٩٣، ص٢٣.

(٣) المصدر نفسه. ص١٤.

من هنا تشير النصوص الدينية إلى أن لكل شيء زكاة، فكما يجب على الإنسان أن يعطي حصة من ماله ـ حسب الضوابط الشرعية ـ لصالح الفقراء والخدمات العامة، فإن عليه أن يوظف شيئًا من قدراته وإمكاناته المختلفة لصالح الشأن العام وخدمة أبناء جنسه ومجتمعه. يقول الإمام علي عليه السلام: «لكل شيء زكاة»[1].

والعلم والمعرفة من أكبر الإمكانات وأهم المكاسب، وإذا ما توفّر إنسان على مستوى وقدر من العلم، فقد يأخذه الغرور والتعالي على من حوله، وتسيطر عليه الأنانية فيحتكر العلم والمعرفة لنفسه، ويبخل بها على الآخرين، إلّا في حدود خدمة ذاته ومصالحه. لذا جاءت التعاليم الدينية تؤكد على مسؤولية العالم تجاه الناس، وتوجب عليه بذل علمه للمحتاجين إليه والمنتفعين به.

وبذل العلم هي زكاته. روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «زكاة العلم تعليمه من لا يعلمه»[2].

وعن الإمام علي عليه السلام: «زكاة العلم بذله لمستحقه»[3].

إن بذل العلم للناس يزكّي نفس العالم ويطهّرها من الأنانية والبخل، ويؤكد لديه الشعور بالمسؤولية، فالعلم ليس تشريفًا فقط وإنما هو مسؤولية وتكليف.

من ناحية أخرى، فإن بذل العلم يزيده وينميه، كما يقول الإمام علي عليه السلام: «والعلم يزكو على الإنفاق»[4] أي يزيد وينمو.

---

(١) غرر الحكم ودرر الكلم. حرف اللام.
(٢) المصدر نفسه. ج٢، ص٢٥.
(٣) غرر الحكم ودرر الكلم. حرف الزاء.
(٤) نهج البلاغة.

ذلك أن إبداء المعلومات يرسخّها في ذاكرة الإنسان، فالفكرة أو المعلومة التي تطرحها عدة مرات تصبح أكثر حضورًا في ذهنك، وأبعد عن الغفلة والنسيان.

وطرح الأفكار والآراء أمام الآخرين يعطي الفرصة والمجال لتمحيصها ونقدها ومناقشتها، فقد ينطوي الإنسان على نظرية ما معتقدًا صحتها وصوابها، فإذا ما طرحها للتداول العلمي والفكري بين الناس، فإنها قد تثير شيئًا من التساؤل والأخذ والرد، يدعو صاحبها لإعادة النظر فيها، بمعالجة الثغرات ونقاط الضعف في النظرية، مما يعمقها ويقوّيها، أو بالتراجع عنها إذا انكشف له بطلانها، وذلك مكسب مهم وفائدة كبيرة، لا تحصل بانطواء العالم على علمه، وإنما ببذل العلم ونشره.

من ناحية أخرى، فإن بذل العلم ينشّط الحركة الفكرية والعلمية في المجتمع، وذلك من صالح العالم نفسه، حيث إن انتماءه لمجتمع حيوي له حركة معرفية، يزيد في نشاطه العلمي، ويدفعه أكثر للتفاعل والتقدم.

لكل ذلك يكون بذل العلم زكاة له، أي سببًا لنمائه وبركته.

بذل العلم

إنما يتوجه الإنسان لدراسة العلوم الدينية، والمعارف الشرعية، من أجل أن يمتلك هو البصيرة في دينه أولًا، ويعرف التكاليف الموجَّهة إليه، ولكي يقوم بهداية الآخرين وإرشادهم ثانيًا، يقول تعالى: ﴿**فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ**﴾[1].

(١) سورة التوبة، الآية: ١٢٢.

والمهمة الثانية تترتب بشكل طبيعي وقهري على إنجاز المهمة الأولى، فإذا ما علم الإنسان وَفَقِهَ، فإنه يتحمّل مسؤولية تعليم الآخرين وتفقيههم، وإن لم يكن يستهدف ذلك منذ البداية.

بالطبع هنالك نصوص تتحدث عن المسؤولية تجاه العلم بشكل مطلق، أي كل علم يحتاج إليه الناس، ويستفيدون منه، في أمور دينهم أو دنياهم. روي عن الإمام موسى الكاظم عليه السلام: «من أوجب حقّ أخيك أن لا تكتمه شيئًا ينفعه لا من دنياه ولا من آخرته»[1].

وجاء في حديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ثلاث من حقائق الإيمان... وبذل العلم للمتعلم»[2].

وبذل العلم له عدة قنوات ووسائل، من أبرزها: التدريس والتأليف والخطابة. ونسلط الأضواء بشكل سريع على هذه المجالات الثلاثة، التي سلكها العلماء، لنشر علمهم وبثه وبذله في المجتمعات البشرية.

التدريس والتعليم

هو الطريق لتوارث العلم بين الأجيال، وانتقال الخبرات والمعارف، حيث يلتزم العالم مجموعة من الراغبين في العلم، ويواظب على تدريسهم وتعليمهم، ضمن منهج وبرنامج محدّد، يختلف من عصر إلى آخر.

والتدريس التزام يأخذ من جهد العالم ووقته، وهو من أبرز مصاديق بذل

(١) كتاب الحياة ج٢، ص٣٣٨.
(٢) بحار الأنوار. ج٢، ص١٥.

العلم، وأظهر تجلّيات القيام بمسؤوليته. لذلك يحذّر الإمام جعفر الصادق عليه السلام من التهاون في أداء هذا الواجب حيث يقول فيما روي عنه: «إن من العلماء من يحبّ أن يخزن علمه ولا يؤخذ عنه فذاك في الدرك الأول من النار»[١].

وما نودّ الإشارة إليه ضرورة اتساع نطاق تدريس العلوم الدينية، لغير طلاب العلم المتفرغين، ففي مجتمعاتنا شريحة من المثقفين والمهتمين بالقضايا الفكرية والاجتماعية، لكن معرفتهم بالعلوم الدينية محدودة، وكأنها حكر على أبناء الحوزات العلمية، وهذا من أسباب الانفصال بين المثقفين وعلماء الدين، فينبغي أن يفتح المجال، وأن يتصدّى العلماء والفضلاء، لتشكيل الدروس في التفسير والعقائد والفقه والأصول وغيرها، لهذه المجاميع من الشباب ولو في بعض أيام الأسبوع، لتصبح لدينا طبقة مثقفة مستوعبة لمبادئ الإسلام ومفاهيمه وتشريعاته.

الكتابة والتأليف

لأن الإسلام مشروع حضارة، ودين علم ومعرفة، فقد أولى وسائل العلم وأدوات الثقافة، كل اهتمام ورعاية، لذا أشاد القرآن الكريم بالقلم والكتابة، وجعله عنوانًا لسورة من سوره، وهي سورة القلم التي أقسم الله تعالى في مطلعها بالقلم والكتابة ﴿**ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ**﴾. كما أن أول آيات القرآن نزولًا على رسول الله صلى الله عليه وآله كانت دعوة إلى القراءة، وتذكيرًا بنعمة القلم ودوره في تعليم الإنسان، كأعظم نعمة على الإنسان بعد نعمة خلقه وإيجاده. يقول تعالى: ﴿**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ**﴾[٢].

---

(١) بحار الأنوار. ج٢، ص١٠٨.

(٢) سورة العلق، الآيات:١-٥.

والقلم كأيّ نعمة أخرى تحتاج إلى استثمار وتوظيف، إن الكثيرين ممن يمتلكون القابلية والاستعداد للكتابة والتأليف، قد لا يترجمون تلك القوة فعلًا في حياتهم، فلا يشهرون القلم سلاحًا في الدفاع عن مبادئهم، ووسيلة لحفظ أفكارهم وتجاربهم، ونقلها إلى الآخرين.

مع أنّ الإسلام في تعاليمه يؤكّد على كل من أُوتي نصيبًا من العلم، أن يحفظه بالكتابة لنفسه وللأجيال القادمة. فقد ورد في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «قيّدوا العلم بالكتاب»[١].

ولا أكثر من أن يعتبر رسول الله ﷺ دور الكتابة والتأليف أهم وأرجح من دور القتال في سبيل الله حتى الشهادة، حيث ورد عنه ﷺ أنه قال: «يوزن يوم القيامة مداد العلماء ودم الشهداء فيرجح مداد العلماء على دم الشهداء»[٢].

انطلاقًا من هذه التوجيهات الإسلامية العظيمة، وإدراكًا لأهمية دور القلم في بثّ العلم ونشر المعرفة، بادر علماؤنا الأخيار لتحمّل مسؤولياتهم المبدئية في هذا المجال، وأثروا حركة الفكر البشري بإنتاجهم العلمي الغزير، في مختلف مجالات المعرفة والحياة.

ورغم أن بعضهم كان يعيش ظروفًا بالغة القسوة، وكانت تواجهه الصعوبات والعقبات، إلّا أن الهمّة العالية، وروح التضحية والعطاء، وأخلاقية المثابرة والاجتهاد، كلّ ذلك كان حافزًا لتجاوز التحدّيات والمعوّقات.

فالكتابة والتأليف يجب أن تكون جزءًا من برنامج حياة العالم إلى جانب سائر

---

(١) كنز العمال. ج١٠ ص٢٤٩، حديث ٢٩٣٣٢.

(٢) المصدر نفسه.١٠، ص١٧٣، حديث ٢٨٩٠٢.

مهامه والتزاماته، ولا ينبغي الاعتذار بالانشغالات المختلفة عن هذه المهمّة الحسّاسة.

وفي هذا العصر والبشرية تعيش ثورة المعلومات والمواصلات، والعولمة الثقافية والإعلامية، فإنّ الأمة الإسلامية تواجه تحدّيات كبيرة في الحفاظ على هويتها، والتمسك بأصالتها، ومواكبة تطورات الحياة، ومعرفة الرؤية الدينية تجاه المشاكل الاجتماعية المعقدة، مما يستلزم حركة علمية وثقافية جادة واسعة.

وإذا كان العلماء السابقون قد كتبوا عن القضايا والمسائل المطروحة والمثارة في عصورهم، فإنّ علماءنا اليوم مطالبون بالتوجّه لمعالجة مشاكل الحياة المعاصرة.

ولا شك أنّ أجواء البحث والكتابة، وظروف التأليف والنشر، أصبحت الآن أكثر تهيؤًا وتوفرًا من الأزمان الماضية، مما يعني أن يكون العطاء الفكري، والإنتاج العلمي، أغزر وأوسع لعلماء ومفكري هذه العصور.

الخطابة

وإذا كان التدريس والتأليف متوجهًا للنخبة ولفئة محدودة من المجتمع، فإنّ الخطابة هي جسر تواصل العالم مع الجمهور وعامة الناس، وكما كان الأنبياء والرسل يبلغون دعوة الله تعالى للناس كافة، فإنّ علماء الدين وهم ورثة الأنبياء وحملة رسالتهم، لا بدّ وأن يتخاطبوا مع جميع الناس، ولقد فرض الإسلام خطاب الجمهور كجزء من الصلاة في صلاة الجمعة والعيدين.

وخطاب الجمهور يقتضي البساطة والوضوح، فهو ليس كالدرس أو الكتابة، ضمن مستوى معيّن، وبمصطلحات علمية خاصة. لقد كان رسول الله ﷺ

وهو أعلم البشر يخاطب العرب على اختلاف شعوبهم وقبائلهم وتباين بطونهم وأفخاذهم وفصائلهم، يخاطب كلًّا منهم بما يفهمون، ويحادثهم بما يعلمون، ولذلك قال ﷺ: «أمرتُ أن أخاطب الناس على قدر عقولهم»[١].

وروى أبو داوود في سننه حديث رقم ٤٨٣٩ أنّ كلام رسول الله ﷺ كان فصلًا يفهمه كل من سمعه[٢].

ومن الخطأ ما يشيع في بعض الأوساط العلمية من تنافي دور الخطابة الجماهيرية مع المقام العلمي الرفيع، وأنّ الخطابة عمل احترافي تقوم به فئة متفرغة له من ذوي المستوى العلمي المحدود، أما كبار العلماء فلا يناسب ذلك مقامهم وشأنهم!! وقد تحدث الشهيد السيد مهدي الحكيم في مذكراته أنه لما بدأ إلقاء المحاضرات الجماهيرية، جاء بعض العلماء إلى والده المرجع السيد الحكيم لينصحه بترك ذلك؛ لأنه لا يليق بشأنه ومكانته!!

إنّ في تاريخنا علماء فطاحل مارسوا الوعظ والإرشاد الجماهيري فكان لذلك أعظم الأثر في مجتمعاتهم كالمحقق الشيخ جعفر الشوشتري توفي ١٣٠٣هـ الذي يقول عنه السيد الأمين: كان عالمًا من أعلام العلماء فقيهًا واعظًا، له شهرة واسعة، واشتهر بالوعظ والخطابة، وكانت تجتمع الألوف تحت منبره لسماع مواعظه.. رجع إلى بلده تستر في إيران رئيسًا مطاعًا مرجعًا في التقليد والأحكام، وأخذ في الوعظ في شهر رمضان وغيره، ونبغ في ذلك بحيث لم يعهد له نظير، وترتب على وجوده آثار جليلة.. وحصل من وعظه هداية كثير من الناس[٣].

(١) محمد بن يوسف الصالحي الشامي. سبل الهدى والرشاد، ج٢، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ، (بيروت: دار الكتب العلمية). ص٩٤.
(٢) المصدر نفسه. ج٧، ص١٢٩.
(٣) أعيان الشيعة ج٤، ص٩٥.

هكذا وعبر هذه الوسائل والقنوات، من تدريس وتأليف وخطابة، يمارس العالم دوره في خدمة الدين والأمة، ويعمل لنشر العلم والمعرفة، وبذلك يؤدّي زكاة علمه، وفي هذا العصر وحيث تعصف بالأمة التحديات، وتحدق بها المشاكل والأخطار، فإنه ينبغي إعلان حالة الطوارئ في حياة علماء الدين، بمضاعفة جهودهم، وتكثيف نشاطهم العلمي والثقافي والاجتماعي، حتى تتجاوز الأمة حالة الخطر الداهم.

الفصل الثاني

الخطاب الديني
التحديات والأولويات

الخطاب الديني والعولمة

تعولم الخطاب الإسلامي بغير إرادة منه، ودون سابق عزم أو تخطيط، لكن تيار العولمة الجارف فرض نفسه على الجميع، فأحداث كبيرة تقع في مختلف أنحاء العالم يجد الإسلاميون أنفسهم طرفًا فيها، إما لمشاركة بقرار فردي من بعض الأطراف أو لتخطيط معاد بإقحام المسلمين والزج بهم في شتى المعارك تحقيقًا لمقولة صراع الحضارات، أو لمجرد إشاعة تنطلق لخلق إثارة إعلامية، أو لأيّ سبب آخر.

ويكفي أن أهم حدث هزّ العالم المعاصر في الحادي عشر من سبتمبر سنة ٢٠٠٢م تفجيرات نيويورك وواشنطن، كان لونه إسلاميًا فاقعًا.

إنه حدث مفصلي في تاريخ العالم الحديث، تأسست عليه كثير من التغييرات والأحداث الدولية الحاسمة، وخاصة فيما يرتبط بواقع المسلمين، وحركة وجودهم ومستوى علاقاتهم مع العالم.

ولا يكاد يمر يوم لا تحمل فيه وكالات الأنباء والمصادر الإعلامية خبرًا أو

أكثر له ارتباط بقضايا المسلمين، ومن نوع الأخبار التي تثير الاهتمام كالتفجيرات الإرهابية الضخمة، أو مآسي الاختطاف الأليمة، أو صور القتل بالذبح والنحر المفزعة.

ومن الطبيعي أن تستدعي مثل هذه الأحداث حضورًا أو استحضارًا للخطاب الإسلامي ضمن المواقف والاتجاهات المختلفة في ساحته.

من جهة أخرى، فقد أصبحت وسائل الاتصال المتطورة، وقنوات الإعلام الفضائي المتقدمة متاحة أمام الجميع، فهي سوق استثمار دولية ضخمة من صالح أربابها انخراط الجميع في معادلتها الاستهلاكية، كما أنها تلبي حاجة ملحة لكل الأطراف ذات الاستهدافات المختلفة سياسية أو دينية أو اقتصادية.

واقتحم الإسلاميون هذا العالم المتطور، فأصبحت لديهم عشرات الفضائيات الإسلامية، وآلاف المواقع على الشبكة العنكبوتية، إضافة إلى عدد كبير من الصحف والمجلات. وحضور الإسلاميين لا يقتصر على المنابر الخاصة بهم، بل لهم حضورهم وتواجدهم الذي تفرضه الأحداث من خلال مختلف المنابر والقنوات.

لكن ما يجب بحثه ومناقشته هو مستوى واتجاه العولمة في الخطاب الإسلامي، هل أنها في حدود ردّ الفعل والاستجابة لتأثيرات الأحداث، أم تتجاوز ذلك إلى مستوى تقديم الطروحات، وبلورة العناوين والشعارات؛ القابلة للتدوير والتفعيل على المستوى العالمي؟

وهل تقتصر حالة العولمة إسلاميًّا على استخدام الوسائل المتطورة والإنجازات التقنية الحديثة أم تتعداها إلى تجديد المضامين وتحديث الاهتمامات، وتطوير المحتوى؟

فالعولمة ليست مجرد آليات ووسائل، بل هي آفاق من الاهتمامات العالمية التي

تتخطى الحواجز والخصوصيات، وهي ساحة صراع وتنافس بين الثقافات وما ينبثق عنها من أنماط سلوك وأساليب عيش..

لقد وضعت العولمة كل الأديان الروحية ومناهج القيم الأخلاقية أمام تحديات صعبة قاسية، وكأنها تريد إعادة تشكيل حياة الإنسان في أبعادها المختلفة ضمن معايير ومقاييس عالمية موحدة، تقررها الأطراف الأكثر قدرة على شؤون العالم.

فأين يقع الخطاب الإسلامي من معادلة العولمة هذه؟

إنّ جزءًا كبيرًا من هذا الخطاب دخل العولمة في حدود المظاهر الشكلية، باستخدام وسائلها وتقنياتها، لكن مضمون الخطاب ومحتواه لا يزال قرويًا ينتمي لعصر (القرية) الصغيرة المنعزلة، وليس القرية الكونية التي تغطي الكرة الأرضية.

إنه يعبّر عن هموم واهتمامات جزء من مجتمع تلك القرية الصغيرة، دون أن يرتقي إلى إدراك شيء من هموم البشرية على مستوى العالم.

والقضايا التي يعالجها هذا الخطاب تبدو تافهة أمام ما يشغل بال إنسان هذا العصر من أزمات حادّة تهدد مستقبل البيئة والإنسان بأخطار كبيرة.

إنه خطاب يتغنى بأمجاد غابرة، ليكرس بذلك واقعًا متخلفًا، وبدل أن يثير جمهوره إلى المستقبل، يشغلهم بصراعات تاريخهم الماضي، لينقسموا إلى فرقاء يقدّس بعضهم ذلك الخليفة، ويعاديه بعض آخر، مع أن عهد الخلافة قد ولى وانتهى منذ زمن طويل.

أو يُعاد إحياء الاصطفاف والتخندق على أساس الخلاف حول مقولات نظرية أنتجها عصر النزاعات الكلامية قبل قرون ولا تأثير لها على واقع الحياة.

والأفظع من ذلك إصرار هذا الخطاب على تقسيم العالم إلى ثنائية دار سلام ودار حرب، مع تجاهل كل التطورات الجغرافية والسياسية والفكرية التي يعيشها العالم.

هكذا يبدو الخطاب الإسلامي المشغول بأهل قريته الصغيرة من فئة المسلمين، بل من فئة المؤمنين بمذهبه في القرية، بل من أتباع نهجه الخاص داخل المذهب، وإن استخدم وسائل العولمة المتطورة وتقنياتها، وبرامج كثير من القنوات الفضائية الإسلامية، وتوجهات أكثر مواقع الإنترنت الدينية، تكشف عن هذه الحقيقة المرّة بجلاء.

بالتأكيد، فإنّ هذا المستوى من الطرح والأداء للخطاب الإسلامي في عصر العولمة ومن خلال أدواتها، يقدم صورة غير مشرفة للإسلام، ويعطي المجال للتشكيك في قدرته على الثبات أمام تحدي الحضارات والثقافات الأخرى، وفي صلاحيته لتوجيه حياة الإنسان المعاصر.

إنّ جهودًا تأسيسية كبرى يجب أن تبذل لوضع قواعد وإرساء بنية معرفية تحتية ينطلق منها الخطاب الإسلامي المعاصر؛ لعلّ من أولياتها التوفر على رؤية حول واقع العالم الجديد، والقراءة الموضوعية للتغيرات التي تعيشها المجتمعات البشرية اليوم. هذا **أولًا**.

وثانيًا: التفكير بعقلية إنسانية منفتحة، تهتم بمصلحة الجنس البشري، وتدرك تداخل المصالح بين أبناء الأسرة الإنسانية، وتتلمس الحلول والمعالجات للتحديات التي يواجهها الجميع.

ثالثًا: تجديد النظر والاجتهاد في الفكر والفقه الإسلامي، لاستنباط الآراء والأحكام حول مستجدات القضايا، وعلى ضوء التطورات المعرفية، ذلك لأنّ

الفكر والفقه ناتج كسب بشري، يتأثر بمستوى منتجيه وفهمهم وبتأثير البيئة التي عاشوا فيها وتفاعلوا معها.

إنّ النص الشرعي الثابت فوق الزمان والمكان وحدود البيئات الاجتماعية، لكن فهم النص ليس كذلك، وما خلّفه لنا أسلافنا من العلماء والفقهاء رضوان الله عليهم، وجزاهم على عطائهم وجهادهم خيرًا، من آراء فكرية وفقهية، يعبّر عن اجتهادهم وفهمهم، ولا يسقط عنا واجب الاجتهاد، حيث يجب على الأمة في كلّ عصر أن تنجب مجتهدين أكفاء يقومون بواجب النظر والاستنباط، ولو كنا ملزمين باجتهادات السابقين، أو يصح لنا الاكتفاء بها والوقوف عندها لما كان معنى لوجوب الاجتهاد على الأمة في كل عصر وجيل على نحو الوجوب الكفائي كما قرر الفقهاء.

رابعًا: التواصل مع تجارب الأمم والشعوب والانفتاح عليها للاستفادة منها والتفاعل معها، استجابة لدعوة القرآن للتعارف بين المجتمعات البشرية ﴿**وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا**﴾(١)، وأخذًا بوصية نبينا الكريم ﷺ في قوله: «اطلبوا العلم ولو في الصين»(٢)، وقوله ﷺ: «الكلمة الحكمة ضالة المؤمن حيث ما وجدها فهو أحق بها»(٣).

خامسًا: حسن العرض والتقديم لمبادئ الإسلام وتعاليمه، ذلك أنّ صحة المحتوى والمضمون لا تغني عن حسن أسلوب الطرح، من هنا يؤكد القرآن الكريم

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٣.

(٢) وسائل الشيعة، ج٢٧، ص٢٧، حديث ٣٣١١٩.

(٣) محمد بن عيسى بن سورة الترمذي، سنن الترمذي، ج٣، الطبعة الأولى ٢٠٠٠م، (بيروت: دار الكتب العلمية)، ص٤٧٩، حديث ٢٦٨٧.

على الاجتهاد في اختيار أفضل الأساليب والوسائل للدعوة إلى الله؛ يقول تعالى:
﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[1].

(1) سورة النحل، الآية: ١٢٥.

الانتماء للعصر

وتفجرت ينابيع المعرفة أمام إنسان هذا العصر، وتدفق عليه سيل المعلومات من كلّ الاتجاهات وعن كلّ الأشياء.

أوشكت الأميّة على الانقراض، فبعد أن كان القادرون على القراءة والكتابة في سالف الزمان عددًا قليلًا من الناس، يعدّون على الأصابع في كل مجتمع من المجتمعات، أصبحت الأميّة نسبة ضئيلة تتقلص كل عام على مستوى العالم.

وحتى من يفقدون السمع أو البصر أتيحت لهم فرص التعلم، وتوفرت لهم وسائل الخلاص من الأميّة.

وانفتحت آفاق علوم الأرض والسماء، أمام أبناء البشر، من مختلف الأعراق، والألوان، والأصقاع، والشرائح والطبقات، ولم يعد العلم حكرًا على نخبة من أبناء السلاطين والأثرياء الارستقراطيين.

وأصبح العالم بأحداثه وتطوراته حاضرًا أمام الإنسان، وهو مضجع على سرير

نومه، أو متكئ على أريكته، يشاهد كل خبر أو حدث هام لحظة وقوعه، بالصورة الملونة، والصوت الواضح بأيّ لغة يتقنها.

أما الحاسب الآلي، والشبكة العنكبوتية (الإنترنت)، فهي العصا السحرية المتاحة لكل إنسان في هذا العصر، ليستحضر بها أيّ معلومة يريدها، وأيّ فكرة يبحث عنها، وبها يفتح كل أبواب خزائن العلم والمعرفة، في مختلف المجالات والتخصصات، وقد بلغ عدد مستخدمي الإنترنت في العالم عام ٢٠١١م (٢) مليار مستخدم.

قبل سنوات قرأت في أحد التقارير: أنّ العالم أنتج من المعلومات خلال الثلاثين سنة الماضية، ما يزيد على الذي تم إنتاجه في الخمسة آلاف سنة السابقة.

ونسخة واحدة من عدد الأحد لصحيفة (نيويورك تايمز) تحتوى على المعلومات التي يمكن أن يكتبها أوروبي في القرن السابع عشر طيلة حياته.

وكل يوم هناك نحو عشرين مليون كلمة، تنتج بواسطة الوسائل الإعلامية والمعلوماتية المختلفة.

والقارئ الذي يستطيع أن يقرأ ألف كلمة في الدقيقة، سيستغرق شهرًا ونصف الشهر لقراءة إنتاج يوم واحد فقط. وفي نهاية هذه المدة سيتكدس لديه ما يحتاج إلى خمس سنوات ونصف من القراءة[1].

وقبل سنوات أشارت أرقام اليونسكو واتحاد الناشرين الدولي إلى أنّ العالم يصدر فيه سنويًّا حوالي مليون وربع المليون عنوان من الكتب.

---

(١) المجلة: مجلة أسبوعية تصدر من لندن، العدد ٩٢٨ بتاريخ ٢٩/ ١١/ ١٩٩٧م.

وحوالي نصف المليون دورية مطبوعة.

وحوالي خمسة ملايين تقرير علمي وفني.

وحوالي ربع المليون رسالة ماجستير ودكتوراه.

وربع المليون كتاب ودورية الكترونية[١].

في هذا العصر الذي تزدحم أمام إنسانه الأفكار، وتتراكم المعارف، وتتوالى المعلومات، كيف يمكن للخطاب الديني أن يشقّ طريقه إلى عقل هذا الإنسان المعاصر؟

وكيف يرقى إلى مستوى المنافسة والتحدي؟

إنّ أول شرط تأهيلي لمقبولية الخطاب الديني، يكمن في انتمائه لهذا العصر الحاضر، بأن يستخدم لغته، ويعيش قضاياه واهتماماته، ويستفيد من وسائله وتقنياته.

إنّ تقدم العلم، وتطور المعرفة، ويسر تداول المعلومات وانتشارها، ليس مشكلة، ولا عامل تحدٍّ سلبي أمام الخطاب الإسلامي، بل هو في الواقع مكسب عظيم للإنسانية، وداعم لحقائق الدين، المنسجمة مع الفطرة، المتوافقة مع سنن الله تعالى في الطبيعة والحياة.

فالجهل هو العائق الأكبر أمام اهتداء الإنسان للدين، وهو سبب انحداره إلى مهاوي الكفر والشرك والضلال، لذلك يستعيذ المؤمن بالله تعالى من الجهل: ﴿**قَالَ أَعُوذُ بِالله أَنْ أَكُونَ مِنْ الْجَاهِلِينَ**﴾[٢].

(١) وجهات نظر: مجلة تصدر عن الشركة المصرية للنشر العربي والدولي، القاهرة العدد ٣٧ فبراير ٢٠٠٢م.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٦٧.

ويحذّر الله تعالى نبيه من مستوى التفكير الهابط للجهلاء يقول تعالى: ﴿فَلاَ تَكُونَنَّ مِنْ الْجَاهِلِينَ﴾[1].

ويقول تعالى: ﴿وَأَعْرِضْ عَنْ الْجَاهِلِينَ﴾[2].

وكما يقول الإمام علي عليه السلام: «الجهل أصل كلّ شرّ»[3].

ويحيل الإمام علي سبب عداء الناس لكثير من الحقائق والمواقف إلى الجهل يقول عليه السلام: «الناس أعداء ما جهلوا».[4]

أما العلم فهو طريق الإيمان والهدى واكتشاف الحق، يقول تعالى: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ﴾[5].

وروي عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «العلم حياة الإسلام وعماد الإيمان».[6]

تأسيسًا على هذه الحقيقة، فإنّ التقدم العلمي يخدم المبادئ الدينية، ويجعل الناس أكثر تهيأً لقبولها والتفاعل معها، كما أنّ تطور وسائل المعرفة يتيح أفضل الفرص لعرض قيم الإسلام، وإيصال صوته إلى المسامع والعقول.

لكن المشكلة تكمن في استيعاب دعاة الإسلام لحقائق العصر، وقدرتهم على تنزيل مفاهيمه، وإسقاط قيمه، على واقع الحياة الحاضر. ذلك أنّ شريحة واسعة

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٣٥.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٩٩.

(٣) غرر الحكم ودرر الكلم.

(٤) نهج البلاغة، حكمة١٧٢.

(٥) سورة سبأ، الآية: ٦.

(٦) كنز العمال، حديث ٢٨٩٤٤.

منهم تعيش بأبدانها في هذا الزمن، لكنها تنتمي بعقولها ولغتها وتصوراتها إلى أزمنة غابرة، تنظّر لمشاكل تلك العصور، وتنشغل بصراعات الماضي الفكرية والسياسية، وتتقمّص اهتمامات الأسلاف، وتفقد القدرة على الإبداع الفكري، وجرأة الاجتهاد الفقهي.

إنّ قسمًا من الخطابات الدينية تثير السخرية والامتعاض، لمخالفتها روح العصر، وتجاهلها شرائط الزمان والمكان، وعدم تناسبها مع أوضاع المجتمعات.

في مقالة له بعنوان (أزمة خطبة الجمعة) كتب الدكتور خالص جلبي نقدًا لاذعًا لهذا النوع من الخطابات، مستشهدًا ببعض نماذجه، ومما جاء في المقال الفقرات التالية:

منذ أيام يزيد بن معاوية يصعد كلّ يوم جمعة نفس الخطيب، ويكرر نفس الديباجة، ويعيد نفس الدعاء للسلطان بالحفظ والصون. ويتلقى الموجة جمهور أخرس أتقن الصمت، مختوم بختم على الفم أكبر من ختم الحبل السري على البطن، ليسمع حديث واعظ في قضايا لا تستحق الاجتماع، فلا يزيد الحديث فيها عن فواكه الجنة، وعن الآخرة، وعن فرعون ذي الأوتاد.

وروي لي من بلد عربي، أنّ خطب الجمعة تكتب بيد موظف وصي على عقول الناس، وترسل بالفاكس إلى خطباء كل المساجد، كي يقرؤوا خطبة واحدة موحدة مؤممة، فهذا أريح لوجع الدماغ.

وفي مدينة مونتريال في كندا، حضرت خطبة وصلاة الجمعة، فظننت نفسي في مسجد الأتراك في حي قاسيون في دمشق، فلم يزد الحديث عن مواعظ عثمانية، وأدعية عدوانية، بأن يدمّر الله الكافرين جميعًا وعائلاتهم. في الوقت الذي منح فيه

الكنديون المسلمين الجنسية، ومعها الرزق الوفير، والدراسة المجانية، والأمان من جلد المخابرات، وتقارير الشرطة السرية.

وفي مكان ما حضرت خطبة في مسجد، فحوّل الخطيب الخطبة إلى مناسبة فقهية، في الاستنجاء والاستبراء بالحجارة، مع أنّ الناس لم تعد تستخدم الحجارة في دورات المياه منذ أيام الاستعمار الفرنسي.

وفي بلدتي التي عشت فيها طفولتي، كان الإمام يخطب من كتاب (ابن أبي نباتة) من أيام السلطان قلاوون. وهناك ٥٢ خطبة على مدار السنة، وحسب المواسم، وكنا صيامًا فتحدث عن الحج، ثم انتبه إلى أنه بدل المواسم، فبدأ يقلب على عجل عن الخطبة المناسبة، بعد أن ضلّ طريقه إليها.

وفي بلد عربي كان الخطيب يدعو بحرقة على طوائف لا نهاية لها بالتدمير الكامل، وتيتيم الأطفال، وترميل النساء، وأن يريه عجائب خلق الله فيهم. وكان أكثر حماسة عند الدعاء على العلمانيين أن يُقتلوا عددًا، وُيهلكوا بددًا، ولا يُبق منهم أحدًا. كرر ذلك ثلاث مرات وصوته مختنق بالبكاء[١].

وإذا كان هؤلاء الخطباء يعانون من القصور في وعي عصرهم، وفهم رسالتهم، فإنّ قسمًا آخر من الخطباء يمارسون التقصير، فهم لا يصرفون جهدًا كافيًا لإعداد خطاباتهم والتحضير لها. رغم توفر الوسائل والأدوات، فمعاجم الفهرسة على الكمبيوتر، ومواقع البحث على الإنترنت، تجلب أيّ معلومة أو مصدر يحتاجه الخطيب لإعداد ما يريد بحثه.

كما أنّ وسائل الإعلام المحليّة والأجنبية تتيح الاطّلاع على مختلف القضايا

---

(١) الشرق الأوسط: جريدة يومية تصدر من لندن ٢٦/ ٦/ ٢٠٠٢م.

والمشاكل المعيشة في مجتمع اليوم.

وفي مجتمعنا عدد وافر من الأخصائيين والمتخصصين يمكن استشارتهم والاستفادة من آرائهم، لمعالجة القضايا المرتبطة بتخصصاتهم.

إنّ ضعف الإعداد والتحضير للخطاب، يجعل المعالجة فيه سطحية بسيطة، كما أن هندسة الموضوع ومنهجية الطرح، تصبح مرتبكة أو غير متقنة.

بينما يكون الخطيب المجتهد في الإعداد والتحضير مهيمنًا على موضوع بحثه، مُنسِّقًا لنقاطه وأفكاره، مشبعًا له بالأدلة والشواهد المؤثرة، مما يجعله أكثر فائدة وأقدر على الإقناع والتأثير.

أنسنة الخطاب الديني

يحتلّ الخطاب الديني في مجتمعاتنا الإسلامية موقعًا خطيرًا من التأثير لا يضاهيه فيها أيّ خطاب آخر، فهو الذي يصوغ العقل الجمعي، ويوجه السلوك العام؛ نظرًا لارتباط مجتمعاتنا بالدين، ولما يمثله هذا الخطاب في نظرها من تعبير عن أوامر الدين وأحكامه.

من ناحية أخرى، فإنّ الخطاب الديني أصبح مرآة لصورتنا أمام الأمم والحضارات الأخرى، فمن خلاله تتشكل الانطباعات والتقويمات عن أمتنا وديننا وثقافتنا.

وحين نجد ظاهرة عجز في العقل الجمعي للأمة، وظاهرة خلل في السلوك العام لأبنائها، وحين تهتز صورة الأمة على شاشة الرأي العام العالمي، فذلك يجب أن يدعونا إلى مراجعة خطابنا الديني، فهو إما أن يكون مسؤولًا عن حصول هذا الواقع السيئ، أو مهادنًا له مكرسًا لوجوده.

إنّ علينا أن نفرق بين الخطاب الديني والنص الديني، فالنص الديني هو كلّ

ما ثبت وروده عن الله سبحانه وتعالى وعن رسوله محمد ﷺ، أي الكتاب والسنة. فالقرآن الكريم قطعي الصدور بكل ما بين دفتي المصحف الشريف منزّه عن أيّ زيادة ونقصان، أما السنة الشريفة فهي ما ثبتت صحة وروده بالضوابط العلمية المقررة عند فقهاء الأمة.

وهذا النص الديني (الكتاب والسنة) فوق المحاسبة والاتهام، إنه يحكي عن الله تعالى، وعن وحيه الأمين، وعن المصدر المعصوم، ولا يمكن أن يتسرب لقلب مسلم ذرة من الشك في صدقه وقداسته.

أما الخطاب الديني فهو ما يستنبطه ويفهمه الفقيه والعالم والمفكّر من النص الديني، أو من مصادر الاجتهاد والاستنباط المعتمدة.

ويتمثل الخطاب الديني في فتاوى الفقهاء، وكتابات العلماء، وأحاديث الخطباء، وآراء ومواقف القيادات والجهات الدينية.

وهنا لا قداسة ولا عصمة، فالاجتهاد قد يصيب وقد يخطئ، والمجتهد يعبّر عن مقدار فهمه وإدراكه، كما قد يتأثر بمختلف العوامل النفسية والاجتماعية التي تنعكس على آرائه وتصوراته.

كما أنّ قسمًا كبيرًا من الخطاب الديني المعاصر لا يصدر عن فقهاء مجتهدين، بل عن وعّاظ وخطباء محترفين، وجهات تمتهن التصدي للشأن الديني، بغض النظر عن الكفاءة والنزاهة.

وبذلك فالخطاب الديني قابل للنقد والتقويم؛ لأنه كسب بشري، ونتاج إنساني، أما النص الديني فهو وحي إلهي أو تعبير عنه.

صحيح أنّ الخطاب الديني يستند إلى النص الديني ويحتج به، لكن ذلك يتم عبر فهم وتفسير للنص، هذا الفهم والتفسير قابل للأخذ والرد، فهناك تفسيرات لبعض النصوص الدينية تفتقد الموضوعية والدقة، أو تجتزئ النصوص من سياقاتها، وتقرؤها خارج منظومة قيم الرسالة ومقاصد الشريعة.

كما أنّ بعض ما يستند إليه من نصوص السنة يحتاج إلى التأكد والاطمئنان من ثبوت صدوره وصحة وروده.

ومن أبرز مظاهر العجز والخلل في واقع مجتمعاتنا تدنيّ مكانة الإنسان، وانخفاض مستوى الاهتمام بقيمته وحقوقه، وحماية كرامته، حتى أصبحت أمتنا تحتل الصدارة في تقارير انتهاكات حقوق الإنسان على مستوى العالم، ليس من جهة السلطات السياسية فقط، وإنما على الصعيد الاجتماعي العام أيضًا. فهناك إرهاب فكري يصادر حرية التعبير عن الرأي، وتمييز ضد المرأة يحولها إلى إنسان من درجة ثانية، وقسوة على الأبناء تسحق شخصياتهم، ونظرة دونية إلى الآخر المختلف ضمن أي دائرة من دوائر الاختلاف.

ومن هذه الأرضية انبثقت توجهات إرهابية متوحشة، تمارس العنف، وإزهاق النفوس، وقطع الرؤوس، واختطاف الأبرياء، واستهداف المدنيين، كل ذلك باسم الدين، وتحت شعار الإسلام، وبعنوان الدفاع عن مقدسات الأمة.

هذه الانتهاكات الصارخة لحقوق الإنسان في المجتمعات الإسلامية، وهذا التجاهل والتنكّر لكرامة الإنسان وقيمته، حينما يحدث كل ذلك بمقولات وتبريرات تنسب إلى الدين، فمن الطبيعي أن يكون الخطاب الديني في موضع المساءلة والاتهام.

إنه لا يساورنا شك في نزاهة الدين وبراءته من هذا الذي يحدث باسمه وينسب إليه، فالقراءة الصحيحة للنصوص الدينية تكشف عن اهتمام عميق بإنسانية الإنسان، واحترام شديد لكرامته وحقوقه، لا مثيل له في أيّ مبدأ أو حضارة.

وبالتالي، فإنه يمكننا محاكمة الخطاب الإسلامي المعاصر وتقويمه على ضوء النصوص الدينية، لمعرفة مدى الخلل والقصور الذي يعانيه في مجال الاهتمام بإنسانية الإنسان واحترام كرامته وحقوقه.

صحيح أنّ استشهادنا بالنصوص الدينية سيكون هو الآخر تعبيرًا عن اجتهاد في فهمها وتفسيرها، لكنه اجتهاد راجح بتوافقه مع أصول الرسالات الإلهية ومقاصد التشريع، وبانسجامه مع القيم الإنسانية ومنطق العقل.

إن تطوير خطابنا الديني إنسانيًا ليس مطلبًا كماليًا، وليس قضية هامشية، بل هو ضرورة ملحّة تقع في الصميم من قضايا الأمة واحتياجاتها.

إنه سبيل إلى تحقيق مهام أساسية تأخرت الأمة كثيرًا عن إنجازها وتحقيقها، وأبرزها ما يلي:

أولًا:

إنجاز تقدم على مستوى التنمية الإنسانية في مجتمعاتنا، حيث يعيش الإنسان واقعًا متخلفًا يفتقد فيه مقومات بناء الحياة الفاضلة، والتمتع بحقوقه الإنسانية المشروعة.

ثانيًا:

النجاح في صنع العلاقة السليمة مع الآخر داخل الأمة والوطن، وفي الخارج

مع سائر الأمم والحضارات، حيث تعاني مجتمعاتنا من اضطراب العلاقة بين فئاتها وشرائحها، وحيث أقحمت الأمة في معركة صدام مع الحضارات والشعوب الأخرى بسبب توجهات التطرف والإرهاب.

ثالثًا:

الإسهام في خدمة القضايا الإنسانية على الصعيد العالمي، لتكون الأمة بمستوى ما تتبناه من قيم الإسلام ومفاهيمه وشعاراته الرسالية العظيمة.

إنّ القرآن يقدم الإسلام مشروعًا للإنسانية جمعاء ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا كَافَّةً لِّلنَّاسِ**﴾[(١)] ورسالة ورحمة وسلام لكل شعوب العالم ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ**﴾[(٢)] وأنّ أمة الإسلام يجب أن تكون رائدة الخير في المجتمع البشري ﴿**كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ**﴾[(٣)].

فلا بدّ من خطاب يؤهل الأمة لهذا الدور، ويقدّم الإسلام للعالم على هذا المستوى.

---

(١) سورة سبأ، الآية: ٢٨.

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٧.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١١٠.

صنع المشاكل أم تقديم الحلول

تنتظر المجتمعات الإسلامية من الخطاب الديني، أن يقدم حلولًا ومعالجات للمشاكل والتحديات التي تواجهها.

وهي مشاكل كبيرة وتحديات خطيرة، تبدأ من صعوبات التربية في عصر العولمة، حيث تدنّت إمكانات تأثير الأسرة على الأبناء، لصالح تأثيرات وسائل الاتصال المتطورة، والإعلام الفضائي المفتوح.

مرورًا بمشاكل التفكك الأسري، والأزمات الاقتصادية، وتخلف التنمية، وانتهاءً بهيمنة الاستبداد السياسي، وغياب المشاركة الشعبية، وما يؤدي إليه من فقدان الاستقرار والأمن، ونشوب الصراعات والنزاعات.

ثم ما تواجهه المجتمعات الإسلامية من عدوان صهيوني جاثم على قلب الأمة، منذ أكثر من نصف قرن من الزمن، وكذلك محاولات الهيمنة والنفوذ من قبل مختلف قوى الاستكبار العالمي.

هذه التحديات والمشاكل تستوجب نهوض الأمة، وتجنيد قواها وطاقاتها، وتفعيل إمكاناتها وقدراتها، لتجاوز واقع التخلف، والالتحاق بركب الأمم المتقدمة، التي تنعم بالديمقراطية والاستقرار السياسي، وتتنافس في ميادين العلم والمعرفة، والتطور والتقدم الاقتصادي.

وإنهاض الأمة وتعبئتها لمواجهة المشاكل والتحديات، هي المهمة الأساس للخطاب الديني، لكن المؤسف أنّ بعض الخطاب الديني ينتج للأمة مشاكل إضافية، ويشغلها عن مواجهة تحديات واقعها المعاصر، بنبش وإثارة مشاكل تاريخية قديمة، أكل عليها الدهر وشرب.

لقد حصلت في تاريخنا الماضي أحداث وصراعات سياسية واجتماعية كثيرة، ودارت خلافات ونزاعات كلامية وفقهية صاخبة، لم تكن بعيدة عن التأثير السياسي، ويحق لنا أن ندرس التاريخ، وأن نقرأ أحداثه ورجالاته، ونتعرف جذور التوجهات والتيارات السياسية والفكرية التي أسست للتنوع المذهبي القائم في الأمة.

لكن ذلك لا يعني البقاء في كهوف التاريخ، والتخندق في جبهات صراعاته، وإعادة تمثيل معاركه وحروبه، على حساب مصالح الحاضر، وهموم الواقع.

إنّ أتباع كل مذهب ومدرسة يجدون أنفسهم معنيين بتربية أبنائهم وفق انتمائهم الديني المذهبي، ولهم الحق في التعبير عن آرائهم وتوجهاتهم، وإنتاج ثقافتهم المذهبية الخاصة.

كما أنّ الحوار والنقاش بين وجهات النظر المختلفة أمر مشروع ومطلوب، لإثراء المعرفة، وإنضاج الرأي، وتمحيص الحقائق.

لكن تربية الأبناء على المذهب لا تعني زرع الأحقاد والضغائن في نفوسهم على أبناء المذاهب الأخرى، ولا تحريضهم على الكراهية للآخرين، كما تصنع بعض مناهج التعليم الديني التي تقحم الجيل الناشئ في متاهات الخلافات المذهبية، وتخلق في نفوسهم مشاعر سلبية تجاه بعضهم بعضًا، مما يضر الوحدة الوطنية، والسلم المجتمعي.

كما أنّ جزءًا كبيرًا من خطابات المساجد والحسينيات تأخذ منحى تعبئة جمهور المذهب ضد جمهور المذهب الآخر.

وتخصصت بعض القنوات الفضائية والمواقع الإلكترونية في إثارة الحوار المذهبي، باتجاه الشحن الطائفي، وإذكاء الصراع والنزاع، لصب الزيت على نيران الفتنة المتقدة في أكثر من موقع.

حقًّا لقد أصبح الخطاب الديني في هذا الاتجاه مصدر مشاكل إضافية للأمة، بدل أن يقدم الحلول لمشاكلها القائمة.

إنّ حشودًا ضخمة من أبناء الأمة تجتمع في المناسبات الدينية لتصغي لخطابات الخطباء والدعاة، التي تبث أيضًا عبر القنوات الفضائية، مما يوفر أفضل الفرص لتوجيه الناس نحو تعزيز القيم الأخلاقية في حياتهم، ولإرشادهم للتغلب على المشاكل التي يواجهونها في مجالات التربية والعلاقات الأسرية، وصعوبات المعيشة، ولتحفيزهم نحو المعرفة والإنتاج وبناء المستقبل الأفضل.

لكن المؤسف أنّ معظم الخطابات التي تُلقى على تلك الحشود المهيأة نفسيًا للتفاعل والتأثر، تتجه نحو قضايا الخلاف المذهبي والتعبئة الطائفية، مما يخلق لدى الجمهور اهتمامًا زائفًا، بأولوية المعارك المذهبية على سائر التحديات، ويصنع في

نفوسهم إشباعًا كاذبًا لعواطفهم الدينية، بأن الولاء للدين والإخلاص للعقيدة يتجسّد في البراء من الآخر المذهبي، وبغضه وكراهته، ولعن رموزه والشخصيات التي يقدسها، باعتبارهم مشركين مبتدعة روافض، أو نواصب غاصبين معادين لأهل البيت.

هذه التعبئة الطائفية تشغل جمهور مختلف المذاهب، عما يعانونه من استبداد سياسي، وفساد اجتماعي، وأزمات معيشية.

إنّ ظواهر سلوكية خطيرة تنتشر في هذه المجتمعات، وتهدد أمنها الأخلاقي والاجتماعي، كانتشار المخدرات، وعصابات الإجرام، وممارسة العنف، والتفكك الأسري، وتدني مستوى التعليم، وارتفاع نسبة البطالة، والمشاكل الأخلاقية.... بينما يعيش ذلك الخطاب الديني في وادٍ آخر، وكأنه غير معني بما ينخر في جذور المجتمع من أمراض وأوبئة فتّاكة.

والأخطر من ذلك ما تؤول إليه هذه التعبئة الطائفية من نشوب الفتن، وفقدان الاستقرار والأمن، كما حصل في أكثر من بلد كباكستان والعراق.

فهل يدرك هؤلاء المنتجون لهذا الخطاب مآلات وآثار خطابهم؟

إنّ بعضهم ينطلق من سوء فهم وقصر نظر، فهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا.

وبعض الخطباء لا بضاعة لهم غير هذه الحكايات التي حفظوها وألفوا طرحها، ولا يجدون ولا يجيدون غيرها.

والبعض الآخر تدفعه الأغراض والمصالح، فيدغدغ مشاعر الجمهور بهذه الطروحات، لكسب الشعبية والنفوذ، وتحقيق المآرب الشخصية.

وهناك من ينطلق في خطابه الطائفي من أجندة سياسية، لتحصيل موقع سياسي، أو خدمة حزب أو فئة، أو لكونه مدفوعًا من جهة سياسية في الداخل أو من الخارج، لها مصلحة في إثارة الخلاف وإشعال الفتنة.

ومع كل ما نشعر به من القلق لارتفاع صوت الخطاب الطائفي، إلا أننا يجب أن نراهن على إثارة وعي أبناء الأمة، فقد عاش الأوروبيون ما تعيشه أمتنا الآن، من خلافات ونزاعات، طائفية وعرقية وسياسية، لكن حركة الوعي والتنوير التي قادها المفكرون والمثقفون والمصلحون الدينيون في مجتمعاتهم، قد أثمرت بعد كفاح مرير، وتضحيات كبيرة، فتجاوزت شعوبهم حالة الاقتتال والاحتراب، وأسسوا دولتهم الحديثة على أساس مفهوم المواطنة والمشاركة، وهم الآن يصنعون اتحادهم الأوروبي الكبير الذي يضم سبعًا وعشرين دولة، تتنوع انتماءات شعوبها القومية والدينية، حيث يبلغ عدد اللغات الرسمية في الاتحاد الأوروبي ثلاثًا وعشرين لغة، كما تتعدد مذاهبهم المسيحية من كاثوليك وأرثوذكس وبروتستانت، إضافة إلى الجاليات المختلفة في انتماءاتها العرقية والقومية والدينية.

إنّ على القيادات المخلصة في الأمة أن تخوض معركة الوعي، وتقاوم التوجهات الطائفية، متسلحة بالثقة والأمل، وأن تطور خطابها التوعوي، وتكثف الجهود في نشره وبثّه، لتتجه مسيرة الأمة نحو التنمية والبناء، وتتجاوز واقع الاستبداد والجمود.

ولن يكون الطريق مفروشًا بالورود أمام خطاب الوعي والوحدة؛ لأنّ القوى المستفيدة من واقع التخلف والاختلاف، ستفتح النار من كلّ اتجاه وصوب، لمحاصرة خطاب الإصلاح والوعي، فلا يمكن تجنّب المعركة، فذلك هو قدر المصلحين في كلّ عصر ومجتمع.

أولويات الطرح في الخطاب الديني

هل الخطاب الإسلامي ثابت موحّد في مختلف الظروف والمجتمعات؟

أم أنّ تغير الزمان والمكان ينعكس أثرهما على هذا الخطاب؟

لا شك أنّ القيم والمبادئ الإسلامية في جوهرها تمتلك صفة الثبات والدوام، لكن الخطاب الإسلامي يعني منهجية وأسلوب طرح تلك القيم وعرضها على الناس.

ولتفاوت مستوى الناس، واختلاف الظروف التي يعيشونها، لا بد أن يتغيّر الخطاب ويتنوع، من حيث أولويات التركيز والمعالجة، وأسلوب الطرح والتناول.

فالتخاطب مع الجمهور يختلف عنه مع النخبة العلمية، والحديث وسط تجمّع ديني ملتزم، يختلف عنه ضمن وسط غير ملتزم دينيًا. وأجواء الحرب والقتال تفرض لغة معينة للتعبئة والتحريض، بينما تقتضي الظروف الطبيعية لغة أخرى.

ولكلّ مجتمع مشاكله النابعة من طبيعة أوضاعه وواقعة، كما لكلّ عصر قضاياه الناتجة من مستوى تطور الحياة فيه. ولا يصح أن يتجاهل الخطاب الديني تلك المشاكل والقضايا، أو أن يعالج مشكلة لا وجود لها في ذلك العصر أو المجتمع.

صحيح أن هناك قدرًا مشتركًا من القضايا والحاجات الفكرية والسلوكية بين المجتمعات، لكن هناك تمايزًا أيضًا، يفرضه اختلاف الظروف والأوضاع. وحتى في القضايا المشتركة التي يحتاج كل مجتمع في كل عصر لمعالجتها، كالمسألة العقدية، فإنّ منهجية الطرح وأسلوبه قد تختلف من عصر إلى آخر، ومن مجتمع إلى سواه.

وفي حديث القرآن الكريم عن خطاب الأنبياء والرسل لأممهم وأقوامهم خير شاهد ودليل، فهم جميعًا يدعون إلى توحيد الله تعالى وعبادته، لكن نقطة التركيز، ومحورية الطرح، قد تختلف من نبي لآخر، حسب اختلاف أوضاع الشعوب والمجتمعات.

فنبي الله إبراهيم عليه السلام يركز في خطابه لقومه على وثنيتهم وعبادتهم للأصنام، حسبما تكرر ذلك في موارد عديدة من القرآن الكريم، كقوله تعالى: ﴿**وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ * قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ * قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ * قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ**﴾[١].

أما نبي الله موسى عليه السلام فقد تصدّى من بداية دعوته، وفقًا لما يسجله القرآن الكريم في أكثر من مشهد، لمواجهة استبداد فرعون وطغيانه. كقوله تعالى: ﴿**هَلْ**

---

(١) سورة الشعراء، الآيات: ٦٩-٧٤.

أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى * إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى * اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾[(١)].

ورغم وجود الأصنام والأوثان في عصر نبي الله موسى ﵇ كما يشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿**وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَآئِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْاْ عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُواْ يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ**﴾[(٢)] إلا أنّ اهتمام الدعوة كان منصبًا على مواجهة فرعون واستبداده.

بينما نجد في رسالة نبي الله لوط ﵇ اهتمامًا أساسيًا بمقاومة الشذوذ الجنسي، والفساد الأخلاقي، باعتباره انحرافًا سائدًا في المجتمع آنذاك. يقول تعالى: ﴿**وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّن الْعَالَمِينَ * إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاء بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ**﴾[(٣)].

وفي مواجهة الفساد والظلم الاقتصادي الشائع لدى قوم مدين ركزت دعوة نبي الله شعيب ﵇ على العدالة الاقتصادية ﴿**وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ الله مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا**﴾[(٤)].

إنّ هذا التنوع في محاور التركيز والاهتمام في دعوات الأنبياء ﵈ لا تفسير له إلا اختلاف الظروف الاجتماعية التي انبثقت رسالاتهم في محيطها، واستوجبت أن يتصدى كلّ نبي للقضية الأهم، والمشكلة الأبرز في عصره ومجتمعه.

(١) سورة النازعات، الآيات:.١٥-١٧.

(٢) سورة الأعراف، الآية:.١٣٨.

(٣) سورة الأعراف، الآيتان: ٨٠-٨١.

(٤) سورة الأعراف، الآية: ٨٥.

بل قد يتنوع الخطاب من قبل النبي الواحد عند اختلاف الظروف التي يعاصرها، فنبي الله موسى عليه السلام كان تركيز دعوته في بدايتها على مواجهة استبداد فرعون وطغيانه، لكنه بعد هلاك فرعون، وخلاص بني إسرائيل من ظلمه وسطوته، اتجه خطابه الرسالي إلى معالجة الثغرات ونقاط الضعف، في بنية المجتمع الإسرائيلي.

ونجد ذلك أيضًا في خطاب الرسالة الإسلامية، حيث تنقسم سور القرآن وآياته إلى قسمين: مكي ومدني. والملحوظ أنّ هناك تفاوتًا وتمايزًا بين ما هو مكي وما هو مدني؛ لجهة نوع القضايا المطروحة، وأسلوب الخطاب.

وقد اجتهد العلماء في بحث جهات التمايز، بين المكي والمدني، ووضع ضوابط وقواعد تنتظمها. يقول الزركشي: «إنّ كلّ سورة فيها ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ**﴾ وليس فيها ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ**﴾ فهي مكية. وفي الحج اختلاف. وكلّ سورة فيها ﴿**كَلَّا**﴾ فهي مكية. وكلّ سورة أولها حروف المعجم فهي مكية. إلا البقرة وآل عمران. وفي الرعد خلاف. وكلّ سورة فيها قصة آدم وإبليس فهي مكية سوى البقرة. وكلّ سورة فيها ذكر المنافقين فمدنية سوى العنكبوت.

وقال هشام ـ الكلبي ـ عن أبيه: كلّ سورة ذكرت فيها الحدود والفرائض فهي مدنية. وكلّ ما كان فيه ذكر القرون الماضية فهي مكية»(1).

ويؤكد الشيخ عبد الرحمن حبنكة الميداني على مراعاة النص القرآني للبيئة البشرية التي كان يتنزل فيها، يقول: «ونلاحظ أنّ أسلوب الآيات القرآنية في بيئة العهد المدني قد اختلف عن أسلوبها في بيئة العهد المكي، فقد صارت البيانات الدينية

---

(١) محمد بن عبد الله الزركشي. البرهان في علوم القرآن، ج١، طبعة ١٩٨٨م، (بيروت: دار الجيل)، ص١٨٨.

تجمع في آيات طوال، وسور طوال، وصار فيها لجوء إلى التفصيل لما كان في العهد المكي مجملًا، وإلى بيان الجزئيات التي كان يطوى الكثير منها في أسلوب العهد المكي. وصار أسلوب العهد المدني يراعي طرائق تفكير البيئة المدنية التي فيها ثلاث قبائل من أهل الكتاب اليهود... وباستطاعة متدبر كتاب الله تمشيًا مع مراحل التنزيل أن يكتشف من صور التلاؤم بين النص القرآني والبيئة التي نزل فيها، البشرية، والزمانية، والمكانية، والحالات النفسية، والفكرية، الفردية والاجتماعية، ما لا يمكن استيفاؤه بنظرات عامات، وعناصر محددات مفصلات»(١).

تأسيسًا على ما سبق، فإنّ على الدعاة الإسلاميين أن يأخذوا أوضاع عصرهم بعين الاعتبار، فيلاحقون تطوراته العلمية، وتياراته الفكرية، ومشاكله الاجتماعية، ليكونوا أقدر على تقديم التوجيه المناسب لأبناء هذا العصر، والمؤثر فيهم.

من ناحية أخرى، فإنه على الرغم من حالة التواصل والانفتاح العالمي بين المجتمعات البشرية، إلّا أنه قد تكون لبعض البيئات والمجتمعات بعض الخصوصيات المحلّية، في قضاياها، وعاداتها، وفي مشاكلها، وتطلعاتها، فتحتاج إلى خطاب يلامس واقعها بشكل مباشر، ويقدم المعالجات والبرامج لما تعيشه من آلام وآمال.

ومما تعانيه بعض مجتمعاتنا أنه لا يتوفر لها دعاة مفكرون معايشون لأوضاعها، قادرون على تشخيص حاجاتها الفكرية والثقافية، لينتجوا لها الخطاب والتوجيه المناسب، الذي يمكّن تلك المجتمعات من مواجهة التحديات القائمة أمامها، وشقّ طريق التقدم والنجاح.

---

(١) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني. قواعد التدبر الأمثل، الطبعة الثانية ١٩٨٩م، (دمشق: دار القلم)، ص٥٦-٥٧.

صحيح أنّ وجود التوجيه الديني العام، بما يشتمل عليه من مواعظ وتذكير، وتعليم للأحكام الفقهية، أمر مفيد، لكن ذلك لا يملأ فراغ الحاجة إلى طروحات فكرية تجيب على التحديات التي يواجهها المجتمع في واقعه السياسي والثقافي والاجتماعي. وإلى برامج وخطط عمل تساعده على تجاوز نقاط ضعفه، وتنمّي فيه عناصر القوة والارتقاء.

وقد يملأ هذا الفراغ بالاستفادة مما هو مطروح في ساحة مجتمعات أخرى، من أفكار وبرامج، دون ملاحظة للخصوصيات المحلّية، مما يسبب نوعًا من الإرباك في بعض الأحيان.

فربّ فكرة تكون مناسبة جدًّا لوضع مجتمع، لكنها لا تتلاءم مع واقع مجتمع آخر، أو يكون ذلك المجتمع أحوج إلى سواها، كما أنّ بعض البرامج والمناهج قد تصلح لظرف دون آخر، ولبيئة دون أخرى.

بالطبع نقصد بذلك ما ينبثق من خصوصية معينة، أو يتأثر باختلاف الأوضاع، أما الأفكار العامة، والبرامج العامة، التي تتجاوز الخصوصيات، فهي خارج سياق هذه الملاحظة.

الخطاب الديني والتحديات الداخلية

كان التحدِّي الأكبر أمام الخطاب الإسلامي في حقبٍ ماضية هو مواجهة التيارات المناوئة للإسلام.

ففي بدايات القرن التاسع الميلادي أدرك دعاة الإسلام خطر حملات التبشير التنصيري التي واكبت الاحتلال الأوروبي للبلاد الإسلامية، وكان إلى جانبها نشاط استشراقي مكثّف يهدف إلى تشكيك المسلمين في دينهم، وإثارة الشبهات حول القرآن الكريم، وسيرة النبي ﷺ، والمفاهيم والتشريعات الإسلامية، طفحت به كتب كثير من المستشرقين ودراساتهم.

فانبرى المخلصون الواعون من علماء الأمة بألسنتهم وأقلامهم وأرواحهم لردّ هذه الهجمات العاتية، وبذلوا قصارى جهدهم للوقوف أمام تلك الموجات العارمة، رغم محدودية إمكاناتهم قياسًا بقدرات الغزاة الذين يستندون إلى ميزانيات ضخمة، وهيمنة عسكرية سياسية، ومراكز أبحاث وتخطيط.

وفي العقود الأولى من القرن العشرين الميلادي، كانت هناك معركة أخرى تنتظر دعاة الإسلام، هي أشدّ شراسة من حملات التنصير وشبهات الاستشراق، وهي مواجهة المدّ الشيوعي والتيارات العلمانية المناوئة للدين. ذلك أنّ معظم التيارات العلمانية التي ظهرت في البلاد الإسلامية، أخذت منحى المحاربة والمناوأة للدين، بخلاف معظم تيارات العلمانية في الغرب التي التزمت الحياد تجاه الدين.

فقد استثمرت هذه التيارات المناوئة أرضية السخط والرفض للواقع السيئ المتخلف لدى جماهير الأمة، وتبنّت شعارات الثورة والنهوض، داعية إلى التنكر للدين والتخلص منه؛ لأنه يتحمل مسؤولية تخلف الأمة وانحطاطها. وتمكنت هذه التيارات من استقطاب شرائح من أبناء الأمة، ووصلت إلى مواقع السلطة والحكم في عدد من البلدان العربية والإسلامية، عبر الانقلابات العسكرية، والتنظيمات الحزبية.

فكانت المعركة عنيفة قاسية في بعديها الفكري والسياسي، حيث عانى دعاة الإسلام من قمع الأنظمة التي انبثقت من هذه التيارات المناوئة.

وما كاد ينتهي القرن العشرون حتى انحسر مدّ تلك التيارات، وظهرت طلائع الصحوة الإسلامية، وارتفعت رايات الإسلام في كلّ مكان، إذ استعادت جماهير الأمة ثقتها بدينها، بعد أن وجدت تلك التيارات ﴿**كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ الله عِنْدَهُ**﴾[1]، وهكذا بدأ عصر الإسلام من جديد.

ومع أنّ هناك تحدّياتٍ خارجية لا تزال قائمة أمام الخطاب الإسلامي، وفي

---

(١) سورة النور، الآية: ٣٩.

طليعتها الحرب الإعلامية الثقافية الطاحنة على الإسلام، بوصفه دين إرهاب وعنف، التي تجاوزت كلّ أعراف وتقاليد العلاقات بين الأديان والحضارات والأمم، كما تمثل ذلك في الرسوم الكاريكاتورية المسيئة للنبي محمد ﷺ، التي نشرتها صحيفة دنماركية ثم أعادت نشرها هذا العام عدد من الصحف في الدول الأوروبية، في تحدٍّ سافر لمشاعر المسلمين، وإساءة صارخة لدينهم وهويتهم.

لكن مثل هذه التحديات الخارجية ليست على درجة كبيرة من الخطورة تستلزم وضعها على رأس التحديات وأولويات المهام أمام الخطاب الإسلامي.

إنني أعتقد أنّ الخطاب الإسلامي يواجه الآن تحدّياتٍ داخلية هي الأهم والأخطر على مستقبل الإسلام والأمة. فلا بدّ من الاستجابة لها والارتقاء إلى مستوى مواجهتها.

ولعلّ أبرز وجوه هذه التحدّيات ما يلي:

أولًا: إنتاج ثقافة التنمية والبناء

فقد برع الخطاب الإسلامي في تعبئة جماهير الأمة ضد الأعداء، وضد واقع الفساد والانحراف، وتلك مهمة هدم وتقويض.

ولكن ما هو البديل الذي يجب أن تتجه الأمة لبنائه على الصعيد السياسي والاقتصادي والاجتماعي، وبناء المعرفة وتنمية الأخلاق؟ وكيف يقود الإسلام معركة التنمية والبناء؟

هذا ما يحتاج إلى إجابة معمقة تتضمن برامج عمل، وآليات تنفيذ، وثقافة حركة وإدارة.

ثانيًا: العلاقة الإيجابية مع الآخر

المصالح في عالم اليوم متشابكة، والصراع والنزاع ليس هدفًا ولا إستراتيجية دائمة، وإنما هو ضرورة بمقدار مواجهة العدوان. كما أنّ الإسلام رسالة خير ورحمة للبشرية جمعاء.

من هذا المنطلق لا بدّ من إنتاج خطاب يساعد على الانفتاح والحوار مع الآخر، ولا بدّ من نشر ثقافة دافعة لصنع العلاقات الإيجابية مع الغير، ولتجاوز آثار مراحل الصراع والنزاع.

صحيح أنّ هناك اعتداءات لا تزال قائمة ضد الإسلام والأمة، لكن المطلوب حصر المواجهة والصراع مع الجهات المباشرة للعدوان دون استعداء للعالم كله، وتعميم الصراع على مستوى الأديان والحضارات.

والأشدّ إلحاحًا حاجة الأمة إلى ثقافة العلاقة الإيجابية مع الآخر الداخلي، حيث لا نزال نعيش آثار الصراعات القديمة التي حصلت بين الأسلاف في القرون الأولى لتاريخ الأمة، والتي تتفجر اليوم على شكل فتن ونزاعات طائفية. كما لا يزال التنوع القومي والقبلي عائقًا أمام الوحدة الوطنية، والاستقرار السياسي، في عدد من البلدان العربية والإسلامية.

ثالثًا: ترشيد التوجهات والممارسات الدينية

فالإقبال على الدين، وارتفاع المعنويات في أوساط المتدينين، قد يدفع باتجاه الغلو والمبالغة في التوجهات والممارسات الدينية، خاصة وأنّ في تراث الأمة بمختلف مذاهبها ما يغذّي مثل هذه الاتجاهات.

كما أنّ بعض القوى الدينية التقليدية التي لا تمتلك مشاريع للتنمية والنهوض، قد تسعى لدغدغة مشاعر العامة، وعواطفهم الدينية، لتعزيز نفوذها ومواقعها، في مقابل صعود قوى الإصلاح والتطوير.

وليس مستبعدًا أن تدخل على الخط بعض الجهات الخارجية، أو بعض القوى المصلحية في الداخل لتشجيع اتجاهات المبالغة والغلو في الأوساط الدينية.

إنّ خطر توجهات الغلوّ كبير على مستقبل الإسلام والأمة، ولذلك حذّر اللهّ تعالى الأمم السابقة من الغلوّ في الدين، يقول تعالى: ﴿**يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ**﴾[1].

وتتمثل أهم مظاهر خطر الغلوّ في النقاط التالية:

أ. تحريف المفاهيم، وإفراغ الأحكام الشرعية من مضامينها، والابتعاد عن مقاصد الدين وأهدافه، وإشغال الأمة بحالة طقوسية فارغة، تستنزف الجهود، وتصنع حالة من الإشباع الكاذب، والشعور الزائف بأداء الواجب نحو الدين.

ب. الاستغراق في الجوانب الغيبية على حساب العقل ومراعاة السنن الإلهية للطبيعة والحياة، مما عزَّز حالة التواكل والكسل، وعدم البحث الموضوعي والمعالجة الواقعية لمشكلات الحياة، وفتح المجال أمام أسواق الشعوذة والدجل، التي تدّعي القدرة على تقديم مختلف العلاجات للأمراض الجسمية، والمشكلات النفسية، والقضايا الاجتماعية.

ج. تشجيع التطرف والتشدّد تجاه الآخر الخارجي والداخلي، انطلاقًا من تفاصيل الخلافات العقدية والتاريخية، وإغفال مساحات الالتقاء والاشتراك، لقد

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٧١.

أصبح عندنا خطباء متمرسون في إذكاء الخلافات الطائفية، ومحترفون لإثارة الكراهية والبغضاء بين أبناء الأمة، وقد منحتهم القنوات الفضائية أفضل الفرص لرفع أصواتهم وبثّ سمومهم في مختلف الأرجاء.

د. ممارسة الإرهاب الفكري تجاه أيِّ رأي مخالف واتهامه بالمروق والابتداع، مما يوقف حركة الاجتهاد، ومسيرة التطوير والتجديد.

إنّ هذه التحديات الداخلية توجب على العلماء والدعاة المدركين لها أن يوجهوا خطابهم واهتمامهم نحو مواجهتها، وتبصير جماهير الأمة بما يخدم مصلحتها، ويصون رسالتها الإسلامية العظيمة عن عبث الغالين والمتزمتين.

ولا شك أنها مهمة شاقة تكتنفها صعوبات بالغة؛ لأنّ دعاة التشدّد والغلوّ يستثيرون عواطف ومشاعر العامة الدينية، ويستندون إلى آراء وتبريرات لها جذورها في التراث المذهبي لمختلف الطوائف والمذاهب، ويظهرون أنفسهم حماة للعقيدة وحراسًا لشعائرها، ولا يتورعون عن التشكيك في دين من يختلف معهم ولو في أدنى التفاصيل.

الدعوة على بصيرة

لقد تحدّث النبي ﷺ بأمر الله تعالى له، عن أهمّ سمة لمنهجه في الدعوة إلى الله، وهي امتلاك البصيرة، يقول تعالى: ﴿**قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللّه عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللّه وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾[1].

والبصيرة من البصر والإبصار، فكما يحتاج الإنسان إلى حاسة البصر ليرى الأشياء المادية في هذه الحياة، وليتمكن من السير في طرقها متلافيًا الضياع والوقوع

(١) سورة يوسف، الآية:.١٠٨.

في الحفر والمزالق، كذلك يحتاج إلى المعرفة والوعي لتقويم الآراء والأفكار، والتمييز بين مسالك الخير ومهاوي الشر والفساد. وتلك هي البصيرة.

وكون الداعي على بصيرة في دعوته يعني أمرين:

الأول:

اطمئنانه للفكرة ووضوحها عنده، حيث لا يصلح للدّاعي أن يطرح فكرة لم يجتهد في بحثها، ولم يتأكد من صحتها، ولا ينبغي له أن يجترّ في خطاباته طرح ما هو سائد ومتناقل دون تحقيق وتمحيص.

ومن المؤسف جدًّا أن تجد بعض العلماء والدعاة ينقلون للناس روايات تاريخية، وآراء عقدية، ومسائل ذات تأثير في أذهان الناس وسلوكهم، دون أن يكلفوا أنفسهم عناء التأكد من صحة تلك النقولات، اتكالًا على ما سمعوه من خطباء آخرين، أو أخذًا من مصادر غير معتمدة، أو استجابة لرغبة المستمعين.

إنّ وسائل البحث وأدوات المعرفة أصبحت متوفرة ومبذولة، فلا عذر للمقصرين والمتقاعسين.

الآخر:

معرفة الواقع الخارجي الذي تلامسه الفكرة المطروحة، فليست كلّ فكرة صحيحة صالحة للعرض في كلّ زمان ومكان، ولعلّ المقصود بالحكمة في الدعوة في نصّ الآية الكريمة: ﴿**ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ**﴾[1] هو اختيار القول المناسب للموقع المناسب.

---

(١) سورة النحل، الآية: ١٢٥.

من هنا يحتاج الدعاة في كلّ مجتمع إلى تقويم ظروف مجتمعهم، ودراسة أوضاع البيئة التي يتحركون فيها، لينطلق خطابهم الديني من خطة مدروسة، وليركزوا على الأولويات.

وقد تحدّث العلامة الشيخ عبدالله العَلَمي الغزّي الدمشقي، أستاذ دروس التفسير في الجامع الأموي بدمشق (المتوفي سنة ١٣٥٥هـ ـ ١٩٣٦م) حول هذه الآية الكريمة: ﴿**قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّه عَلَى بَصِيرَةٍ**﴾[(١)] في كتابه القيم (مؤتمر تفسير سورة يوسف) فقال تحت عنوان (أكثر دعاة أهل اليوم هم على غير بصيرة):

«النبي عليه الصلاة والسلام، كان يدعو إلى الله على بصيرة، وهكذا خلفاؤه وعلماء السلف والأئمة المجتهدون وسائر العلماء الصالحين، ولكن من المؤسف، أنّ أكثر دعاة أهل اليوم، هم على غير بصيرة؛ لأنهم مزجوا الدخائل بعقائد الدين، وأدخلوا البدع والأخلاق الرديئة في العوائد الإسلامية، وعلّموا الجهال تعاليم خادعة، لبّست الغيّ بالرشاد، كما علّموهم التأويلات الباطلة، التي شبهت الحق بالباطل، حتى صار الجبر «توحيدًا»، وإنكار الأسباب «إيمانًا»، وترك الأعمال المفيدة «توكلًا»، ومعرفة الحقائق «كفرًا وإلحادًا»، وإيذاء المخالف في المذهب «دينًا»، والجهل بالفنون والتسليم بالخرافات «صلاحًا»، واختبال العقل وسفاهة الرأي «ولاية وعرفانًا»، والذلة والمهانة «تواضعًا»، والخنوع وقبول الضيم «رضًى وتسليمًا»، والتقليد الأعمى لكلّ متقدم «علمًا وإيقانًا»»[(٢)].

هذا ما كتبه الشيخ الجليل قبل ثمانية عقود من الزمن عن دعاة عصره، فهل دعاة اليوم أفضل حالًا من أولئك؟ هذا ما نأمله ونرجوه.

---

(١) سورة يوسف، الآية: ١٠٨ .

(٢) عبدالله العلمي الغزيّ. مؤتمر تفسير سورة يوسف عليه السلام، ج٢، الطبعة الأولى ١٣٨١هـ ـ ١٩٦١م، (دمشق: مطابع دار الفكر(، ص١٤٢٩.

الإصلاح الثقافي ومداراة الجمهور

يبدو أنّ عددًا غير قليل من العلماء والدعاة يجدون أنفسهم مضطرين لمسايرة بعض الأفكار والآراء والممارسات السائدة في الساحة الدينية، رغم عدم قناعتهم بصحتها؛ لأنها لا تنطلق من دليل معتبر، أو لمنافاتها مع الموازين الشرعية ومصالح الأمة.

لكنهم يمتنعون عن إبداء رأيهم نحوها، بل قد يظهرون الموافقة عليها والتأييد لها، خلافًا لقناعاتهم، وما يؤمنون به في قرارة أنفسهم. ويبوحون بذلك للمقرّبين منهم، وفي المجالس الخاصة والمغلقة.

ولهذه الظاهرة أسباب ومبررات، لعلّ من أبرزها ما يلي:

١- مراعاة الجانب السياسي فيما يرتبط بالآراء التي تعارض توجهات السلطة الحاكمة، فيخشى العالم والمبلِّغ طرح الرأي المخالف لتوجهات السّلطة، أو الإنكار على الرأي المتبنى من قبلها، تجنبًا للصدام معها، وما قد ينتجه من أخطار وأضرار.

٢- الحذر من القوى التقليدية التي ترفض أيَّ مراجعة للأفكار العقدية والآراء الفقهية السائدة، وتواجه أيَّ تطوير وتغيير في التقاليد والممارسات الدينية القائمة.

وإذا ما تجرأ عالم على المخالفة والنقد، فإنهم يشهرون أمامه سلاح الفتوى التي تشكك في دينه وتحكم عليه بالابتداع والضلال، لاغتيال شخصيته، وتحجيم دوره، ومحاصرة تأثيره.

٣- الخشية من رد فعل الجمهور، الذي يتمسك في الغالب بموروثاته، وما نشأ عليه من أفكار، وأَلِف من عادات وتقاليد.

وحين يتحدث عالم بما يخالف تلك الأفكار والعائدات السائدة فإنه يغامر بموقعيته في وسط ذلك الجمهور.

خاصة إذا كان الجمهور يعيش تحدّيًا من قبل الآخر الديني، فإنه يتشبث بكلّ خصوصياته بسبب القلق على هويته، وينظر إلى أيّ محاولة تغيير وتطوير وكأنها خطوة على طريق التنازل للآخر والذوبان فيه.

لمثل هذه العوامل والأسباب يلوذ هؤلاء العلماء والدعاة بالصمت، إيثارًا للسلامة، وتجنبًا للمشاكل، وحفاظًا على الموقعية الاجتماعية.

وقد يبرّر البعض منهم بأن المضاعفات التي قد تنتجها محاولة التصحيح أضرّ من سلبيات الواقع القائم، فهي قد تؤدي إلى الاختلاف وتمزيق وحدة المجتمع، وقد تفتح الباب أمام المناوئين للنيل من الثوابت والأصول.

ثم إنّ عالم الدين إذا فقد ثقة الجمهور فسينتهي دوره وينعدم تأثيره.

كما أنهم قد يشككون في إمكانية الإصلاح والتغيير، وفي القدرة على إنجاز

اختراق إصلاحي لواقع الساحة، ويستشهدون بمعاناة بعض العلماء المصلحين وكيف دفعوا الثمن الباهظ من سمعتهم ومكانتهم، وبفشل بعض المحاولات الإصلاحية في المجالين الفكري والاجتماعي.

ومع وجاهة بعض هذه المبررات، إلّا أنَّ هناك أبعادًا يجب أخذها بعين الاعتبار، عند معالجة هذا الموقف.

أولًا:

المسؤولية الشرعية التي تحمّل العلماء والدعاة وظيفة تبيين الأحكام والمفاهيم الصحيحة للدين، حيث تحذّر عدة آيات من القرآن الكريم، وعدد كبير من الأحاديث والنصوص الشريفة، من كتمان العلم، وسكوت العلماء عن مظاهر الانحراف والفساد، وأنّ عليهم أن ينهضوا بواجب التبليغ والإرشاد والإصلاح، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وألّا يتقاعسوا عن ذلك الدور خشية من الناس، أو حفاظًا على المصالح المادية والمكاسب الاجتماعية.

ويبدو أنّ ما يعترض هذا الدور من مصاعب وعوائق قد تقعد بالعالم عن القيام به، هو ما أوجب شدة التحذير الإلهي، وعنف الوعيد والتهديد للمتقاعسين عنه.

يقول تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ الله مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلا يُكَلِّمُهُمُ الله يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾[١].

ويقول تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ**

(١) سورة البقرة، الآية: ١٧٤.

لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ الله وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾[١].

وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أيّما رجل أتاه الله علمًا فكتمه وهو يعلمه، لقي الله يوم القيامة ملجمًا بلجام من نار»[٢].

وعنه ﷺ: «إذا ظهرت البدع في أمتي فليظهر العالم علمه فمن لم يفعل فعليه لعنةالله»[٣].

إن إحجام العلماء عن تبيين المفاهيم الصحيحة، وسكوتهم على الأخطاء السائدة في الأفكار والممارسات لدى الجمهور، يكرّس الواقع السيئ الذي تعيشه الأمة، ويغري الناس بالجهل والانحراف، ويعطي عن الإسلام نظرة سلبية أمام الرأي العام الداخلي والخارجي. وهذا ما أنتج تشويه سمعة الإسلام في العالم، وحدوث ردّات فعل تجاه الدين لدى بعض الأوساط من أبناء الأمة.

ثانيًا:

إدراك طبيعة التدافع الاجتماعي السارية في مختلف جوانب حياة الناس ينبغي أن تحفّز المصلحين على الثبات والاستقامة، ففي كل جانب هناك صراع قوى وإرادات، لكن من يتهيّب المواجهة، أو يسارع إلى الفرار والانسحاب، فإنه سيعطي الطرف الآخر فرصة الغلبة والتقدم بسهولة ويسر.

إنّ القوى المهيمنة على ساحة الجمهور، تستفيد كثيرًا من تهيّب قوى الإصلاح والتجديد، ومن سرعة انسحاب بعض جهاتها.

(١) سورة البقرة، الآية: ١٥٩.

(٢) بحار الأنوار. ج٢ ص٦٨.

(٣) وسائل الشيعة. ج١٦، ص٢٦٩، حديث ٢١٥٣٨.

وإنه يمكن القول بثقة: إنّ حملة الأفكار الإصلاحية، ليسوا قلة في أوساط العلماء والدعاة، لكن حالة التكتم وعدم الجهر بالرأي، لا يمكّنهم من اكتشاف بعضهم بعضًا، فيشعر كلّ مؤمن بالتغيير والإصلاح وكأنه وحيد تستفرد به الجهات الأخرى.

كما أنّ الرعب من القوى المهيمنة يمنع معظم الإصلاحيين من التضامن مع بعضهم بعضًا، فإذا اتجهت سهام التجريح والطعن صوب أحدهم، فإنّ الآخرين ممن يحملون الأفكار والتوجهات ذاتها، يلوذون بالصمت، وينأون بأنفسهم، ويظهرون عدم علاقتهم بالمصلح المستهدف، حتى لا يصيبهم شيء من سهام المعركة، أو شرر نارها.

إنّ الحراك الفكري واختلاف الرأي حالة صحية، وليست خطأً أو ذنبًا يُتورع عنه، ويُتسامى عليه، كما قد يتصور البعض، والآثار السلبية التي قد تنشأ من معارك الصراع الفكري واختلاف الرأي، هي إفراز لسلوك خطأ في التعامل مع الرأي الآخر، ناتج من روح الوصاية والاستبداد.

وعلى المشتغلين بالعلم والفكر، أن يعملوا لتعزيز حرية البحث العلمي، والتعبير عن الرأي، ولن يتحقق ذلك إلّا بممارسة هذا الحق والدفاع عنه.

ثالثًا:

هناك تطور واضح في مستوى الثقافة والوعي عند أبناء الأمة، فقد اتسعت رقعة التعليم، وانتشرت وسائل المعرفة، وتفتحت عقول الناس، وأصبحوا يواجهون تحديات الانفتاح على العالم، وأصبحت بعض الأفكار والممارسات السائدة تشكل عبئًا وعائقًا أمام مسيرة تفاعلهم مع تطورات الحياة، مما صيّر التجديد والإصلاح

مطلبًا يدرك أهميته قطاع واسع من أبناء الأمة.

وهذا ما يجب أن يدركه الإصلاحيون، وأن يراهنوا على تقدم مستوى الوعي في المجتمع وتنامي الشعور بالحاجة إلى التغيير والتطوير في الساحة الدينية.

لكن أيّ تطوير وتغيير ينال بعض ما ألفه الناس وتوارثوه من أفكار وممارسات، يحتاج إلى قدر من الاستعداد وللتضحية وبذل الثمن، وإلى مستوى من الثبات والصمود، مع التزام الحكمة وترشيد أساليب المعالجة والطرح.

بقي أن نشير إلى أنّ ما نتحدث عنه من تطوير وإصلاح إنما يتجه صوب المتغيرات، وموارد البحث والنقاش في المعارف الدينية، وصوب التقاليد والممارسات، وكذلك ما يتعلق بالوسائل والأساليب، أما الثوابت الدينية، وما عليه إجماع الأمة، أو إجماع الطائفة، فتلك خطوط حمراء لا يسمح الالتزام الديني بتجاوزها.

الفصل الثالث

علماء الدين والشأن الاجتماعي

انكماش الدور الاجتماعي، لماذا؟

يعيش كثير من علماء الدين في مجتمعاتنا حالة من العزلة والانكفاء، فلا يُطلّون على المجتمع إلّا من نوافذ ضيقة محدودة، تتمثل في التصدي للأدوار الدينية التقليدية، كصلاة الجماعة، وإجراء العقود، ومراسيم الوفيات، والإجابة عن الاستفتاءات الفقهية. ويعزفون عن أيّ تفاعل مع قضايا المجتمع المختلفة.

بالطبع هناك البعض من علماء الدين لا ينسحب عليهم هذا الوصف، غير أنّ حديثنا يخصّ السَّواد الأعظم منهم، أو على أقلّ تقدير، يخصّ من ينسحب عليهم ذلك.

الدوافع والأسباب

قد ينكفئ إنسان على نفسه وينزوي عن مجتمعه؛ لأنه لا يحظى بالثقة والقبول لدى الناس، أو لأنه لا يرى أمامه فرصًا واسعة للتعاطي مع الآخرين.

لكن هذا لا يرد غالبًا على عالم الدين، الذي يتعامل معه الناس بثقة واحترام، ويخطبون ودّه ورضاه، ويتمنون مباركته لأيّ شأن من شؤون حياتهم.

إنّ أمام رجل الدين في مجتمعاتنا فرصًا للتحرك والتفاعل، لا تتاح لأيّ شخص سواه.

فلماذا يختار هؤلاء العلماء لأنفسهم حياة الانغلاق والعزلة؟ ويحجِّمون أنفسهم ضمن دور هامشي محدود في المجتمع؟

يبدو أنّ هناك عوامل عديدة فكرية ونفسية واجتماعية تكمن وراء هذه الحالة.

فمن الناحية الفكرية، يتبنّى هؤلاء العلماء، مفاهيم وتصورات، تدفعهم إلى الابتعاد عن قضايا الناس، والتداخل معهم.

فمفهوم استحباب العزلة، والابتعاد عن مخالطة الناس، يعتبر من المسلمات عند هؤلاء، وقد خصصت لبحثه فصول وأبواب في أغلب مصادر التراث وكتب الأخلاق القديمة.

حيث وردت بعض النصوص والروايات، صريحة في التشجيع على الابتعاد عن الناس، وإن كانت تواجهها روايات ونصوص، تدفع باتجاه مخالطة الناس، والتفاعل معهم، لكن العديد من علماء السلف يرجح الكفة الأولى، أي العزلة والانكفاء.

وهناك العديد من الكتب المختصّة لبحث موضوع العزلة عن الناس، ورجحانها على المخالطة والتداخل معهم نذكر منها بعض النماذج:

١. كتاب «العزلة والانفراد» للحافظ الإمام أبي بكر عبد الله بن محمد بن عبيد

البغدادي الشهير بابن أبي الدنيا (توفي ٢٨١هـ). وقد طبع أخيرًا محققًا من قبل دار الوطن في الرياض سنة ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.

٢. كتاب «التفرد والعزلة» لأبي بكر محمد بن الحسين الآجري (توفي ٣٦٠هـ).

٣. كتاب «العزلة» لأبي سليمان حمد بن إبراهيم الخطّابي البستي (توفي ٣٨٨هـ) وهو مطبوع عدة طبعات.

٤. كتاب «الرسالة المغنية في السكوت ولزوم البيوت» للحسن بن أحمد بن عبد الله البغدادي، وقد طبع محققًا من قبل دار العاصمة - الرياض.

٥. كتاب «عزّ العزلة» لعبد الكريم بن محمد السمعاني (توفي ٥٦٢هـ).

٦. كتاب «العزلة» لأبي الفرج عبد الرحمن بن علي الجوزي (توفي ٥٩٧هـ).

٧. كتاب «الأمر بالعزلة آخر الزمان» لمحمد بن إبراهيم الوزير (توفي ٨٤٠هـ)، نشر عن دار ابن القيم - الدمام.

وقد أفرد الإمام أبو حامد الغزالي في كتابه «إحياء علوم الدين» (٤٥٠هـ-٥٠٥هـ) كتابًا خاصًّا بعنوان «كتاب آداب العزلة» ذكر فيه اختلاف الآراء حولها، لكن البحث في مجمله ترغيب في العزلة، وبإلقاء نظرة فاحصة على ما ورد فيه من النصوص والقصص والشواهد تظهر لنا جذور وخلفية هذه الحالة..

ولنقتطع منه بعض الفقرات كنماذج.

قال ابن سيرين: العزلة عبادة.

وقيل: اتخذ الله صاحبًا فودع الناس جانبًا.

وقال أبو الربيع الزاهد لداود الطائي: عظني، قال: صم عن الدنيا، واجعل

فطرك الآخرة، وفرَّ من الناس فرارك من الأسد.

وقال وهيب ابن الورد: بلغنا أن الحكمة عشرة أجزاء، تسعة منها في الصمت والعاشر في عزلة الناس.

وقال سفيان الثوري: هذا وقت السكوت وملازمة البيوت.

وقال إبراهيم النخعي لرجل: تفقّه ثم اعتزل.

وقيل: كان مالك بن أنس يشهد الجنائز، ويعود المرضى، ويعطي الأخوان حقوقهم، فترك ذلك واحدًا واحدًا، حتى تركها كلّها.

وقال الفضيل: إني لأجد للرجل عندي يدًا: إذا لقيني أن لا يسلّم عليَّ، وإذا مرضت أن لا يعودني.

وقال أبو سليمان الداراني: بينما الربيع بن خيثم جالس على باب داره إذ جاءه حجر فصكّ جبهته فشجه، فجعل يمسح الدم ويقول: لقد وعظت يا ربيع، فقام ودخل داره، فما جلس بعد ذلك على باب داره حتى أخرجت جنازته.

وقال بشر بن عبد الله: أَقِلّ من معرفة الناس فإنك لا تدري ما يكون يوم القيامة، فإن تكن فضيحة كان من يعرفك قليلًا.

وقال الفضيل: من سخافة عقل الرجل كثرة معارفه.

قال ابن عباس رضي الله عنه: أفضل المجالس مجلس في قعر بيتك لا تَرى ولا تُرى[1].

ثم يذكر -الغزالي- فوائد العزلة وغوائلها، مع ترجيحه للعزلة، حينما يقول في

---

(١) إحياء علوم الدين، ج٢، ص ٢٢٢-٢٢٣.

عنوان الباب الثاني: (في فوائد العزلة وغوائلها وكشف الهوية في أفضلها) ويعدد للعزلة ستّ فوائد على نحو التفصيل نكتفي هنا بذكر عناوينها وبداياتها:

(**الفائدة الأولى**: التفرغ للعبادة والفكر، والاستئناس بمناجاة الله تعالى عن مناجاة الخلق، والاشتغال باستكشاف أسرار الله تعالى في أمر الدنيا والآخرة، وملكوت السماوات والأرض، فإنّ ذلك يستدعي فراغًا ولا فراغ مع المخالطة، فالعزلة وسيلة إليه) (١).

(**الفائدة الثانية**: التخلص بالعزلة عن المعاصي التي يتعرض الإنسان لها غالبًا بالمخالطة ويسلم منها في الخلوة) (٢).

وضمن هذه الفائدة يشير إلى موقع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأنّ العزلة راجحة على التصدي للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قائلًا: (وأما الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فهو من أصول الدين، وهو واجب، ومن خالط الناس فلا يخلو من مشاهدة المنكرات، فإن سكت عصى الله به، وإن أنكر تعرض لأنواع من الضرر، إذ ربما يجره طلب الخلاص عنها إلى معاصي هي أكبر مما نهى عنه ابتداء، وفي العزلة خلاص من هذا، فإنّ الأمر في إهماله شديد والقيام به شاق) (٣).

(**الفائدة الثالثة**: الخلاص من الفتن والخصومات، وصيانة الدين والنفس عن الخوض فيها، والتعرض لأخطارها، وقلّ ما تخلو البلاد عن تعصبات وفتن وخصومات، فالمعتزل عنهم في سلامة منها) (٤).

---

(١) المصدر نفسه. ص ٢٢٦.

(٢) المصدر نفسه. ص ٢٢٨.

(٣) المصدر نفسه. ص ٢٢٨.

(٤) المصدر نفسه. ص ٢٣٢.

(**الفائدة الرابعة**: الخلاص من شرّ الناس، فإنهم يؤذونك مرة بالغيبة، ومرة بسوء الظنّ والتهمة بالاقتراحات والأطماع الكاذبة، التي يعسر الوفاء بها، وتارة بالنميمة أو الكذب، فربما يرون منك من الأعمال أو الأقوال ما لا تبلغ عقولهم كنهه، فيتخذون ذلك ذخيرة عندهم، يدّخرونها لوقت تظهر فرصة للشرّ، فإذا اعتزلتهم استغنيت من التحفّظ عن جميع ذلك) (١).

(**الفائدة الخامسة**: أن ينقطع طمع الناس عنك، وينقطع طمعك عن الناس، فإما انقطاع طمع الناس عنك ففيه فوائد، فإنّ رضا الناس غاية لا تدرك، فاشتغال المرء بإصلاح نفسه أولى، ومن أهون الحقوق وأيسرها حضور الجنازة وعيادة المريض، وحضور الولائم والإملاكات، وفيها تضييع الأوقات، وتعرض للآفات، ثم قد تعوق عن بعضها العوائق، وتستقبل فيها المحاذير) (٢).

(**الفائدة السادسة**: الخلاص من مشاهدة الثقلاء والحمقى، ومقاساة حمقهم وأخلاقهم، فإنّ رؤية الثقيل هي العمى الأصغر) (٣).

وبهذا يتّضح أنّ للعزلة والانغلاق فلسفة وخلفية فكرية، وجذورًا ثقافية، علمًا بأن كتاب «إحياء علوم الدين» يعتبر من الكتب المصدرية الأساس، التي ينتهل منها علماء الدين وخاصة من الطوائف السنية في المجال التربوي والأخلاقي.

والغريب أنّ المحقق المولى محسن الكاشاني (١٠٠٥هـ/ ١٠٩١هـ) الذي جاء بعد خمسة قرون من وفاة الشيخ الغزالي، وقام بتهذيب «إحياء علوم الدين»، بهدف تلافي ثغرات الكتاب، وسمّاه «المحجة البيضاء في تهذيب الأحياء» لكنه حينما يصل

(١) المصدر نفسه. ص ٢٣٣.
(٢) المصدر نفسه. ص ٢٣٥.
(٣) المصدر نفسه. ص ٢٣٥.

إلى كتاب العزلة، فإنه يثبت كلّ نصوصه وأفكاره، بل ويزيد عليها ما يؤيدها ويؤكدها [١].

ويوازي «إحياء علوم الدين» عند أهل السنة كتاب «جامع السعادات» في أوساط علماء الشيعة، الذي يعتبر من أهم المراجع والمصادر الأخلاقية التربوية، لمؤلفه المولى الشيخ محمد مهدي النراقي (١١٢٨هـ/ ١٢٠٩هـ).

وهذا الكتاب على أهمية مواضيعه وبحوثه، إلّا أنه أيضًا يفرد بحثًا حول أهمية العزلة وفضلها، مع أنّ المؤلف سعى إلى أن يكون طرحه متوازنًا، حيث حكم بتخطئة من رجح العزلة أو المخالطة مطلقًا، بل هي قضية نسبية تختلف باختلاف الأشخاص والظروف. وممّا قاله ما يلي:

«إنّ الأفضلية فيهما -العزلة و المخالطة- تختلف بالنظر إلى الأشخاص والأحوال والأزمان والأمكنة» [٢].

إلّا أنه وبمجمل بحثه واستنتاجاته، يرجح حالة العزلة والانزواء فيقول: «وبما ذكر يظهر أنّ الأفضل لمن بلغ مقام الأنس والاستغراق، الخلوة والعزلة، إذ لا ريب في أنّ المخالطة توجب السقوط عن مرتبة الشهود والأنس، ولا يتصور من فوائدها شيء يقاوم ذلك، ولذلك كان المحبّون المستأنسون بالله يعتزلون عن الخلق ويؤثرون الخلوة» [٣].

ويقول أيضًا: «فمن يتيسّر له منزلة بدوام الذكر والأنس بالله، وبدوام الفكر

---

(١) المولى محسن الكاشاني. المحجة البيضاء، ج ٤، الطبعة الثانية، قم ـ إيران، ص٣.

(٢) محمد مهدي النراقي. جامع السعادات، ج٣، الطبعة الرابعة، (بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات)، ص١٩٧.

(٣) المصدر نفسه. ص ١٩٨.

والتحقيق في معرفة الله، فالتجرّد والخلوة أفضل له من كلّ ما يتعلق بالمخالطة، فإنّ غاية العبادات، وثمرة المجاهدات، أن يموت الإنسان محبًّا لله عارفًا بالله، ولا محبّة إلّا بالأنس الحاصل بدوام الذكر، ولا معرفة إلّا بدوام الفكر، وفراغ القلب شرط لكلّ منهما، ولا فراغ مع المخالطة.

فإن قلت: لا منافاة بين المخالطة مع الناس والأنس بالله، ولذا كان الأنبياء مخالطين للناس مع غاية استغراقهم في الشهود والأنس.

قلنا: لا يتسع للجمع بين مخالطة الخلق ظاهرًا والإقبال التام على الله سرًّا إلّا قوة النبوة. فلا ينبغي أن يغتر كلّ ضعيف بنفسه فيطمع في ذلك»[1].

إنّ هذه الثقافة التي ينتهل منها علماء الدين هي المسؤولة بشكل أساس عن توجّه أكثرهم باتجاه العزلة والانزواء، وعزوفهم عن ممارسة دور اجتماعي ظاهر ومؤثّر.

ولسنا الآن بصدد مناقشة هذه الآراء التي تدعو إلى العزلة، لكنّا نكتفي بالإشارة إلى أنها بالشكل المطروح، تتنافى مع مجمل تعاليم الإسلام ونهجه الاجتماعي، الذي يحتوي على مفردات وبرامج كثيرة تدفع الإنسان المؤمن للتفاعل مع مجتمعه، والتصدي لقضاياه، وخدمة شؤونه، وأفضل ردّ على ما ذكروه من سلبيات التداخل مع الناس، ما روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم أفضل من المؤمن الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم»[2].

وأخرج البيهقي عن عسعس: أنّ رسول الله ﷺ فقد رجلًا فسأل عنه، فجاء،

(١) المصدر نفسه. ص ١٩٩.

(٢) كنز العمال. ج١، ص١٤٣، حديث ٦٨٦.

فقال: يا رسول الله، إني أردت أن آتي هذا الجبل فأخلو فيه فأتعبّد، فقال رسول الله ﷺ: «لَصَبْرُ أحدكم ساعةً على ما يكره في بعض مواطن الإسلام، خيرٌ من عبادته خاليًا أربعين سنة»[1].

هذا عن الجذور والخلفية الثقافية لحالة العزلة والانكفاء، أما الأسباب النفسية فتكمن في ضعف الثقة بالنفس، والتهيب من المشاكل، والخوف من الوقوع في الخطأ والفشل، مما يسبب فقدان السمعة الحسنة، لذلك كله يركن العالم إلى زاوية محرابه، وقوقعة دوره المحدود، ليبعد نفسه عن كل المضاعفات والإشكالات التي يتعرض لها من يتصدى لشؤون المجتمع ويتفاعل مع قضاياه.

وعادة ما يشمت هؤلاء الانعزاليون بمن يتصدى اجتماعيًّا من أقرانهم من العلماء، حينما تصيبه مشكلة أو تعترضه عقبة، ويوبخونه بقولهم: لماذا يورّط نفسه؟ ألم يكن من الأفضل له عدم التدخل فيما لا يعنيه؟ وأن يكون كافًّا عافًّا؟

ومشكلة بعض هؤلاء العلماء المنغلقين أنهم لا يسكتون عمّن يخالفهم التوجه والرأي، بل يحاولون إثارة الشكوك والشبهات ضد العلماء النشطين اجتماعيًّا، بدافع فرض توجّههم، أو لنوازع الحسد والخوف من التفاف الناس حول غيرهم، وحتى لا يطالبهم الناس بتحمّل المسؤولية أسوة بالعلماء العاملين.

من ناحية أخرى، فهناك أسباب خارجية تتمثل في خطط الأعداء، من قوى أجنبية، وحكومات منحرفة، وجهات متفرقة، تسعى إلى إبعاد رجال الدين عن ساحة الحياة، ليتاح لهم المجال للسيطرة على شؤون المجتمع. وحضور رجال الدين في واقع المجتمع، والتفاف الناس حولهم، يفوّت الفرصة على هؤلاء الأعداء،

---

(١) جلال الدين السيوطي. الدر المنثور، ج١، (بيروت: دار الفكر)، ص١٦١.

ويفشل مخططاتهم.

منطلقات الدور الاجتماعي:

أولًا: منهجية الإسلام:

جاء الإسلام ليخرج الإنسان من قوقعة ذاته، وليطلق فكره ومشاعره خارج حدود أنانيته، فيعيش هموم الآخرين، ويشاركهم آلامهم، ويتحمّل مسؤوليته تجاههم.

فانفتاح الإنسان على بني جنسه، وتعاطيه معهم، هدف إلهيّ. يقول تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾**[١].

وتعاون الناس فيما بينهم على ما ينفعهم ويصلحهم أمرٌ صريحٌ من قبل الله تعالى: **﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾**[٢].

وقد قرن الله تعالى عبادته وتوحيده بالاهتمام بالآخرين والإحسان إليهم. يقول تعالى: **﴿وَاعْبُدُوا اللهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾**[٣]. وفي الإسلام منظومة متكاملة من التعاليم و البرامج التي تدفع الإنسان للتفاعل مع أبناء مجتمعه، وتربيه

---

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٣.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٢.

(٣) سورة النساء، الآية: ٣٦.

على الاهتمام بالناس وخدمتهم والاندماج معهم.

وفي تراثنا الإسلامي مجموعة ضخمة من النصوص والأحاديث التي توجه الإنسان المسلم لتحمّل مسؤولياته الاجتماعية، والقيام بدور فاعل إيجابي في ساحة المجتمع.. لكن الانعزاليين والمنغلقين يتجاهلون كل تلك النصوص الواضحة الصريحة، ويتشبثون بنصوص محدودة يفسّرونها حسب فهمهم وتوجههم.

ولنستضيء الآن ببعض تلك الأحاديث التوجيهية الرائعة:

عن رسول الله ﷺ: «رأس العقل بعد الإيمان بالله عزّ وجلّ التحبّب إلى الناس»[١].

وعن الإمام محمد الباقر عليه السلام قال: لمّا احتُضر أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام جمع بنيه حسنًا وحسينًا وابن الحنفية والأصاغر من ولده، فوصّاهم وكان في آخر وصيته: «يا بنيّ، عاشروا الناس عشرة إن غبتم حنّوا إليكم، وإن فُقدتم بكوا عليكم، يا بنيّ، إنّ القلوب جنود مجنَّدة تتلاحظ بالمودّة»[٢].

وعن رسول الله ﷺ: «أيّما مسلم خدم قومًا من المسلمين إلّا أعطاه الله مثل عددهم خدّامًا في الجنة»[٣].

وعنه ﷺ: «من أصبح لا يهتمّ بأمور المسلمين فليس بمسلم»[٤].

وقال ﷺ: «الخلق عيال الله فأحبّ الخلق إلى الله من نفع عيال الله وأدخل على

(١) بحار الأنوار. ج٧١، ص ١٥٨.
(٢) الكافي. ج٢، ص ١٩٩.
(٣) المصدر نفسه. ص ٢٠٧.
(٤) المصدر نفسه. ص ١٦٣.

أهل بيت سرورًا»[1].

وإذا كانت هذه منهجية الإسلام، وهذا ما تأمر به تعاليمه السامية، فإنّ أولى الناس بالالتزام بذلك هو رجل الدين، بل يجب أن يكون قدوة وأسوة للناس في هذا المجال.

إنّ رجل الدين لا بدّ له من القيام بدور الوعظ والإرشاد، وتوجيه الناس إلى تعاليم الدين، ولو في موارد الإجابة عن الاستفتاءات والأسئلة، فهل يتجاهل تلك التعاليم التي تدعو إلى خدمة الناس والتفاعل معها؟ وهل يتعمّد الابتعاد عن ذكرها والخوض فيها؟ أم ماذا؟ إنه إنْ تجاهلها كان من القوم ﴿**الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ**﴾[2] أي فرّقوه وجعلوه أعضاء كأعضاء الجزور فآمنوا ببعضه وكفروا ببعضه[3]. وإذا ما تحدث عن الأخلاق الاجتماعية في الإسلام وهو بعيد عن الالتزام بها، فهو مصداق لقوله تعالى: ﴿**أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ**﴾[4].

ثانيًا: فرص الهداية والتأثير:

إنّ رجل الدين يحمل رسالة الإسلام للناس، ووظيفته الأساس هي الهداية والإرشاد، ودعوة الناس إلى الدين وإلى تطبيق أحكامه وتعاليمه.

وكلما تفاعل مع الناس أكثر، كان أقدر على هدايتهم وتوجيههم، حيث يصبح

---

(١) المصدر نفسه. ص ١٦٤.

(٢) سورة الحجر، الآية: ٩١.

(٣) أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي. مجمع البيان في تفسير القرآن، ج١٤، (بيروت: منشورات دار مكتبة الحياة)، ص٤٣.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٤٤.

أكثر معرفة بأحوالهم وخصائصهم، وأقدر على تشخيص الأساليب المؤثرة في نفوسهم، وأعرف بما يحتاجون إليه من توجيه وتهذيب، كما أنّ الجمهور سيكون أسرع استجابةً إليه، وتقبّلًا لإرشاداته، حينما تتمكن مودته ومحبته في قلوبهم، وحينما يرونه مهتمًّا بشؤونهم ومصالحهم وقضاياهم.

إنّ رجل الدين الناجح هو الذي يشارك الناس آلامهم وآمالهم ويتصدى لخدمتهم والإحسان إليهم، يقول الإمام علي عليه السلام: «الإحسان محبّة» [١].

ورائع جدًّا قول رسول الله صلى الله عليه وآله: «زينة العلم الإحسان»[٢]، فبخدمة الناس والإحسان إليهم تظهر قيمة العلم، وتتعزّز مكانة العالم ويزداد احترامه في المجتمع.

وإذا ما كان العالم محتاجًا إلى دعم الناس، وتجاوبهم مع رسالته، وتقبّلهم لبرامجه، فإنه يستطيع تحصيل ذلك عبر التفاعل معهم، والإحسان إليهم، يقول الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: «من كثر إحسانه كثر خدمه وأعوانه»[٣].

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله: «جبلت القلوب على حبّ من أحسن إليها وبغض من أساء إليها»[٤].

ثالثًا: قيادة المجتمع إلى الخير:

حينما يتصدّى علماء الدين لقضايا الناس وإدارة شؤونهم المختلفة، فستكون أزمّة أمور المجتمع بأيديهم، ويصبحون في موقع القيادة التي يجب أن يمارسوها.

---

(١) علي بن محمد الليثي الواسطي. عيون الحكم والمواعظ. ص٣٧.
(٢) بحار الأنوار. ج٧١، ص٤١٨.
(٣) عيون الحكم والمواعظ. ص٤٦٠.
(٤) تحف العقول، ص٣٢.

أما إذا ما انعزلوا عن الناس، وابتعدوا عن ساحة الحياة، فقد يتيح ذلك الفرصة لغير الكفوئين والمخلصين، ليسيطروا على شؤون المجتمع، وليتلاعبوا بمصيره.. أو يعاني الناس من الضياع والمشاكل والأزمات..

إنّ حضور عالم الدين في ساحة المجتمع، ومبادرته لخدمة المصلحة العامة، يجعله في موقع القيادة والتأثير، يقول الإمام عليّ عليه السلام: «وأفضل على من شئت تكن أميره»[1].

والمؤسف جدًّا أنّ بعض علماء الدين ينتقدون بعض المشاريع والمؤسّسات في المجتمع، دون أن يكلّفوا أنفسهم المبادرة لصنع البديل، أو التداخل معها لإصلاح ما يمكن إصلاحه فيها.

فينتقدون برامج الجمعيات الخيرية، أو يعترضون على أوضاع بعض المستشفيات، أو ما يجري في الأندية الرياضية، أو حتى مناهج الدراسة في المدارس الرسمية، لكنّهم لا يتحرّكون لصنع البديل الأفضل، وهو ممكن في غالب الحالات إذا ما توفّر السعي وبذل الجهد.

يقول المرجع الديني السيد محمد الشيرازي:

إنّ الإسلام لم يحرّم شيئًا إلّا لضرر فيه، ثم لم يكتفِ بذلك، حتى وضع له بديلًا يسدّ الحاجة -كاملًا- وهو خالٍ عن الأضرار التي من أجلها حرّم الإسلام ما حرّم، فالسلبية جزء، والإيجابية جزء آخر، وبعض القيادات الإسلامية، اكتفت بالسلبية من دون أن تفتح إلى جانبها الإيجابية، ولذا اتُّهم الإسلام بالجمود، واتُّهم حملته بالرجعية، فمن الضروري على القادة الإسلاميين أن يحلوا المشكلة، بجعل

(١) بحار الأنوار. ج ٧٤، ص٤٢١.

بديل صالح مواكب للزمن بل سابقٍ عليه اتجاه كل محرّم إسلامي.

مثلًا: إذا بيّنوا حرمة السينماءات الداعرة والمباغي والأحواض -برك السباحة- والمدارس المختلطة، والبنوك الربوية، فتحوا سينماءات نظيفة تستهوي الناس لما فيها من الأدب والفنون والألعاب والمناظر المباحة، وسهّلوا أمر زواج العزّاب بما يتمكن كلّ شابٍّ وشابّةٍ من الزواج المبكر، وبنوا الأحواض المغرية بدون اختلاط، وأسّسوا المدارس، لكلّ جنس على حدة، وفتحوا البنوك التي تقضي كل الحاجات المصرفية بدون الربا، وهكذا وهلمّ جرًّا في مختلف شؤون الحياة[1].

آفاق العمل الاجتماعي

١. مشاركة الناس:

لا يمكن حصر مجالات التفاعل مع المجتمع لكننا سنشير إلى بعض الآفاق كأمثلة ونماذج:

في مناسبات الفرح أو الترح، والسرور أو الحزن، يودّ الإنسان أن يستشعر تعاطف الآخرين معه ومواساتهم له، حتى ترتفع معنوياته وتتقوّى روحيته، وترتاح مشاعره.

والعالم الديني يجب أن يكون حريصًا على مشاركة الناس في أفراحهم وأتراحهم، وأن يشعرهم بوقوفه إلى جانبهم في الظروف الحسّاسة والأوقات الهامة..

وهو بذلك يترجم تعاليم الإسلام الداعية إلى الاهتمام بمشاعر الناس وإدخال السرور على قلوبهم.

---

(١) السيد محمد الشيرازي. نحو يقظة إسلامية، الطبعة الأولى١٩٨٧م، (بيروت: دار العلوم)، ص٨٦.

قال رسول الله ﷺ: «من سَرَّ مؤمنًا فقد سرَّني ومَنْ سرّني فقد سَرّ الله»(١).

وقال ﷺ: «إنّ أحبّ الأعمال إلى الله عزّ وجلّ إدخال السرور على المؤمنين»(٢).

وعن الإمام محمد الباقر عليه السلام: «ما عُبِدَ الله بشيء أحبّ إلى الله من إدخال السرور على المؤمن»(٣).

وهناك نصوص وتعاليم كثيرة حول موارد مواساة الناس والتعاطف معهم، مسجلة في المصادر الدينية، تحت عناوينها المختلفة، كعيادة المريض، وتشييع الجنائز، وحضور الأعراس، واستقبال الحجيج، والتزاور وما أشبه.

وإذا ما واظب العالم الديني على مشاركة الناس في مناسباتهم المختلفة، فإنه بذلك يكسب قلوبهم، وتتوثق روابطه معهم، كما يصبح قدوة حسنة لسائر أبناء المجتمع، مما يقوّي تماسك المجتمع، ويعمر أجواءه بالمودّة والحب.

وقد روي عن رسول الله ﷺ أنه كان يتلطّف بخواطر أصحابه، ويتفقّد من انقطع منهم عن مجلسه. وكان إذا فقد الرجل من إخوانه ثلاثة أيّام سأل عنه، فإذا كان غائبًا دعا له، وإن كان شاهدًا زاره، وإن كان مريضًا عاده(٤).

٢. بذل الجاه وقضاء الحوائج:

للعالم الديني مكانة مرموقة واحترام كبير في المجتمع، وذلك يتيح له فرصة

---

(١) الكافي، ج ٢، ص١٨٨.
(٢) المصدر نفسه. ص١٨٩.
(٣) المصدر نفسه. ص١٨٨.
(٤) الشيخ يوسف النبهاني. وسائل الوصول إلى شمائل الرسول، طبعة ١٩٧٠م، (بيروت: دار مكتبة الحياة)، ص١١٩.

المساعدة على حلّ الكثير من المشاكل، وقضاء الحوائج، التي تحتاج إلى سعي من له كلمة مسموعة، ورأي مطاع واحترام مفروض.

إنّ بعض المواطنين تتعطّل معاملاتهم لدى الدوائر والأجهزة الحكومية، وبعض الناس تكون لهم حاجات مرتبطة بذوي الشأن والوجاهة في المجتمع، من زعماء وأثرياء، وهناك من يعاني من مشاكل مالية أو اجتماعية، كالخلافات التي تحتاج إلى تدخّل لإصلاح ذات البين.

وعادة ما يكون بمقدور العالم الديني أن يتدخّل لمساعدة هؤلاء، بكلمة منه أو رسالة أو لقاء مع الجهات المعنية، وعليه ألّا يتردّد في ذلك فهو استثمار للمكانة التي يتمتّع بها، وبذل للجاه الذي منحه الله إيّاه.

ومؤسف أنّ بعض العلماء يبخل بجاهه على المحتاجين من الناس، ويرى أنّ في ذلك نوعًا من المذلّة أو الخفة والابتذال، بل يتردّد في استخدام موقعيته حتى في مناصرة القضايا الدينية حفاظًا على هيبته! وصونًا لاحترامه!

لهذا الصنف من العلماء الذين يبخلون ببذل جاههم لمصالح الناس، ويمتنعون عن السعي في حوائج المحتاجين، نسوق الروايات والأحاديث التالية:

عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إنّ الله تعالى ليسأل العبد في جاهه كما يسأل في ماله، فيقول: (يا عبدي، رزقتك جاهًا فهل أعنت به مظلومًا، أو أغثت به ملهوفًا) »[1].

وعن رسول الله ﷺ: «من سعى في عون أخيه ومنفعته فله ثواب المجاهدين في

(١) الحاج ميرزا حسين النوري الطبرسي. مستدرك الوسائل. ج١٢، الطبعة الثالثة ١٤١٢هـ، (بيروت: مؤسسة آل البيت لإحياء التراث)، ص٤٢٩، حديث١٤٢٥.

سبيل الله»[١].

وروى عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنه قال: «ما من مؤمن بذل جاهه لأخيه المؤمن إلّا حرّم الله وجهه على النار، ولم يمسّه قتر ولا ذلّة يوم القيامة، وأيّما مؤمن بخل بجاهه على أخيه المؤمن، وهو أوجه جاهًا منه، إلّا مسّه قتر وذلّة في الدنيا والآخرة، وأصابت وجهه يوم القيامة لفحات النيران معذّبًا كان أو مغفورًا له»[٢].

وينقل لنا التاريخ كيف كان الأئمة العظام يستجيبون لمن يطلب منهم السعي ولو لقضية صغيرة متواضعة، ولا يتردّدون في بذل جاههم لذلك، فقد روي أنّ أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام مرّ بأصحاب التمر، فإذا هو بجارية تبكي، فقال: يا جارية، ما يبكيك؟

فقالت: بعثني مولاي بدرهم، فابتعت من هذا تمرًا فأتيتهم به فلم يرضوه، فلما أتيته به أبى أن يقبله.

قال: يا عبد الله، إنها خادم وليس لها أمر، فاردد إليها درهمها وخذ التمر.

فقام إليه الرجل فلكزه!

فقال الناس: هذا أمير المؤمنين!

فربا الرجل -أخذه الربو وضيق التنفس- واصفرّ وأخذ التمر وردّ إليها درهمها. ثم قال: يا أمير المؤمنين، أرضَ عني، فقال: ما أرضاني عنك إن أصلحت أمرك[٣].

---

(١) بحار الأنوار. ج٧١، ص٣١٨.
(٢) وسائل الشيعة. ج١٢، ص٢٨٦.
(٣) بحار الأنوار. ج ٤١، ص ٤٨.

ويأتي أحد المؤمنين إلى الإمام جعفر الصادق عليه السلام يطلب منه التوسط إلى والي الأهواز النجاشي لكي يسقط عنه ما عليه من ضرائب، فيلبي الإمام طلبه فورًا ويكتب معه رسالة إلى النجاشي، نصّها (بسم الله الرحمن الرحيم سرَّ أخاك يسرّك الله)[٤].

٣. رعاية الضعفاء:

التعامل مع الضعفاء والمنكوبين هو مقياس التضامن والتماسك في المجتمع، فإذا ما تُركوا يعانون الآلام والمصاعب دون رعاية وعطف، فذلك يعني خواء المجتمع وانعدام القيم الإيمانية الأخلاقية.

أما المجتمع الإيماني المتماسك فهو الذي يوفر الرعاية والعطف لكل أفراده الضعفاء والمنكوبين.

والمسؤولية تقع على عاتق الجميع، ومن يتجاهل حالات الضعف في المجتمع فتدينه كاذب زائف، وإن مارس كلّ العبادات والشعائر، يقول تعالى: ﴿**أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ * فَذَٰلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ * وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ * فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ * الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ * وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ**﴾[٥].

«إنّ حقيقة التصديق بالدين ليست كلمة تقال باللسان، إنما هي تحول في القلب يدفعه إلى الخير والبر بإخوانه في البشرية، المحتاجين إلى الرعاية والحماية، والله لا يريد من الناس كلمات، إنما يريد منهم معها أعمالًا تصدقها، وإلّا فهي هباء، لا وزن لها عنده ولا اعتبار»[٦].

---

(٤) الكافي. ج ٢، ص١٩٠.

(٥) سورة الماعون.

(٦) سيد قطب. في ظلال القرآن، ج ٨، (بيروت: دار إحياء التراث الإسلامي)، ص٦٨٠.

وقال رسول الله ﷺ: «ما آمن بي من بات شبعانًا وجاره جائع»[١].

ويقول الإمام محمد الباقر عليه السلام: «ما من أهل قرية يبيت فيهم جائع ينظر الله إليهم يوم القيامة»[٢].

وأولى الناس بالتصدي لرعاية الضعفاء والمنكوبين هو العالم الديني، لما يفترض فيه من التزام بأوامر الله تعالى، ولأنّ الحقوق الشرعية عادة ما تسلم إليه.

وقد ضرب أئمة أهل البيت عليهم السلام أروع الأمثلة في الاهتمام بضعفاء الناس ومحتاجيهم..

فقد روي أنّ أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام مرّ بشيخ مكفوف كبير هو يسأل الناس.

فقال عليه السلام: ما هذا؟

قالوا: يا أمير المؤمنين نصراني!

فقال: استعملتموه حتى كبر، وعجز منعتموه؟

ثم التفت إلى مسؤولي بيت المال وقال: «أنفقوا عليه من بيت المال»[٣].

وروى أبو الطفيل: أنّ عليًّا (عليه الصلاة والسلام)، كان يدعو اليتامى فيطعمهم العسل حتى قال بعض أصحابه: لوددت أني كنت يتيمًا، وكان ذلك منه اقتداءً برسول الله، حيث كان الرسول ﷺ لا تخلو داره على صغرها من يتيم، وكان

---

(١) الكافي. ج٢، ص٦٦٩.
(٢) وسائل الشيعة. ج١٢، ص٦٣٠.
(٣) وسائل الشيعة. ج ١١، ص٤٨.

يقول: «خير بيوتكم بيت فيه يتيم»[١].

وكان الإمام علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام ليخرج في الليلة الظلماء، فيحمل الجراب على ظهره، وفيه الصرر من الدنانير والدراهم، وربما حمل على ظهره الطعام أو الحطب، حتى يأتي بابًا فيقرعه، ثم يناول من يخرج إليه، وكان يغطي وجهه إذا ناول فقيرًا لئلا يعرفه، فلما توفي فقدوا ذلك فعلموا أنه كان علي بن الحسين[٢].

وروي أنه كان يعول مئة بيت بالمدينة في السرّ، وكان في كلّ بيت جماعة من الناس[٣].

ومثل ذلك يروى في حياة سائر الأئمة عليهم السلام.

٤ . الإصلاح ووحدة المجتمع:

طبيعي أن تتعدد الآراء والتوجهات في كلّ مجتمع، وأن تتضارب المصالح بين الأفراد أو الجهات، لكن الوعي السليم، والسلوك الحضاري، يصنع جوًّا من المرونة، وأطرًا مناسبة لمعالجة قضايا الخلافات، ولترشيدها ومنعها من تمزيق وحدة المجتمع.

والعالم الديني ينبغي أن يكون منفتحًا على كلّ الجهات والاتجاهات وأن يسعى لتقريب وجهات النظر، وأن يجتهد في صنع الإطارات المناسبة لاحتواء تعدد الآراء، وتضارب المصالح.

---

(١) السيد محمد الشيرازي. السبيل إلى إنهاض المسلمين، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ، ص٤٣٥.
(٢) كتاب الحياة. ج٢، ص ٢٠٩.
(٣) باقر شريف القرشي. حياة الإمام زين العابدين، ج ١، الطبعة الأولى١٩٨٨م، (بيروت: دار الأضواء)، ص٨٤.

وإذا ما أخذ العالم الديني موقف اللامبالاة تجاه ما يجري في المجتمع من خلافات وصراعات، فإنه بذلك يأخذ دور المتفرج على انهيار وحدة المجتمع، وتلاشي قوته وتماسكه.

كما أنه ليس من الصحيح أن يستعجل الانحياز إلى هذه الجهة أو تلك، فذلك يعمّق الخلاف، ويكرس حالة الصراع..

ففي مجتمعاتنا اليوم العديد من المؤسسات التي قد تختلف في أساليب عملها، والعديد من الحركات والجهات الفكرية والسياسية التي قد تتباين آراؤها ومواقفها، بل والعديد من الانتماءات المذهبية والمرجعية، لكن ذلك لا يعني التناحر والتنازع، وإنما يجب أن يعترف كلّ طرف بحرية الآخرين، وأن يسعى الجميع للحوار من أجل تقريب وجهات النظر، أو تحديد مواقع الاختلاف، ثم يتفق الجميع على الاحترام المتبادل، والعمل في إطار المصلحة العامة.

ورجل الدين بما له من قبول في المجتمع، يمكنه ممارسة دور إصلاحي كبير في هذا المجال، وفي ذلك استجابة لأمر الله تعالى حيث يقول: ﴿**فَاتَّقُوا الله وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ**﴾[1].

﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ**﴾[2].

وقال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة؟ إصلاح ذات البين، فإنّ فساد ذات البين هي الحالقة» [3].

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ١.

(٢) سورة الحجرات، الآية: ١٠.

(٣) كنز العمال. ج٣، ص٥٨، حديث ٥٤٨٠.

وفي حديث آخر أنه ﷺ قال لأبي أيوب الأنصاري: «يا أبا أيوب، ألا أخبرك وأدلّك على صدقة يحبها الله ورسوله؟ تصلح بين الناس إذا تفاسدوا وتباعدوا»[1].

كما أنّ ممارسة هذا الدور الإصلاحي يحافظ على وحدة المجتمع، ويقوي موقع رجل الدين المصلح.

وعلى رجل الدين أن يكون حذرًا من الوقوع في مطبّ الخلافات والصراعات، فلا يُستدرج لإثارة خلاف أو صراع، فقد يحصل في بعض الموارد أن يندفع رجل الدين لطرح موضوع ثانويّ، أو اتّخاذ موقف غير حكيم، يسبّب الصراع والنزاع في المجتمع.

وبالفعل فإنّ مجتمعاتنا تشهد بعض الخلافات المذهبية والمرجعية، التي غالبًا ما يقف وراءها رجالُ دينٍ يُفترض فيهم أن يقوموا بدور الإصلاح، ويحافظوا على وحدة المجتمع.

من حقّ كلّ رجل دين أن يطرح آراءه المذهبية، وانتماءه المرجعي، وقناعاته الفكرية، ولكن ضمن ضابطتين:

الأولى: الموضوعية وعدم التشهير والتعبئة ضدّ الجهة الأخرى.

والثانية: مراعاة الظروف، وتقدير مدى أهمية الرأي والفكرة المطروحة. فليس كل فكرة صحيحة تستحق أن تُطرح في كل وقت، ونقدم أنموذجًا لذلك، يتجلّى في موقف أئمة أهل البيت عليهم السلام من مسألة النزاع حول خلق القرآن، وهل أنّ كلام الله قديم غير مخلوق، أم حادث مخلوق، التي أُثيرت بشكل حادّ أواخر القرن الثاني

---

(١) الحسيني ورام بن أبي فراس المالكي الأشتري. تنبيه الخواطر ونزهة النواظر، طبعة طهران سنه ١٣٠٩هـ، ج١، ص٦.

الهجري، وسببت الكثير من المحن والخلافات، لكن أئمة أهل البيت عليهم السلام منعوا أصحابهم عن الخوض في تلك المسألة، فقد سأل الريّان بن الصلت الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام وقاله له: «ما تقول في القرآن؟ فقال: كلام الله لا تتجاوزوه ولا تطلبوا الهدى في غيره فتضلّوا»(١).

وحدّث سليمان بن جعفر الجعفري قال: «قلت لأبي الحسن موسى بن جعفر عليه السلام: يا ابن رسول الله، ما تقول في القرآن فقد اختلف فيه من قبلنا، فقال قوم: إنه مخلوق، وقال قوم: إنه غير مخلوق، فقال عليه السلام: أما إني لا أقول في ذلك ما يقولون ولكني أقول: إنه كلام الله »(٢).

فإنّا نرى أنّ الإمام عليه السلام يبتعد عن الخوض في تلك المسألة لما رأى أنّ الخوض فيها ليس لصالح الإسلام، وإنّ الاكتفاء بأنه كلام الله أحسم لمادة الخلاف، ولكنهم عندما أحسّوا بسلامة الموقف أدلوا برأيهم في الموضوع، وصرحوا بأنّ الخالق هو الله وغيره مخلوق، وكتب الإمام علي بن محمد الهادي إلى بعض أصحابه ما نصّه: «نحن نرى أنّ الجدال في القرآن بدعة اشترك فيها السائل والمجيب، فيتعاطى السائل ما ليس له، ويتكلف المجيب ما ليس عليه، وليس الخالق إلّا الله عزّ وجلّ، وما سواه مخلوق، والقرآن كلام الله»(٣).

وقد لاحظنا في هذا العصر، ومع توجّه أنظار القوى الطامعة في العالم إلى مناطقنا لما تختزنه من ثروات نفطية هائلة، لاحظنا كيف أنّ جماعة من رجال الدين

---

(١) محمد بن علي بن بابويه القمي. عيون أخبار الرضا، ج١، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ، (بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات)، ص٦٢.
(٢) بحار الأنوار. ج٨٩، ص١١٨.
(٣) الشيخ جعفر السبحاني. الملل والنحل، ج ٢، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ، (قم)، ص٢٩٩.

همّهم الشاغل طرح قضايا جانبية مختلف عليها مذهبيًّا، كزيارة القبور، والتوسل بالأولياء، وإصدار فتاوى التكفير ضد من يخالفهم في الرأي، مما خلق في مناطقنا توتّرًا وتشنّجًا طائفيًّا لا مثيل له في أيّ بقعة من العالم الإسلامي.

كما رأينا في بعض مجتمعاتنا، كيف يثار الخلاف حول مسألة جواز تقليد الميت بطريقة تجعل المختلفين في هذه المسألة وكأنهم أهل ملّتين أو مذهبين متباينين!!

أو مسألة تحديد الأعلم ومرجع التقليد، التي أصبحت لدى بعض الناس في مجتمعاتنا وكأنها مقياس الإيمان والكفر، وعليها يتوقف دخول الجنّة والنار!!

ومما يبعث على الأسى والتألم اندفاع بعض رجال الدين إلى إثارة هذه القضايا، وخوض الصراعات من أجلها، خلافًا للدور المرجو منهم، والمناط بهم، وهو إصلاح ذات البين، والحفاظ على وحدة المجتمع.

٥. المؤسسات والأنشطة الاجتماعية:

وجود المؤسسات الاجتماعية تربي المجتمع على قيم التعاون وتحمل المسؤولية، كما تملأ فراغ احتياجات الناس، وتساعد على حلّ المشاكل، وهي في المحصلة تقوّي كيان المجتمع، وتصلب إرادته.

ورجل الدين ينبغي أن يقوم بالدور الأساس في إيجاد المؤسسات الاجتماعية بمختلف أشكالها، ويدعم المؤسسات القائمة، ويشجع الجمهور على التفاعل معها.

فبدل أن تكون مساعدة الفقراء والمحتاجين عملًا فرديًّا ارتجاليًّا، يقوم به هذا الشخص أو ذاك، ينبغي العمل على تأسيس جمعية خيرية ترصد مناطق الضعف في المجتمع، وتتصدى لرعايتها، وتجتمع لديها صدقات الناس وتبرعاتهم.

وبالفعل توجد جمعيات خيرية في بعض مناطقنا، لكن الكثير من العلماء قد لا يجدون أنفسهم معنيين بها!!

وحتى الأنشطة الرياضية، والمشاريع الصحية، ومجالات الفن، وبرامج الترفيه، لماذا تكون بعيدة عن اهتمامات رجل الدين؟

إنّ مبادرته باتجاهها، ومساهمته في توجيهها، يضمن صحة مسارها، ويجعلها في إطار أحكام الإسلام وآدابه بأكبر قدر ممكن.

إنّ على رجال الدين أن يثبتوا من خلال مواقفهم أن الدين معني بتقدم المجتمع وبتنمية كفاءات وطاقات أبنائه.

عالم الدين بين التواضع وتضخّم الذات

عالم الدين كيف ينظر إلى نفسه؟

وكيف يرى الآخرين بالنسبة إلى ذاته؟

إن نظرة الإنسان إلى ذاته تحدّد رؤيته إلى الآخرين. وتشكل أساسًا وأرضية لنمط تعامله وعلاقته بهم.

ولأهمية العلاقة بين عالم الدين والمجتمع، وتأثير مستواها على الحالة الدينية، ولما يدور في بعض الأوساط من تساؤلات وملاحظات، حول واقع هذه العلاقة، من خلال بعض النماذج والممارسات، فسنعالج هذا الموضوع عبر زاوية مهمة من زواياه، هي النظرة التي يكوّنها عالم الدين عن ذاته لجهة موقعيته من الآخرين، وموقعيتهم بالقياس إليه.

تضخّم الذات

حينما يمتلك إنسان نقاط قوة يتفوّق بها على من حوله، فقد تصيبه حينئذٍ حالة من الإعجاب بذاته، فيكون تميّزه حاضرًا دائمًا في ذهنه، ويغفل عمّا لديه من ثغرات ونواقص، فتنمو وتزداد في شخصيته، كما يتجاهل نقاط قوة الآخرين، فلا يرى لهم قيمة واعتبارًا، بل ينظر إليهم دائمًا من خلال تفوقه وتميزه.

يذكر الأبشيهي في كتابه المستطرف بعض النماذج من المصابين بمرض انتفاخ الذات، فينقل عن جذيمة الأبرش: أنه كان لا ينادم أحدًا لتكبّره، ويقول: إنما ينادمني الفرقدان، أي الشمس والقمر!!

أما ابن عوانة فقد قال لغلامه يومًا: اسقني ماءً. فقال الغلام: نعم. فقال ابن عوانة: إنما يقول نعم من يقدر أن يقول لا، اصفعوه، فصُفع!! ودعا يومًا فلّاحًا فكلمه، فلما فرغ دعا بماء فتمضمض به استقذارًا لمخاطبته!!

وقال المسرور بن هند لرجل: أتعرفني؟ قال: لا. قال: أنا مسرور بن هند. قال: ما أعرفك. قال فتعسًا ونكسًا لمن لم يعرف القمر[١].

هذا هو مرض انتفاخ الذات وتضخمها، وهو داء خطير، قد يحصل بسبب موقع السلطة والقوة، أو بامتلاك المال والثروة، أو بتحصيل مستوى علميّ ومكانة دينية اجتماعية.

لذلك، فعالم الدين معرّض لجرثومة هذا المرض، فإذا لم يراقب ذاته، ولم يجتهد لتهذيبها وتثبيت مناعتها، فقد يصبح ضحية لهذا المرض الخطير، الذي تنعكس آثاره وأضراره على سمعة الدين، والحالة الدينية بشكل عام.

---

(١) محمد بن أحمد الأبشيهي. المستطرف في كل فن مستظرف، ج١، الطبعة الثانية ٢٠٠٠م، المطبعة العصرية، ص٢٢٣.

ويرى الشيخ أبو حامد الغزالي أنّ احتمال إصابة العالم بهذا المرض أكثر من غيره، يقول في (إحياء علوم الدين): «وما أسرع الكبر إلى العلماء! ولذلك قال ﷺ: «آفة العلم الخيلاء» فلا يلبث العالم أن يتعزّز بعزّة العلم، يستشعر في نفسه جمال العلم وكماله، ويستعظم نفسه، ويستحقر الناس، وينظر إليهم نظره إلى البهائم، ويستجهلهم، ويتوقع أن يبدؤوه بالسلام، فإن بدأه واحد منهم بالسلام، أو ردّ عليه بِبُشر، أو قام له، أو أجاب له دعوة، رأى ذلك صنيعة عنده، ويدًا عليه يلزمه شكرها، واعتقد أنه أكرمهم، وفعل بهم ما لا يستحقون من مثله وأنه ينبغي أن يرقوا له، ويخدموه شكرًا له على صنيعه، بل الغالب أنهم يبرّونه فلا يبرّهم، ويزورونه فلا يزورهم، ويعودونه فلا يعودهم، ويستخدم من خالطه منهم، ويستسخره في حوائجه، فإن قصرّ فيه استنكره كأنهم عبيده أو أجراؤه، وكأن تعليمه العلم صنيعة منه إليهم، ومعروف لديهم، واستحقاق حق عليهم. . .»[١].

أرضية الابتلاء

كيف يبتلى عالم الدين بهذا المرض الخطير؟

وكيف تتسلّل جرثومته إلى نفسه؟

إنّ عالم الدين كسائر البشر، مخلوق في هذه الدنيا للابتلاء والامتحان من قبل الله تعالى، والامتحان الإلهي أساليبه ووسائله متنوعة، فقد يكون عبر إغداق النعم والخيرات، أو الإصابة بالشدائد والأزمات، يقول تعالى: ﴿**وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ**﴾[٢].

---

(١) إحياء علوم الدين ج٣، ص٥٠٦.

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٣٥.

وكما يكون المال أو المنصب، أو الجمال مادة للامتحان، فكذلك تكون نعمة العلم موردًا للامتحان، وعلى أساس طريقة التعامل مع هذه النعمة تتقرّر درجة العبد عند الله تعالى.

ولكي تتضح صورة ومعالم هذا الامتحان الذي يمرّ به عالم الدين من هذه الزاوية، نشير إلى النقاط التالية:

أولًا:

لا شك أنّ للعلم قدرًا وقيمة تؤهل من يحمله للاعتزاز به، ويتجلى فضل العلم عند صاحبه أكثر حينما يعيش في أوساط الجاهلين، فيراهم محتاجين إلى علمه، ويجد نفسه متميزًا عليهم بمعرفة ما يجهلون.

وقد يكون هذا من بواعث العُجْب وانتفاخ الذات عند بعض حملة العلم، وخاصة عند من لا يختلط بأنداده أو المتفوقين عليه من العلماء، فيعيش دائمًا الشعور بالتميّز في الوسط المحيط به.

أما من يلتقي المتقدمين عليه في العلم، أو المقارنين له في الفضل، فقد يساعده ذلك على التوازن في مشاعره وتقويمه لذاته.

ولعلّ البعض في عزوفه عن التلاقي مع الفضلاء من أبناء صنفه، واقتصاره على مخالطة أتباعه وطلابه ومريديه، إنما يريد العيش دائمًا في حالة الشعور بالتميز الذاتي.

ثانيًا:

هناك نصوص دينية كثيرة تتحدث عن فضل العالم ومكانته، حيث تقرّر الآية

الكريمة قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾[1]، تفوّق العالم في صيغة سؤال تقريري.

وجاء في الحديث الشريف عن النبي ﷺ: «فضل العالم على الشهيد درجة»[2]، وعنه ﷺ: «إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم»[3]، وعنه ﷺ: «طالب العلم تبسط له الملائكة أجنحتها رضى بما يطلب»[4]، وعنه ﷺ: «فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب»[5].

وأحاديث وروايات عديدة كثيرة في تبيين فضل العالم ومكانته، هذه النصوص حينما يطّلع عليها ويقرؤها من أوتي نصيبًا من العلم، فقد تُحدث له نوعًا من الغرور والعُجْب إذا اعتبر نفسه مصداقًا وموردًا لانطباقها.

ثالثًا:

ما يحظى به عالم الدين من تقدير واحترام في أوساط جمهور الناس، الذي يتجلى في قيامهم له إذا دخل عليهم، وتقديمه في الأمور، وإيثاره بصدر المجلس، وتقبيل جبينه أو يده، كما هي العادة في بعض المجتمعات، والرجوع إلى رأيه في مختلف المسائل والشؤون، كلّ ذلك قد يعزّز مشاعر الاعتزاز بالذات، والإحساس بالتميّز.

بالطبع، فإنّ احترام أهل العلم وتقديرهم، أمر مطلوب، يدفع إليه العقل،

(١) سورة الزمر، الآية:٩.

(٢) الفضل بن الحسن الطبرسي. مجمع البيان ج٩، الطبعة الأولى ١٩٩٥م، (بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات)، ص٤١٨.

(٣) كنز العمال. حديث ٢٨٧٢٦.

(٤) المصدر نفسه. حديث ٢٨٧٤٧.

(٥) المصدر نفسه. حديث ٢٨٧٩٥.

ويأمر به الشرع؛ لأنّ ذلك مظهر لاحترام الدين والعلم، ومقدمة للاستجابة لإرشاد العلماء وتعليمهم. ورد في الحديث عن رسول الله ﷺ: «من استقبل العلماء فقد استقبلني، ومن زار العلماء فقد زارني، ومن جالس العلماء فقد جالسني، ومن جالسني فكأنما جالس ربي»(١)، وعنه ﷺ: «أكرموا العلماء فإنهم ورثة الأنبياء فمن أكرمهم فقد أكرم الله ورسوله»(٢).

التربية الروحية الأخلاقية

كما قد يكون المال والثروة سببًا للانحراف والطغيان ﴿**إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى * أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى**﴾(٣). وقد تكون السلطة دافعًا للظلم والاستبداد، كذلك قد يصبح العلم باعثًا للغرور والتكبر، لذلك ورد عن السلف: «إن للعلم طغيانًا كطغيان المال»(٤).

ومن أجل تحقيق التوازن النفسي عند الإنسان، وللسيطرة على جموح مشاعره وأحاسيسه الذاتية، لا بدّ من التربية الروحية الأخلاقية.

وعالم الدين إذا توفر على رصيد كافٍ من تزكية النفس، يكون لديه مناعة وحصانة من مرض العُجْب والغرور، وسائر الأدواء الأخلاقية. لذلك يقدّم القرآن الكريم التزكية على التعليم لأهميتها وأولويتها، بقول تعالى: ﴿**يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ**﴾(٥).

---

(١) كنز العمال. حديث ٢٨٨٨٣.

(٢) المصدر نفسه. حديث ٢٨٧٦٤.

(٣) سورة العلق، الآيتان: ٦-٧.

(٤) إحياء علوم الدين. ج٣، ص٥٢٧.

(٥) سورة الجمعة، الآية:.٢.

وتؤكّد النصوص الدينية على ضرورة تزكية النفس أولًا، خاصة بالنسبة لعالم الدين، يقول الإمام علي عليه السلام: «من نصّب نفسه للناس إمامًا فليبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره، وليكن تأديبه بسيرته قبل تأديبه بلسانه، ومعلّم نفسه ومؤدبها أحقّ بالإجلال من معلّم الناس ومؤدبهم»(١)، ويقول عليه السلام: «كيف يصلح غيره من لا يصلح نفسه»(٢).

إن التربية الروحية تجعل نظرة الإنسان إلى نفسه أكثر واقعية وموضوعية، فكلما تقدّم علميًّا، أدرك عمق المعرفة، وسعة آفاق العلم، وأدرك أن ما ناله من العلم ليس سوى نزر قليل ومقدار ضئيل، فيسدّ بذلك منافذ العُجْب والغرور إلى نفسه، يقول الله تعالى: ﴿**وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلًا**﴾(٣).

وروي عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «من قال: أنا عالم فهو جاهل»(٤). وفي وصيّته لابنه الحسن عليه السلام يقول الإمام علي عليه السلام: «فإن العالم من عرف أن ما يعلم فيما لا يعلم قليل فعدَّ نفسه بذلك جاهلًا»(٥).

ينقل في سيرة العالم الفيلسوف الفقيه المعروف الملا هادي السبزواري ١٢١٢-١٢٨٩هـ صاحب المنظومة الفلسفية التي تدرّس في الحوزات العلمية، أنه ذهب إلى كرمان دون أن يعرفه أحد، ليبقى فيها مدة من الزمن فدخل المدرسة العلمية هناك، وطلب من المتوليّ للمدرسة غرفة، ولما لم يكن المتولي يعرفه سأله: هل أنت

---

(١) نهج البلاغة، حكمة ٧٣.

(٢) عبدالواحد الآمدي التميمي. غرر الحكم ودرر الكلم، الطبعة الأولى ١٩٨٧م، (بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات).

(٣) سورة الإسراء، الآية: ٨٥.

(٤) بحار الأنوار، ج٢، ص ١١٠.

(٥) بحار الأنوار. ج ٧٤، ص٢٢١.

من العلماء؟ فأجابه: كلّا. قال المتولي: إن الغرف مخصوصة لطلبة العلم، ولكنك تستطيع أن تبقى في غرفة خادم المدرسة لتساعده في أعمال الخدمة، فوافق على ذلك، وبقي كذلك حتى عرفوا شخصيته[١] .

كما أنّ العالم المحدّث الكبير الشيخ عباس القمي ١٢٩٤-١٣٥٩هـ صاحب المؤلفات الكثيرة المشهورة، لما ألف كتابه الفوائد الرضوية في تراجم علماء الإمامية ووصل إلى اسمه، كتب ما يلي: «حيث إن هذا الكتاب الشريف في بيان أحوال العلماء، لم أجد المناسب أن أترجم لنفسي إذ أني أحقر وأقلّ من أن أضع نفسي في عدادهم، ولذا أصرف النظر عن ترجمتي مكتفيًا بذكر مؤلفاتي» [٢].

وكان أحد الفقهاء المراجع يكتب عند توقيعه: تراب أقدام العلماء، ومتداول عند كثير من العلماء أن يكتب عند توقيعه الأقلّ أو الأحقر . هكذا يستكثر العالم المهذّب لنفسه أن يعدّ نفسه عالمًا، فضلًا عن أن يسيطر عليه العُجْب والغرور، أو يتباهى بعلمه.

العلم مسؤولية وتكليف

دراسة الإنسان للعلوم الدينية يفترض أن تجعله أكثر إدراكًا لعظمة الله تعالى، وشعورًا بالالتزام والمسؤولية بين يديه سبحانه، وما يناله من العلم يكون حجة عليه أمام الله تعالى، لذلك يتصف العلماء بشدّة الخوف والخشية من الله، يقول تعالى: ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى الله مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ**﴾[٣].

(١) هيئة محمد الأمين. الأخلاق والآداب الإسلامية، الطبعة الأولى٢٠٠٠م، (الكويت)، ص٢٣٥.

(٢) الشيخ رضي مختاري. سيماء الصالحين، طبعة ١٩٩٢م، (بيروت: دار البلاغة)، ص٢٦٠.

(٣) سورة فاطر، الآية:.٢٨.

فالعلم الديني مسؤولية وتكليف قبل أن يكون امتيازًا وتشريفًا، وعلى حملة العلم أن يضعوا نصب أعينهم التحذيرات الإلهية الموجهة إليهم، عبر آيات الذكر الحكيم، وأحاديث النبي ﷺ وعترته الطاهرة عليهم السلام، لتكبح جماح النوازع الذاتية في نفوسهم، وليخضعوا أنفسهم دائمًا وأبدًا للمحاسبة والمراقبة. وليتذكروا أنّ وضعهم أخطر من سائر الناس، وأن الناس العاديين أخفّ منهم أعباءً، وأيسر حسابًا بين يدي الله تعالى.

هناك عدد من الأحاديث الشريفة تحذّر من توظيف العلم لنيل الشهرة والبروز الاجتماعي، جاء في الحديث عنه ﷺ: «من طلب العلم ليماري به السفهاء، أو يكاثر به العلماء، أو يصرف به وجوه الناس إليه فليتبوأ مقعده من النار»[١].

ويشير عدد من الأحاديث إلى عظيم حساب وعذاب حامل العلم إن لم يكن ملتزمًا بمسؤوليته، ورد عنه ﷺ أنه قال: «أتيت ليلة أسرى بي على قوم يقترض شفاههم بمقاريض من نار، فقلت: يا جبريل، من هؤلاء؟ قال: خطباء من أمتك الذين يقولون ما لا يفعلون ويقرؤون كتاب الله ولا يعملون به»[٢]، وعنه ﷺ: «إنّ أشدّ الناس عذابًا يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه»[٣]، وعنه ﷺ: «الزبانية أسرع إلى فسقة حملة القرآن منهم إلى عبدة الأوثان، فيقولون: يبدأ بنا قبل عبدة الأوثان؟! فيقال لهم: ليس من يعلم كمن لا يعلم»[٤].

وروي عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «إنه يغفر للجاهل سبعون ذنبًا قبل أن

(١) كنز العمال. حديث ٢٩٠٥٧.

(٢) كنز العمال. حديث ٢٩٠٢٦.

(٣) المصدر نفسه. حديث ٢٩٠٩٩.

(٤) المصدر نفسه. حديث ٢٩٠٠٥.

يغفر للعالم ذنب واحد»[١].

هذه النصوص وأمثالها تذكّر عالم الدين بالمسؤولية والالتزام تجاه علمه، وتصرفه عن العُجْب والغرور، فلا قيمة للعلم من دون تقوى، ولا فائدة فيه إن لم يصحبه سلوك صحيح.

إنّ تضخّم الذات يوحي لصاحبه أنه أفضل من سائر الناس بما نال من العلم، وأن على الناس أن يظهروا له الاحترام والتقدير، وأن يتشرفوا ويُسعدوا بخدمته، وأن يقبلوا منه كل ما يقول بلا نقاش ولا اعتراض، فهو عالم يمثّل الشرع وينطق باسمه، وهم عوام جهال، وظيفتهم الانقياد والطاعة، وقد يرى نفسه بوابة رضا الله وغفرانه، فمن لا يوافق رأيه، ويخضع لإرادته، مطرود من رحمة الله، وذلك شبيه بما ادّعاه رجال الكنيسة في العصور الوسطى من بيع صكوك الغفران على الناس.

إنّ هذا التصور وهذا السلوك مناقض لجوهر العلم، ومخالف لمضامين الدين وتعاليمه. ذلك أنّ الله تعالى يمقت التكبر ويكره المتكبرين، يقول تعالى: ﴿**أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ**﴾[٢]. وعنه ﷺ: «أمقت الناس المتكبر»[٣]، ويأمر الله تعالى بالتواضع ويحب المتواضعين، يقول تعالى: ﴿**فَسَوْفَ يَأْتِي الله بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ**﴾[٤]. ويقول الإمام علي عليه السلام: «عليك بالتواضع فإنه من أعظم العبادة»[٥].

---

(١) بحار الأنوار. ج٢، ص٢٧.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٦٠.

(٣) بحار الأنوار. ج٧٠، ص٢٣١.

(٤) سورة المائدة، الآية: ٥٤:.

(٥) المصدر نفسه. ج٧٢، ص١١٩.

والعلم الحقيقي يدفع صاحبه إلى التواضع للناس، وكلما ارتفع مستواه العلمي، انخفضت نفسه تواضعًا ورقة، جاء في الحديث عنه ﷺ: «من طلب العلم لله لم يصب منه بابًا إلا ازداد في نفسه ذلًّا، وفي الناس تواضعًا، ولله خوفًا، وفي الدين اجتهادًا، وذلك الذي ينتفع بعلمه»(١).

أما التعالي والتكبر فهو سمة أدعياء العلم، الذين يسخّرونه لإشباع نزواتهم الذاتية، روي عنه ﷺ: «من طلب العلم للدنيا، والمنزلة عند الناس، والحظوة عند السلطان، لم يصب منه بابًا إلا ازداد في نفسه عظمة، وعلى الناس استطالة، وبالله اغترارًا، ومن الدين جفاءً، فذلك الذي لا ينتفع بالعلم»(٢).

وهكذا فإنّ المعرفة الصادقة تربي الإنسان على التواضع، وتنمّي في نفسه احترام الآخرين، يقول الإمام علي عليه السلام: «التواضع ثمرة العلم»(٣)، ويقول عليه السلام: «وإنه لا ينبغي لمن عرف عظمة الله أن يتعظّم»(٤).

وأخيرًا، نضرع إلى الله تعالى مع الإمام زين العابدين عليه السلام في دعاء مكارم الأخلاق: حيث يقول: اللهم صلِّ على محمد وآله ولا ترفعني في الناس درجة إلّا حططتني عند نفسي مثلها، ولا تحدث لي عزًّا ظاهرًا إلّا أحدثت لي ذلّة باطنة عند نفسي بقدرها. آمين ربّ العالمين.

(١) المصدر نفسه. ج٢، ص٣٤.
(٢) بحار الأنوار. ج٢، ص٣٥.
(٣) غرر الحكم ودرر الكلم.
(٤) نهج البلاغة. خطبة ١٤٧.

ثمرة العلم التواضع

من يشعر بالتفوق والتميّز على الآخرين لامتلاكه نقطة قوة معينة، عليه ـ من أجل ألّا يدفعه شعوره هذا للتعالي والعجب والتكبر ـ، أن يخضع هذا الإحساس للبحث والتساؤل: هل هو بالفعل مميّز ومتفوّق على غيره؟

إنّ نقاط القوة والتقدم متفاوتة بين الناس، وقلّ أن تجتمع كل عوامل التفوق في شخصية واحدة، فقد يتفوق شخص في العلم، وآخر في القدرة الإدارية، وثالث في امتلاك الثروة، ورابع في نيل القوة والسلطة، وخامس في الجمال واللياقة الجسمية، وسادس في الحسب والنسب.. وهكذا..

وبالتالي، فإنّ على الإنسان أن يحسب حسابًا لنقاط قوة الآخرين، ولا يتعالى على أحد، ما دام هو لا يحب أن يتكبر أحد عليه.

وكمسلمين فنحن نعتقد بأن القرب من الله تعالى، والنجاة يوم القيامة هو التفوق الأكبر، والنجاح الأهم، وهل يضمن إنسان لنفسه ذلك؟ هل يجزم عالم

الدين مثلًا بأنه أقرب إلى الله، وأحقّ برضاه وجنته من هؤلاء العاديين الذين قد يشعر بأفضليته عليهم؟

جاء في حديث عن رسول الله ﷺ: «ربّ أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه له، لو أقسم على الله لأبرّه»[١].

يقول الإمام علي عليه السلام: «الغنى والفقر بعد العرض على الله»[٢].

إنّ المعصومين الذين اصطفاهم الله تعالى من عباده، ورغم أنهم يمتلكون التفوق الشامل، والتميّز الكامل على من سواهم، دنيًا وآخرة، إلّا أنهم يتصفون بأعلى درجات التواضع مع الناس، ليس في قلوبهم ذرّة من العُجْب، ولا تظهر منهم بادرة تكبرٍ أو تعالٍ على أحد.

فنبيّنا محمد ﷺ وهو سيد الخلق وأكرمهم على الله تعالى، الذي حاز التفوق في جميع المجالات، لو قرأنا سيرته العطرة لوجدناه المثل الأعلى في التواضع والبساطة مع الناس، وعلى هديه سار الأئمة الطاهرون من أهل بيته، والصحابة الأخيار، ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى الله فَبِهُدَاهُمْ اقْتَدِهِ﴾[٣].

تواضع الأولياء

إنّ التواضع سرٌّ من أسرار عظمة أولياء الله تعالى، وهو ناتج من التربية الإلهية، حيث يؤدّب الله تعالى أنبياءه ويوجههم إلى هذا الخلق العظيم، يقول الله تعالى مخاطبًا

---

(١) كنز العمال. حديث ٥٩٥٣.

(٢) نهج البلاغة. قصار الحكم ٤٥٢.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ٩٠.

نبيه محمد ﷺ: ﴿**وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ**﴾(١). وفي آية أخرى: ﴿**وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنْ اتَّبَعَكَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ**﴾(٢). وخفض الجناح تمثيل للرفق والتواضع بحال الطائر إذا أراد أن يهبط إلى الأرض، خفض جناحيه يريد الدنوّ، أو إذا تهيأ لحضن فراخه، فالطيور حينما تريد إظهار حنانها لفراخها تجعلها تحت أجنحتها بعد خفضها.

وممارسة التواضع عند الأنبياء والأولياء عمل عبادي يتقربون به إلى الله تعالى يقول ﷺ: «إنّ الله يحبّ المتواضعين ويُبغض المتكبرين»(٣)، وقال ﷺ يومًا لبعض أصحابه: «ما لي لا أرى عليكم حلاوة العبادة؟ قالوا: وما حلاوة العبادة؟ قال ﷺ: التواضع»(٤)، وقال علي عليه السلام: «عليك بالتواضع فإنه من أعظم العبادة»(٥).

وبالتواضع يجتذب الأنبياء قلوب الناس لدعوتهم الإلهية، حيث يحبّ الناس من يتواضع لهم، بينما ينفرون ممن يتعالى ويتكبرّ عليهم. يقول الإمام علي عليه السلام: «ثمرة التواضع المحبة وثمرة الكبر المسبّة»(٦).

ويقرّر القرآن هذه الحقيقة مؤكدًا أن أخلاق رسول الله ﷺ هي التي استقطبت الناس للدين، ولولا رفقه ولينه معهم لما استجابوا لدعوته، يقول الله تعالى: ﴿**فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنْ الله لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ**

---

(١) سورة الحجر، الآية: ٨٨.

(٢) سورة الشعراء، الآية: ٢١٥.

(٣) كنز العمال. حديث ٥٧٣٤.

(٤) محمد مهدي النراقي. جامع السعادات، ج١، الطبعة السابعة ١٤٢٢هـ، (بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات)، ص٣٩٤.

(٥) بحار الأنوار. ج٧٢، ص١١٩.

(٦) غرر الحكم ودرر الكلم.

عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾[1].

وإذا كان التواضع مطلوبًا من كلّ أحد فإنّ عالم الدين هو الأولى والأجدر بممارسة هذا الخلق الكريم؛ لانفتاحه على تعاليم الإسلام، ولتصدّيه للدعوة والإرشاد، ولموقعيته الدينية في أنظار الناس، حيث تتشكل النظرة عن الدين عند الكثيرين من خلال شخصيته وسلوكه، وبالتواضع والأخلاق الكريمة، يقدم عن الدين صورة جميلة وانطباعًا حسنًا، تجتذب النفوس إلى الدين، أما إذا كان مبتليًا بداء العُجْب وتضخم الذات، فسيفشل في كسب القلوب، ويقدم نموذجًا مشوهًا للحالة الدينية.

ونقتبس من مدرسة الأخلاق النبوية بعض معالم خلق التواضع، لتكون نبراسًا للدعاة إلى الله، والمهتمين بالشأن الديني والاجتماعي.

عدم الاهتمام بالتشريفات

تنشأ في كل مجتمع أعراف وتقاليد لإظهار الاحترام والتقدير للشخصيات البارزة، ولموقعية عالم الدين في المجتمع الإسلامي، فإن الناس يبدون له الكثير من مظاهر الإجلال والتعظيم، فيقومون لاحترامه إذا دخل مجلسًا، ويخصّونه بصدر المجلس ويبادرونه بالسلام والتحية، ويقبّلون رأسه أو يده، ويقدِّمونه عليهم في مختلف المواقع والمواقف... إلى ما هنالك من مراسيم وتقاليد متنوعة، وقد تتفاوت من مجتمع إلى آخر.

بالطبع، فإنّ احترام عالم الدين وتقديره أمر مطلوب، ومرغّب إليه شرعًا، كما

(١) سورة آل عمران، الآية:.١٥٩.

تدلّ على ذلك النصوص الواردة، لكن عالم الدين نفسه ينبغي ألّا يعطي لذلك اعتبارًا كبيرًا في نفسه، فتصبح تلك التشريفات وكأنها واجب على الناس نحوه، وأنها حق طبيعي له، ينزعج إذا ما قصّر أحد في أدائها تجاهه، فلو دخل مجلسًا ولم يقم له بعض الحاضرين، أو لم يفسحوا له صدر المجلس، أو لم يقدموه أو ما أشبه، فإن ذلك يجب ألّا يترك أثرًا في نفسه. وبعبارة أخرى، فإنه لا يبحث عن تلك التشريفات، ولا يهتم بها.

إن القيام عند قدوم المؤمن، وخاصة العالم، أو من كان من سلالة النبي ﷺ، أمر مستحب، فقد ورد عن إسحاق بن عمار قال: قلت لأبي عبد الله الصادق عليه السلام: من قام من مجلسه تعظيمًا لرجل؟ فقال عليه السلام: مكروه إلّا لرجل في الدين(١).

وقد ورد في السيرة النبوية أنه ﷺ كان يقوم احترامًا لبعض القادمين عليه، إلّا أنه ﷺ كان يكره قيام الناس له لشدة تواضعه.

جاء في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من أحبّ أن يمثل له الرجال قيامًا فليتبوأ مقعده من النار»(٢)، ورد هذا الحديث في سنن أبي داوود وفي وسائل الشيعة ومستدركها وبحار الأنوار.

وعن أبي أمامة قال: خرج علينا رسول الله ﷺ متوكئًا على عصا، فقمنا إليه، فقال: «لا تقوموا كما تقوم الأعاجم، يعظّم بعضها بعضًا»(٣).

وعن زيد الزرّاد في أصله قال: سمعت أبا عبد الله الصادق عليه السلام يقول: إنّ رسول

(١) بحار الأنوار. ج٧٢، ص٤٦٦.
(٢) أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني. سنن أبي داوود، الطبعة الأولى ١٩٨٨م، (بيروت: دار الجنان ـ مؤسسة الكتب الثقافية)، حديث ٥٢٢٩.
(٣) سنن أبي داوود. حديث ٥٢٣٠.

الله ﷺ خرج ذات يوم من بعض حجراته إذا قوم من أصحابه مجتمعون، فلما بصروا برسول الله ﷺ قاموا. قال لهم: اقعدوا ولا تفعلوا كما يفعل الأعاجم تعظيماً[1].

وعن أنس بن مالك قال: لم يكن شخص أحبّ إليهم من رسول الله ﷺ، وكانوا إذا رأوه لم يقوموا إليه لما يعرفون من كراهيته لذلك[2].

وقال أبو الدرداء: كان رسول الله ﷺ في بعض الأوقات يمشي مع الأصحاب فيأمرهم بالتقدم، ويمشي في غمارهم[3].

وعن أبي ذرٍّ الغفاري قال: رأيت سلمان وبلالًا يُقبلان إلى النبي ﷺ إذ انكبّ سلمان على قدم رسول الله ﷺ يقبّلها، فزجره النبي ﷺ من ذلك، ثم قال له: يا سلمان، لا تصنع بي ما تصنع الأعاجم بملوكها، أنا عبد من عبيد الله[4].

ونقل الشريف الرضي في نهج البلاغة أنّ الإمام عليًّا عليه السلام عند مسيره إلى الشام مرّ بالأنبار فترجّل له دهاقينها، أي زعماء الفلاحين، واشتدّوا بين يديه، فقال عليه السلام: ما هذا الذي صنعتموه؟ فقالوا: خُلقٌ منا نعظّم به أمراءنا. فقال: والله ما ينتفع بهذا أمراؤكم! وإنكم لتشقّون على أنفسكم، وتشقون به في آخرتكم[5].

وعن هشام بن سالم عن الإمام الصادق عليه السلام قال: خرج أمير المؤمنين عليه السلام على أصحابه وهو راكب، فمشوا خلفه، فالتفت إليهم فقال: لكم حاجة؟ فقالوا: لا

(١) الشيخ علي النمازي. مستدرك سفينة البحار، ج٨، طبعة ١٤١٨هـ، (قم: مؤسسة النشر الإسلامي)، ص٦٣٢.

(٢) بحار الأنوار. ج١٦، ص٢٢٩.

(٣) المصدر نفسه. ج٧٠، ص٢٠٦.

(٤) المصدر نفسه. ج٧٣، ص٦٣.

(٥) نهج البلاغة. قصار الحكم ٣٧.

يا أمير المؤمنين، ولكنا نحبّ أن نمشي معك، فقال لهم: انصرفوا فإنّ مشي الماشي مع الراكب مفسدة للراكب ومذلّة للماشي. قال: وركب مرة أخرى، فمشوا خلفه، فقال: انصرفوا فإنّ خفق النعال خلف أعقاب الرجال مفسدة لقلوب النوكى[١] أي الحمقى.

وحول الجلوس في صدر المجلس، وردت أحاديث كثيرة تشير إلى أنّ الرغبة في ذلك تكشف عن درجة من العُجْب والتعالي، وأنّ خلق التواضع يقتضي العزوف عن هذا الموقع، فعن رسول الله ﷺ: «إنّ من التواضع لله الرضا بالدُّون من شرف المجلس»[٢].

وعن الإمام الصادق عليه السلام: «التواضع أن ترضى من المجلس بدون شرفك، وأن تسلّم على من لاقيت، وأن تترك المراء وإن كنت محقًّا، ورأس الخير التواضع»[٣].

وروي عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: كان رسول الله ﷺ إذا دخل منزلًا قعد في أدنى المجلس حين يدخل، وأنه ﷺ قال: إذا أتى أحدكم مجلسًا فليجلس حيث ما انتهى مجلسه[٤].

هكذا فإنه يستحب للناس أن يبدوا الاحترام لعالم الدين، لكن عالم الدين ينبغي له ألّا يهتم بهذه المظاهر، ولا يبحث عنها أو يغضب من أجلها.

(١) بحار الأنوار. ج٤١، ص٥٥.
(٢) كنز العمال. حديث ٥٧٢٤.
(٣) بحار الأنوار. ج٧٢، ص١٢٣.
(٤) بحار الأنوار. ج١٦، ص٢٤٠.

احترام الناس وخدمتهم

يدرك عالم الدين أكثر من غيره موقعية الناس وكرامتهم في التعاليم الإسلامية، فقد منح الله تعالى التكريم لبني البشر بما هم بشر، وبغض النظر عن الامتيازات الفاضلة الأخرى التي ترفع درجة التكريم لمن توفرت فيه، لكن أصل التكريم محفوظ لجميع الناس، يقول تعالى: ﴿**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ**﴾[١].

فالناس العاديون وإن لم يتوفر لهم مستوى من العلم، لكنهم بشر لهم كرامتهم واحترامهم، فلا يصحّ للعالم أن يستهين بأحدٍ من الناس؛ لأنهم عوام جهّال.

إنّ الله تعالى يحبّ خلقه، ويحبّ من يحترمهم وينفعهم كما ورد في حديث قدسيّ رواه الإمام الصادق عليه السلام قال: قال الله عزّ وجلّ: «الخلق عيالي فأحبّهم إليَّ ألطفهم بهم وأسعاهم في حوائجهم»[٢].

وعنه صلى الله عليه وآله وسلم: «لا يزرأن أحدكم بأحدٍ من خلق الله فإنه لا يدري أيهم ولي الله»[٣]. وعنه صلى الله عليه وآله وسلم: «الخلق عيال الله فأحبّ الناس إلى الله من أحسن إلى عياله»[٤].

لذلك كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم والأئمة الهداة عليهم السلام يحرصون على إظهار أعلى درجات الاحترام والأدب تجاه أفراد الناس، فكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يلقي التحية والسلام حتى على الأطفال الصغار، ويعود المرضى، ويمشي في تشييع الجنازة، ويتفقّد الغائب من أصحابه، ويجيب الدعوة...

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٧٠.

(٢) الكافي. ج٢، ص١٩٩.

(٣) بحار الأنوار. ج٧٢، ص١٤٧.

(٤) كنز العمال. حديث ١٦١٧١.

وقد ورد أنّ نبي الله عيسى بن مريم عليه السلام قال: يا معشر الحواريين، لي إليكم حاجة فاقضوها لي. قالوا: قضيت حاجتك يا روح الله، فقام فغسل أقدامهم. فقالوا: كنا نحن أحقّ بهذا يا روح الله. فقال: إن أحقّ الناس بالخدمة العالم، إنما تواضعت هكذا لكيما تتواضعوا بعدي في الناس كتواضعي لكم[١].

وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يكره أن يستأثر بالراحة عن أصحابه، بل كان يشاركهم العمل والخدمة، كعمله معهم في بناء مسجد المدينة، ورآه أسيد بن حضير يحمل حجرًا على بطنه، فقال: يا رسول الله، أعطني أحمل عنك. قال صلى الله عليه وآله وسلم: لا. اذهب فاحمل غيره[٢].

وفي الطريق إلى بدر كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعلي بن أبي طالب ومرثد بن أبي مرثد يتعقّبون بعيرًا واحدًا، يركب كل منهم مدة ثم يتركه للآخر، فأراد علي ومرثد أن يتنازلا عن حصتهما في ركوب البعير له، وقالا: نحن نمشي عنك. فقال لهم صلى الله عليه وآله وسلم: «ما أنتما بأقوى مني على المشي ولا أنا بأغنى منكما عن الأجر». وأبى إلّا أن تكون حصته في ركوب البعير كواحد منهما.

وفي حفر الخندق كان صلى الله عليه وآله وسلم يضرب بالمعول، ويحمل التراب على ظهره كسائر المسلمين...

ورد في سيرة الإمام علي عليه السلام أنه «حينما كان حاكمًا على البلاد الإسلامية، وأميرًا للمؤمنين ورد عليه أب وابن، فقام إليهما وأكرمهما وأجلسهما في صدر المجلس وجلس بين أيديهما، ثم أمر بطعام فاحضر فأكلا منه، ثم جاء قنبر بطشت وإبريق

(١) بحار الأنوار. ج٢، ص٦٢.
(٢) بحار الأنوار. ج١٩، ص١١٢.

وخشب ومنديل لليبس، وجاء ليصبّ على يد الرجل فقام أمير المؤمنين عليه السلام وأخذ الإبريق ليصبّ على يد الرجل.

قال الإمام عليه السلام: اقعد واغسل، فإنّ الله عزّ وجلّ يراك وأخوك الذي لا يتميز منك ولا يتفضل عليك، يخدمك، يريد بذلك في خدمته في الجنة، مثل أضعاف أهل الدنيا وعلى حسب ذلك في مماليكه فيها.

فقعد الرجل، فقال له الإمام علي عليه السلام: أقسمت بعظيم حقّي الذي عرفته لما غسلت مطمئنًا كما كنت تغسل لو كان الصابّ عليك قنبر.

ففعل الرجل ذلك، فلما فرغ ناول الإبريق إلى ولده محمد بن الحنفية، وقال: يا بني، لو كان هذا الابن حضرني دون أبيه لصببت على يده، ولكن الله عزّ وجلّ يأبى أن يسوي بين ابن وأبيه إذا جمعهما مكان، ولكن صبَّ الأب على الأب فليصبّ الابن على يد الابن»[١].

وكان علي عليه السلام يمشي في الأسواق وحده يرشد الضال، ويعين الضعيف، وربما حمل عنه ثقله، وربما جلس في دكان صاحبه ميثم التمار يبيع عنه التمر.

ويتحدث الإمام الصادق عليه السلام عن جدّه الإمام علي بن الحسين عليه السلام فيقول: كان علي بن الحسين لا يسافر إلّا مع رفقة لا يعرفونه، ويشترط عليهم أن يكون من خدّام الرفقة فيما يحتاجون إليه، فسافر مرة مع قوم، فرآه رجل فعرفه، فقال لهم: أتدرون من هذا؟ قالوا: لا. قال: هذا علي بن الحسين، فوثبوا إليه يقبلونه ويعتذرون إليه، قائلين: ما الذي حملك على هذا؟ فقال: إني كنت سافرت مرة مع قوم يعرفونني

---

(١) السيد هادي المدرسي. أخلاقيات أمير المؤمنين عليه السلام، الطبعة الأولى ١٤١١هـ، (بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات)، ص١١٦.

فأعطوني برسول الله ﷺ ما لا أستحق، فأخاف أن تعطوني مثل ذلك، فصار كتمان أمري أحبّ إليّ"[١].

وهكذا يجب أن يكون عالم الدين حريصًا على احترام الناس، ساعيًا في خدمتهم، متواصلًا معهم، لا يقبل باستخدامهم لأموره الشخصية، ولا يستأثر بالراحة عليهم، بل يشترك معهم في الخدمة والعمل.

أما القول بأنّ العالم كالكعبة يُزار ولا يزور، ويُخدم ولا يَخدم، فذلك ما تخالفه سيرة الرسول ﷺ والأئمة الهداة عليهم السلام، وما تنفيه الأحاديث والنصوص الدينية.

الاستشارة واحترام الرأي

ما يتمتع به عالم الدين من مستوى في المعارف الدينية، مهما كان متقدمًا عاليًا، لا يغنيه عن آراء ذوي الخبرة والتجربة من الناس، في المجالات المختلفة، فهو يعرف الأحكام الشرعية، لكن تشخيص الموضوعات، وموارد التطبيق، ومعرفة الظروف، وأساليب التحرك والعمل، كلّ ذلك ينفعه فيه استشارة الآخرين، والاستفادة من آرائهم.

إنّ الاستبداد بالرأي، واحتكار القرار، فيما يرتبط بالشؤون العامة ومصلحة الناس، وفي القضايا الدينية والاجتماعية، أسلوب خطأ.

فللناس عقول، ولهم تجارب وخبرات، والاستشارة تعني الاستفادة من قدراتهم، وأيضًا فهي تشركهم في تحمّل المسؤولية، وتجعلهم أكثر ثقة وتفاعلًا.

لذلك يأمر الله تعالى نبيه محمدًا ﷺ على عظمته ومكانته أن يشاور من حوله،

---

(١) وسائل الشيعة، حديث ١٥١٧٧.

يقول تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾[١]. وقد ورد أنه ﷺ كان أكثر الناس استشارة لأصحابه.

واستشار الإمام الصادق عليه السلام مرة أحد أصحابه فقال له: أصلحك الله، مثلي يشير على مثلك؟! فأجابه الإمام عليه السلام: نعم، إذا استشير بك[٢].

ويتحدث الإمام علي الرضا عليه السلام عن أبيه الإمام موسى الكاظم عليه السلام فيقول: كان عقله لا يوازن به العقول، وربما شاور الأسود من سودانه، فقيل له: تشاور مثل هذا؟! فقال: إن شاء الله تبارك وتعالى، ربما فتح على لسانه[٣].

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٥٩.

(٢) بحار الأنوار. ج٧٢، ص١٠١.

(٣) المصدر نفسه.

المجتمع وعلماء الدين

يقاس تقدم المجتمع في أيّ مجال من المجالات بمقدار عدد المتخصصين فيه، والمتصدين له، فكلما كثر عدد الأطباء، كان ذلك مؤشرًا على تقدّم المستوى الطبي والصحي في المجتمع، وكذلك فإنّ كثرة الأدباء تنبئ عن ارتفاع المستوى الأدبي، وهكذا في سائر المجالات.

لأن هناك علاقة جدلية بين الأمرين، فلولا وجود اهتمام بذلك المجال، لما توجه إليه عدد كبير من أبناء المجتمع، كما أن كثرة المتوجهين لأيّ حقل من الحقول تكرّس الاهتمام به وتوّسع رقعته.

وعلى هذا الأساس يمكننا أن نعتبر نسبة عدد علماء الدين في البلاد واحدًا من أهم مقاييس الحالة الدينية في المجتمع؛ لأنه يكشف عن مدى اهتمام الناس بالدين، ومدى عمق الحالة الدينية وتجذّرها.

وكانت بلادنا المنطقة الشرقية قبل حوالي ثلاثة عقود من الزمن تعاني من قلّة

وجود علماء الدين، وضعف الإقبال على دراسة العلوم الدينية، فأكثر المدن والقرى لم يكن فيها عالم دين واحد، بل كان علماء الدين يعدّون على الأصابع في المنطقة، وأتذكر أنّ بعض العلماء في الهفوف أو المبرز كان يخصص ليلة في الأسبوع لهذه القرية أو تلك القرية، وفي بعض الأحيان ليلة من كل أسبوعين.

وفي القطيف كان بعض العلماء كالشيخ فرج العمران والشيخ عبد الحميد الخطي رحمهما الله تعالى، يقوم بجولة سنوية على بعض القرى، ويمكث في كل قرية بضعة أيام، لملْءِ شيءٍ من الفراغ في التوجيه الديني، الذي تعاني منه تلك القرى.

لكن، ومع الصحوة الدينية المباركة التي هبّ نسيمها على عالمنا الإسلامي، وشملت المنطقة بركاتها، أقبل عدد وفير من أبناء المنطقة وشبابها على دراسة العلوم الدينية، في بلادهم، وبالهجرة إلى أماكن الحوزات العلمية.

وبحمد الله تعالى فقد أصبحت بلادنا زاخرة بعدد طيّب من العلماء، وطلاب العلوم الدينية، ففي كل مدينة أو قرية هناك مجموعة منهم.

الدور المتوقع

إنّ مجتمعاتنا اليوم في حاجة ماسّة لتفعيل دور العلماء وطلاب العلوم الدينية، حيث تواجه طوفانًا من الإعلام والمعلومات، والثقافة الموجهة من قبل الحضارة الغربية المادية، بما تحمل من مفاهيم مغايرة، وما تبشّر به من قيم وأنماط سلوك مخالفة لقيمنا الإسلامية، وتعاليمنا الدينية. مما يستلزم نشاطًا معرفيًّا مكثّفًا، وجهدًا ثقافيًّا كبيرًا، لحفظ الهوية، وحماية القيم.

إنّ التطورات المتلاحقة في العلم والتكنولوجيا، تثير أمام شبابنا العديد من

التساؤلات العقدية والثقافية والأخلاقية، فلا بدّ من تصدّي العلماء العارفين بالدين، والواعين بمشاكل الحياة، للإجابة عن هذه التساؤلات والتحدّيات.

وهذا النشء الجديد من الفتيان والفتيات، الذي قد لا يتوفر له التوجيه الديني المطلوب ضمن العائلة والأسرة؛ نظرًا لانشغالات الوالدين، وتعدّد اهتماماتهما غالبًا، أو لمحدودية مستواهما، فإنه بحاجة إلى الاستيعاب والتوعية بقيم الدين وأحكامه، وإلّا كان عرضة للضياع والفساد، كما يحدث ذلك بالفعل لقطاع كبير من هذا الجيل.

وفي المجتمع مشاكل وقضايا تحتاج إلى التصدّي والمعالجة، والجهة الدينية بما يفترض لديها من وعي وإخلاص ونفوذ، هي الأقدر على تحمّل هذه المسؤوليات، والأكثر تفرغًا لها.

فالدور المتوقع من الوسط العلمي الديني هو بثّ معارف الإسلام، وتوفير التوجيه والتربية لجيل الناشئين، والتصدّي لمشاكل المجتمع وقضاياه.

واجب المجتمع

يتساءل البعض من الناس وهم يلحظون وجود عدد من المنخرطين في سلك العلوم الدينية، بزيّهم الخاص، ولباسهم المتميز، عن مدى الدور الذي يقوم به هؤلاء العلماء والطلاب؟ ويبالغون في تحميلهم المسؤوليات، وفي التوقعات المنتظرة منهم.

ومع الإقرار بما تتحمّل هذه الفئة الدينية من مهام ومسؤوليات، وما يقع على عاتقها من وظائف وأدوار، لكن ما يغيب الحديث عنه هو التذكير بواجب المجتمع

تجاه العلماء والطلاب.

فطالب العلم الديني إنسان متطوع لخدمة العلم والدين، يغامر بمستقبل حياته، حيث لا وظيفة مضمونة، ولا دخل ماليًّا ثابتًا يعتمد عليه، ولا مؤسسة رسمية ينتمي إليها، وهو يتحمّل الغربة والهجرة في طلب العلم، ويتحمّل مواجهة التحديات المختلفة، وهو مسؤول عن وضع عائلته وأسرته، مما يجعله في أمسّ الحاجة إلى الدعم والعون، من أجل تلبية متطلبات الحياة، ليعيش كسائر أبناء مجتمعه من متوسطي الحال، وعلى صعيد أدائه لمهامه الدينية والاجتماعية، فإنه بحاجة إلى مواقف التشجيع والمساندة، ليتمكن من القيام بواجب الدعوة والتبليغ.

فهناك حقوق متقابلة، وواجبات متبادلة، بين العلماء والطلاب من جهة، والمجتمع من جهة أخرى.

وليس صحيحًا أن يطلب العلماء من المجتمع الاحترام والدعم، دون أن يقوموا هم بواجب بذل العلم، ونشر المعرفة، والاهتمام بأمور المجتمع.

كما لا يصح من المجتمع أن يتوقع من العلماء كل تلك الأدوار والمهام، دون أن يقف إلى جانبهم، ويقدّم لهم ما يحتاجون من مساعدة وعون.

المبادرة من العالم

طالب العلم الديني وقد انتهل من معارف الإسلام، واستوعب قدرًا من علومه وتعاليمه، وعاش في رحاب كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ، وسيرة الأئمة الهداة عليهم السلام، واقترب من حياة العلماء الصالحين، الذين تتلمذ على أيديهم، أو سمع وقرأ عن جهادهم وتضحياتهم، بعد كل هذا يفترض فيه أن يكون مبادرًا لتحمّل مسؤوليته

تجاه الدين والمجتمع، يدفعه إلى ذلك خشيته من الله تعالى **﴿كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى الله مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾**[١]، ورغبته في ثوابه، وإدراكه لمدى التحديات والأخطار التي تحيط بالدين والمجتمع.

وإذا كانت تواجهه بعض المصاعب الحياتية، والعقبات في طريق العمل، فعليه أن يتحلى بالصبر والاستقامة، وأن يحتسب ما يعانيه عند الله تعالى، وأن يستحضر في ذهنه ونفسه ما تحمّله الأنبياء والأئمة والأولياء الصالحون في سبيل الله، ومن أجل خدمة الدين، فقد تحمّلوا الجوع والفقر والعناء وألوان الأذى والتنكيل، ولم يثنهم شيء من ذلك عن القيام بواجب الدعوة إلى الله **﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لاَ يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلاَ نَصَبٌ وَلاَ مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ الله وَلاَ يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلاَ يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ الله لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾**[٢].

والعلماء ورثة الأنبياء، ونوّاب الأئمة، وامتداد مسيرة الدعوة.

إنّ ما يراه طالب العلم في المجتمع من ضعف تجاوب واهتمام، هو نتيجة لقلّة التوجيه والتربية الدينية الإيمانية، وذلك يحمّله مسؤولية أكبر في العمل والإصلاح، وقد أثبتت التجارب مدى تأثير التحرك والنشاط الذي يقوم به العلماء والطلاب في تغيير واقع المجتمع، وجعله أكثر تفاعلًا واهتمامًا بقضايا الدين، وأكثر اقترابًا والتفافًا حول العلماء.

ذلك أن الناس إذا لاحظوا من العالم الإخلاص والجدّ، وحسن الأخلاق وسعة الصدر، ورأوا آثار توجيهه وتوعيته في أوساط أبنائهم ومجتمعهم، وتصدّيه لقضاياهم

---

(١) سورة فاطر، الآية:.٢٨.

(٢) سورة التوبة، الآية: ١٢٠.

ومشاكلهم، فإنهم سيقبلون عليه، ويلتفون حوله، ويبدون له كل دعم وتأييد.

التجاوب من المجتمع

حينما ندعو المجتمع لتقدير العلماء وطلاب العلوم الدينية، والالتفاف حولهم، والتجاوب معهم، فليس ذلك من أجل أشخاصهم، ولا لتوفير المكاسب الذاتية لهم، وإن كان العلم يستحق الإجلال والتقدير، لكن الهدف المقصود هو استثمار وجودهم، والاستفادة من الدور الذي يقومون به لمصلحة المجتمع.

وقد تكون هناك ملاحظات يبديها بعض الناس تجاه بعض العلماء وطلاب العلوم الدينية، وتتعلق بالمستوى العلمي والثقافي، حيث يلحظون شيئًا من النقص والقصور لدى بعض الطلاب، وخاصة في مواكبة التطورات الفكرية والعلمية المعاصرة، مما يضعف قدرتهم في التخاطب مع المثقفين، والجيل المتعلم المنفتح على العصر. وملاحظات أخرى ترتبط بسلوكيات وأخلاقيات التعامل، كالتعاطي بطريقة فوقية مع الناس، واستخدام أسلوب الهيمنة والاستبداد دون إتاحة الفرصة للحوار والنقاش، وبالتالي عدم احترام الرأي، وقبول النقد من الآخرين.

ولسنا بصدد ردّ هذه الملاحظات أو رفضها، فأفراد هذه الطبقة ليسوا معصومين، وكأيّ شريحة من شرائح المجتمع، تتفاوت فيها المستويات، وتكون فيها عناصر غير ملتزمة أو غير لائقة.

تجد هذا الأمر في الأطباء والمهندسين والمعلمين وغيرهم، حيث فيهم المتفوق، ومتوسط المستوى، وضعيف الكفاءة، وفيهم المخلص الأمين، والمتساهل، وسيئ التصرف.

ولكن، لا يصحّ التعميم، وأخذ انطباع عن الكلّ من خلال عنصر أو أكثر.

من ناحية أخرى، فإنّ بعض الملاحظات يمكن معالجتها بالنصيحة والترشيد، وبعض طلاب العلوم الدينية قد تعوزه الخبرة والنضج، لحداثة تجربته الاجتماعية، فإذا ما أعطي الفرصة الكافية، وقدّمت له النصيحة والنقدّ البناء، فسيتجاوز ما يعانيه من ضعف أو نقص.

إنّ الدراسة العلمية النظرية شيء، والممارسة التطبيقية الاجتماعية شيء آخر، فمهما درس طالب العلم الديني، وحقّق من تقدّم علمي، فإنه بحاجة إلى فترة من الخبرة والتجربة العلمية، لتُصقل مواهبه، وتتكامل شخصيته.

فإذا ما رأينا نقصًا أو ضعفًا عند أحدهم، فلا يصحّ أن نلغيه من الحساب، ونسقطه من الاعتبار، بل علينا أن نساعده في تجاوز ضعفه، وتلافي نقصه.

تقدير الكفاءة

مما يُفخر به في بلادنا، ويستحق الاعتزاز والفخر، بروز مجموعة من الكفاءات والقدرات العلمية الناضجة، خلال هذه الفترة، فيهم العالم الفاضل، والخطيب المتميز، والمفكر العارف، والكاتب القدير، والقيادي المتصدّي لأمور المجتمع.

وهذه نعمة كبيرة نشكر الله تعالى عليها، ويجب أن نقابلها بما تستحق من التفاعل والتجاوب، حتى تأخذ هذه الكفاءات مداها في خدمة الدين والوطن.

إن البعض من الناس لا تملأ عينه كفاءات بلده، وينبهر دائمًا بمن هم خارج بلده فقط، ويحصل أحيانًا أن يُبخس حق بعض الكفاءات لتصنيفات طبقية أو فئوية، فلأنه من أسرة ضعيفة الحال، أو من أتباع المرجع الفلاني، تتجاهل مكانته،

ولا تقدّر كفاءته، وهذا ظلم وعدم إنصاف، وحرمان للمجتمع من الاستفادة من طاقات أبنائه. إن الله سبحانه يحذّر وينهى عن بخس الحقوق، حيث يقول تعالى: ﴿**وَلاَ تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ**﴾(١). وقد تكرّر هذا النص ثلاث مرات في القرآن الكريم، في سورة الأعراف آية ٨٥، وسورة هود آية ٨٥، وسورة الشعراء آية ١٨٣.

والبخس هو إنقاص الحق، سواء كان حقًّا ماديًّا أو معنويًّا، والتعبير بـ ﴿**أَشْيَاءَهُمْ**﴾ يشمل الجانبين المادي والمعنوي لأي إنسان، مسلمًا كان أو كافرًا، ﴿**وَلاَ تَبْخَسُوا النَّاسَ**﴾.

(١) سورة الأعراف، الآية: ٨٥.

آفاق أخرى للعمل الديني

حينما يتوجّه إنسان إلى دراسة علوم الشريعة، وينتمي إلى سلك علماء الدين، فهذا يعني أنه قد نذر نفسه لخدمة الإسلام، وأصبح جنديًّا متطوعًا لنشر العقيدة والمبدأ؛ ذلك لأن المعرفة بالدين والعلم بأحكامه، تحمل الإنسان مسؤولية التبليغ والتعليم، فالتفقّه في الدين مقدمة لإنذار الناس وتوجيههم، كما يقول تعالى: **﴿فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُواْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾**(١).

فبمقدار ما يتعلّم الإنسان من الدين، عليه أن يبذل علمه للآخرين، وكلما كان نصيبه من العلم أكثر، بنفس القدر تتضاعف مسؤوليته في نشر معارف الدين، وتوضيح أحكامه ومفاهيمه.

وخاصة في الظروف الحسّاسة حينما يحصل انحراف عن المنهج القويم أو تحريف

(١) سورة التوبة، الآية: ١٢٢.

في شيء من أصول الرسالة ومبادئها، أو حينما تعصف بالأذهان شبهات الأعداء، وتضليلات المخالفين، فإنّ وظيفة العلماء وواجبهم في تبيين الحقائق والدفاع عن المبادئ يصبح أكثر ضرورة وإلحاحًا.

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلعَنُهُمُ الله وَيَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ**﴾[١].

وورد في الحديث عن رسول الله ﷺ: «إذا ظهرت البدع في أمتي فليظهر العالم علمه فمن لم يفعل فعليه لعنة الله»[٢].

وإذا كانت وظيفة العالم تبيين حقائق الدين، والدفاع عن مبادئه، فإنّ تجلّيات القيام بهذه الوظيفة، والاضطلاع بهذا الدور، يكون على صور وأشكال مختلفة، وعبر أساليب ووسائل متعددة، حسب اختلاف الظروف والأوضاع الزمانية والمكانية والاجتماعية.

الدور المألوف

لكن الملحوظ أنّ هناك أدوارًا مألوفة وتقليدية يمارسها أغلب المنتمين إلى سلك العلوم الدينية، ففي الحوزات العلمية غالبًا ما يتوجّه أكثرية العلماء والطلبة إلى الدرس والتدريس، والبحث في علمي الفقه والأصول، والتصدّي للمرجعية والإفتاء.

وفي المجتمع عادة ما ينحصر دور عالم الدين في المحراب والمنبر، وما يتبع ذلك

(١) سورة البقرة، الآية: ١٥٩.

(٢) وسائل الشيعة. ج١٦، ص٢٦٩، حديث ٢١٥٣٨.

من إجراء العقود، وقبض الحقوق الشرعية، والإجابة عن المسائل الفقهية، وهذه الأدوار مطلوبة ومهمة، لا يمكن الانتقاص منها ولا الاستغناء عنها، لكن ما يستوجب الملاحظة والاهتمام هو انحصار التوجه والتصدي في حدود هذه الأدوار المألوفة والمتعارفة، مع وجود فراغ وحاجة ماسّة في بقية الجوانب والمجالات.

فمثلًا على الصعيد العلمي يبذل العلماء في الحوزات الدينية جهودًا ضخمة من أوقاتهم وأفكارهم في بحث مسائل الفقه والأصول، ويتمتعون بعقلية وقادة، وعمق مدهش، في استقصاء كلّ الاحتمالات والافتراضات ومناقشتها بجدّية وإتقان، وهذا يدعو إلى الاعتزاز والافتخار ببراعتهم وإخلاصهم العلمي.

وظائف شاغرة

لكن التقدم العلمي الكبير في مجالي الفقه والأصول لم يواكبه تقدم في مجالات العلوم الشرعية الأخرى، كعلم التفسير، والحديث، والعقائد، والتاريخ، والاجتماع، والأخلاق.

نعم، هناك مبادرات فردية رائدة في بعض هذه المجالات، كتوجّه العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي لتفسير القرآن حيث أنجز تفسيره الرائع (الميزان) فشكّل به إضافة ذات قيمة عالية في مجال التفسير، وكذلك توجه العلامة الشيخ عبدالحسين الأميني في مجال العقائد عبر موسوعته المهمَّة (الغدير)، واهتمام الشيخ آغا بزرك الطهراني برصد مؤلفات وأبحاث علماء وأدباء الطائفة الشيعية، حيث أصدر موسوعته (الذريعة)، ولا بدّ من الإشارة إلى بحوث الشهيد السيد محمد باقر الصدر الإبداعية في مجالات الفلسفة والاقتصاد والمنطق في كتبه الثلاثة (فلسفتنا ـ

اقتصادنا ـ الأسس المنطقية للاستقراء).

لقد كان بإمكان السيد الطباطبائي والشيخ الأميني والشيخ آغا بزرك الطهراني، أن يجاروا أقرانهم وأندادهم من العلماء الفقهاء في الانشغال بأبحاث الفقه والأصول، وفي التصدي لمقام الإفتاء والمرجعية، لكنهم شخّصوا الحاجة والفراغ في المجالات الأخرى، فاتجهوا لها، ووظّفوا حياتهم لخدمتها، فجزاهم الله عن الإسلام وأهله خير الجزاء.

لكن أمثال هذه الشخصيات محدودة، وتعدّ على الأصابع، في مقابل توجّه المئات من العلماء المحققين البارعين للمجال المألوف والمعتاد في الحوزات العلمية.

وأكرر هنا أني لا أقصد التقليل من مكانة أيّ عالم خدم الشريعة في أيّ مجال من مجالات العلم، ولا أنكر أهمية علمي الفقه والأصول، ولا أستهين بدور الإفتاء والتصدي المرجعي، لكني أعتقد بضرورة ملء الفراغات المعرفية الأخرى أيضًا، وتطوير أبحاثها، ومعالجة إشكالاتها ومسائلها، بنفس الدرجة من العمق والاهتمام الذي ينصبّ على علمي الفقه والأصول.

هذا على صعيد الحوزات العلمية.

وظائف اجتماعية

وأما على الصعيد الاجتماعي، فإنّ هناك أدوارًا عديدة شاغرة ينبغي أن يتوجّه لها علماء وطلاب العلوم الدينية الذين يعملون في الوسط الاجتماعي، غير الدور التقليدي المألوف من منبر ومحراب، كما تقدم.

فمجتمعاتنا بحاجة إلى مؤسسات أبحاث ومراكز دراسات، ترصد أوضاع

المجتمع، وتتابع تطوراته، وتشخص احتياجاته الفكرية والتربوية، ثم تضع المناهج والبرامج التوعوية التثقيفية، وتعيد صياغة الأفكار والمفاهيم الإسلامية، بما يتواكب ويتناسب مع التحدّيات المعاصرة.

كما تشتدّ الحاجة في هذا العصر إلى المؤسسات الإعلامية الإسلامية، من قنوات فضائية، ومواقع على الإنترنت، وإصدار المجلات والجرائد، وتوظيف مجالات الفن لصالح قضايا الإسلام والأمة.

إنّ هذه الحقول وأمثالها ينبغي أن تتوجّه إليها الطبقة الدينية، وتهتم بها، وتتصدّى لملء الفراغ فيها.

لكن جزءًا كبيرًا من المشكلة يكمن في أن مجتمعاتنا لا تنظر لمثل هذه الأدوار بنفس نظرة التقدير والاحترام التي توليها لمن يتصدى للأدوار التقليدية المألوفة، وبالتالي لا تقدّم له الدعم والتشجيع المطلوب، مما جعل أكثرية أبناء السلك العلمي الديني لا يرون أنفسهم، ولا يشعرون بأدائهم لوظيفتهم وواجبهم إلّا ضمن هذه الأدوار المعتادة.

بالإضافة إلى أنّ تلك الأدوار التقليدية المألوفة، لها أعرافها وضوابطها الواضحة، ومن يتصدى لها يجد أمامه نماذج وتجارب كثيرة، تمنحه الاطمئنان، وتعطيه الخبرة، فهو ليس مقدمًا على مهمة غامضة، ولا دور مجهول.

بينما التوجّه للآفاق الأخرى، والتصدّي للمهام الجديدة، يصبح شبه مغامرة، وتكتنفه مختلف العوائق، ويحتاج إلى جهد كبير للتأسيس، وتوفير فرص النجاح. فلا يقدم على ذلك إلّا الواعون المستعدون لتحمّل الأعباء والمشاق في سبيل خدمة الأهداف الدينية السامية، ومن أجل إصلاح مجتمعاتهم وتقدمها.

علماء الدين بين التقديس والنقد

لا شك أنّ وجود فئة متخصصة في علوم الدين، ومهتمة بتبيين مفاهيمه وأحكامه للناس، هو أمر مطلوب وضروري في أيّ مجتمع ينتمي إلى الدين.

وبالإضافة إلى الدور المعرفي الذي تقوم به هذه الفئة ـ علماء الدين ـ فإنّ لها دورًا اجتماعيًّا مهمًّا، يتمثل في تحفيزها المجتمع للالتزام بالقيم والأخلاق، وفي كونها رموزًا وقدوات للناس، يتأسّون بها، ويلتفون حولها، مما يعزّز تلاحم المجتمع وتضامنه.

لذلك أوجب الإسلام وجود هذه الفئة في أوساط مجتمعات الأمة، بمقدار ما يستلزمه دورها ووظيفتها، على نحو الوجوب الكفائي، يقول تعالى: ﴿..**فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ**﴾[1].

لكن هذه الشريحة ـ علماء الدين ـ هي جزء من المجتمع، ومعرّضة للإصابة

(١) سورة التوبة، الآية: ١٢٢.

بمختلف الأمراض والنواقص التي قد تعرض لأيّ فرد من أبناء البشر، فهم حالة بشرية، لا تخلو من نقاط الضعف وموارد الخطأ.

لذلك، فإنّ النصوص الدينية في الوقت الذي تدعو فيه إلى احترام العلماء وتقديرهم، وأخذ تعاليم الإسلام منهم، يقول تعالى: ﴿**فَاسْأَلوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ**﴾[1]، فإنها في الوقت ذاته تدعو إلى اليقظة والانتباه، حتى لا يتسلّل إلى هذه الشريحة مشبوهون ومنحرفون، أو يستغل أيّ أحد من أفرادها مكانته وموقعيته على حساب المبادئ ومصلحة المجتمع، وحتى لا يتحول الخطأ الذي قد يقع من أحدهم عن قصد أو غير قصد إلى دين وتشريع.

وقد تحدثت كثير من الأحاديث والروايات الواردة عن النبي ﷺ، والأئمة الأطهار عليهم السلام، عن وجوب الحذر والحيطة من الانخداع بالعلماء غير الصالحين، أو قبول ما يتنافى مع قيم الدين بسبب التدليس والتحريف.

كما أنّ آيات القرآن الكريم التي تحدثت عن انحرافات وتحريفات بعض علماء الديانات السابقة، من اليهودية والنصرانية، تبعث برسالة تحذير وتنبيه لأبناء الأمة الإسلامية، حتى يأخذوا موقف الوعي والبصيرة في التعاطي مع هذه الظاهرة حين تحدث في وسط علماء الأمة.

ومن تلك الآيات الكريمة قوله تعالى: ﴿**وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ الله وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ الله وَيَقُولُونَ عَلَى الله الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ**﴾[2].

---

(١) سورة النحل، الآية: ٤٣.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٧٨.

فالآية تفضح دور قسم من علماء أهل الكتاب، الذين يعطون لآرائهم النابعة من أهوائهم وتوجّهاتهم المصلحية المنحرفة صفة القداسة الدينية، وكأنها أوامر شرعية، يقحمونها بين تعاليم وآيات الكتاب السماوي، ليوهموا الناس أنها نازلة من عند الله تعالى.

والتزامًا بالموضوعية والإنصاف، فإنّ القرآن الكريم لم يعمِّم التهمة على جميع علماء اليهود والنصارى، وإنما خصّ جزءًا منهم: ﴿**وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا**﴾.

وتشير الآية الكريمة إلى أنّ هذا الفريق من علماء السوء في جميع الديانات الإلهية، يتفنّنون في أساليب التضليل حتى لا يكتشف الناس خيانتهم للدين، وتحريفهم لنصوصه المقدسة، بمزج كلام من عندهم بالنصّ الديني، ﴿**يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ**﴾، حيث يقدّمون ذلك الكلام الزائف بالطريقة نفسها التي يقدمون بها النص المقدس، ﴿**لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ**﴾، ليتوهم الناس أنّ ما قالوه هو جزء من الدين.

وقد يصرفون ألفاظ النص الديني إلى غير المعنى المقصود من قبل الله تعالى، كما تقول آية أخرى: ﴿**يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ**﴾[1].

خطر التحريف

إنّ من أسوأ الأخطار التي تصيب الدين هي الافتراء عليه من داخله، أي من العلماء الذين يعتبرهم الناس مصدرًا لتعاليم الدين وأحكامه، فيصدّرون للناس فتاوى وآراءً تخالف قيم الدين ومصلحة الأمة، بدوافع مصلحية، لخدمة الذات،

(١) سورة المائدة، الآية:١٣.

أو انحيازًا لمصلحة فئة، أو تعصبًا لمذهب واتجاه، وينسبون تلك الفتاوى والمواقف للدين، ويعطونها صفة التكليف الشرعي.

وقد رأينا في عصرنا الحاضر كيف أدّت بعض الفتاوى والآراء إلى نشوء توجّهات إرهابية، تمارس العنف ضد الأبرياء، وتستبيح الدماء، وتنتهك الحرمات، خارج الأمة وداخلها.

كما رأينا مواقف التعبئة والتحريض الطائفي بعناوين دينية، كحماية العقيدة، ومحاربة الشرك والبدع، والدفاع عن المذهب، وما أنتجته من مشاريع فتن وتمزيق ونزاع واحتراب.

وفي داخل المذاهب تحصل صراعات تستخدم فيها الفتاوى الدينية بين الأطراف المختلفة في الرأي أو المصلحة، مما يتنافى مع حقوق الأخوة الإيمانية، ويتعارض مع احترام حق الاجتهاد واختلاف الرأي، ويجعل مجتمع المؤمنين ساحة نزاع وصراع.

وفي موارد كثيرة جرى توظيف الدين من قبل البعض لخدمة مواقف وتوجّهات سياسية.

إنّ هذه المشاهد المؤلمة المؤسفة هي بعض نتائج سوء الممارسة في الوسط الديني، بعناوين وتبريرات تنسب إلى الدين.

حتى إنه يمكن القول: إنّ بعض أوساط هذه الفئة من علماء الدين بدل أن تساهم في حلّ مشاكل الأمة، أصبحت مصدرًا لمشاكل إضافية عويصة، وبين وقت وآخر نرى انشغال الحالة الدينية في هذه المنطقة أو تلك بالخلافات الداخلية التي تربك ساحتها، وتسبب ردود فعل سلبية تجاه الدين والمتدينين.

وإذا كان حدوث مثل هذه الحالات والظواهر أمرًا متوقّعًا؛ لأنّ أفراد هذه الشريحة ـ علماء الدين ـ ليسوا ملائكة ولا معصومين، وليسوا بعيدين عن التأثر بأوضاع وأجواء محيطهم الاجتماعي، فإنه لا بدّ من وجود آليات للحدّ منها، ولتحصين المجتمع من آثارها السلبية.

وسنعرض الحديث عن بعض الآليات والوسائل التي يمكن الإفادة منها في مواجهة هذه الظواهر:

التربية الأخلاقية

يتركز اهتمام الدروس في الحوزات العلمية، والمعاهد الدينية، على الإعداد العلمي لطلابها، وغالبًا ما يهمل جانب التربية الروحية الأخلاقية، مما يفسح المجال لنمو النزعات الفردية الأنانية، وتسرب التوجّهات المصلحية، وقد يأتي بعض الطلاب للدراسة الدينية من بيئة غير صالحة، أو دون سابق إعداد تربوي، كما قد تسعى بعض الجهات المناوئة لزرع عناصر مغرضة في الوسط العلمي، أو للتأثير على بعض الأفراد فيها.

كلّ ذلك يوجب ضرورة التركيز والاهتمام برعاية الجانب التربوي الأخلاقي، لطلاب العلوم الدينية. وقد أكد هذه الضرورة عدد من كبار المراجع والعلماء، وحذّروا من تجاهلها، كالشهيد الثاني زين الدين العاملي ٩١١ـ٩٦٥هـ في كتابه منية المريد في آداب المفيد والمستفيد، والإمام الخميني في محاضراته عن الجهاد الأكبر جهاد النفس، والمرجع الراحل السيد الشيرازي في كتابه إلى وكلائنا في البلاد، وكثير من كتبه ومحاضراته.

مأسسة الحالة الدينية

تعاني الحالة العلمية الدينية في معظمها من غياب الأطر المؤسّساتية، مما يكرّس التوجه الفردي عند علماء الدين، بدءًا من مرحلة الدراسة، حيث لا توجد في غالب الحوزات العلمية عند الشيعة أنظمة ملزمة، بل يختار الطالب بحريّته نوع ومكان وعدد دروسه، وشخصيات مدرّسيه، ولا أحد يحاسبه على حضوره وغيابه، ولا تحديد لمدة دراسته وتخرجه، أو انتقاله من مرحلة علمية إلى أخرى.

صحيح أنّ هناك أعرافًا وتقاليد سائدة في الوسط الحوزوي، لكنها ليست ملزمة، وخاصة لمن يرغب في تجاوزها.

وربما كانت هذه الحرية المفتوحة في الحوزات العلمية ملائمة لعصور وظروف سابقة، أو كانت لتجاوز محاولات بعض السلطات للَّهيمنة على الحوزة، مما دفع بعض قياداتها لرفع شعار: أنّ الحوزة نظامها اللا نظام.

لكن الظروف الحاضرة، والتطورات في الحياة الاجتماعية، تفرض وجود قوانين ناظمة لأوضاع الحوزات، وحامية لها من الاختراقات والتسيّب.

وقد بدأ هذا التوجه يفرض نفسه، وخاصة في حوزة قم العلمية، مع ممانعة لا تزال قائمة في بعض الأوساط التقليدية.

وحين يعود طالب العلم إلىٰ مجتمعه ليقوم بدوره الديني، فإنه لا يرتبط بأيّ جهة أو مؤسّسة ترعى دوره وتراقب تجربته، لا من قبل الحوزة العلمية التي تنقطع صلتها به، ولا من قبل أيّ إطار مؤسّسي في منطقته لعدم وجود مثل ذلك غالبًا.

فيبدأ تجربته بمفرده، وقد يواجه في بعض الأحيان مشاعر غير إيجابية من العلماء السابقين له في منطقته، باعتباره منافسًا لهم، أو مختلفًا عنهم في بعض توجّهاته وانتماءاته.

كلّ ذلك يخلق الأرضية لنمو التوجّهات الأنانية والاهتمامات المصلحية، والممارسات غير الأخلاقية في الوسط الديني.

إنّ وجود رعاية من كبار العلماء في كلّ منطقة للحالة الدينية فيها، باحتضان جميع العلماء والطلبة، ومساعدتهم علىٰ أخذ أدوارهم ومواقعهم، ودعمهم في أداء وظائفهم ورسالتهم، وتفقد أمورهم وشؤونهم الحياتية، وتوفير أجواء المشاورة والتناصح فيما بينهم، وتشجيعهم على التعاون والتكامل، يساعد كثيرًا على تجاوز السّلبيات، ويمكّن من الاستفادة من الطاقات، وبذلك تتقدم الحالة الدينية وتتطور.

كما أنّ المتوقع من المرجعية الدينية أن تضع نظامًا للتواصل بينها وبين العلماء والوكلاء في المناطق والأطراف، لتواكب مسيرتهم، وتراقب أداءهم، وتعطي التوجيهات اللازمة لمعالجة السلبيات والأخطاء التي قد تحصل في أوساطهم، حتى لا تنحصر العلاقة بهم في إطار قبض الحقوق الشرعية والإجابة عن الاستفتاءات.

تحصين المجتمع بالوعي

تركيز مكانة عالم الدين في المجتمع أمر مطلوب، واحترام الناس له مما حثّت عليه النصوص الدينية، لتعزيز موقعية الدين.

لكن وجود ظواهر سلبية في الوسط الديني تهدِّد بأخطار وأضرار بالغة، من أبرزها:

– فقدان الحالة الدينية لمصداقيتها، وحصول نفور عند البعض من الدين، كردّ فعل لهذه الظواهر السلبية.

– انخداع الناس بنماذج غير صالحة ضمن هذا الوسط، يعطي هذه النماذج الفرصة لاستمراريتها في الخطأ ولخدمة توجّهاتها الخاطئة، ويقود أتباعها إلى الطريق الخاطئ.

– تتعرض الساحة الدينية للهزّات والإرباكات وتنشغل بالمشاكل والأزمات الداخلية.

ومما يبدو لنا من نهج القرآن الكريم، والأحاديث النبوية، والروايات الواردة عن الأئمة الأطهار ﰈ، هو ضرورة تحصين المجتمع بالوعي، حتى لا يتعامل الناس مع كل عالم دين بالتقديس المطلق والثقة العمياء، بل لا بدّ من إعمال العقل، واستخدام الفكر، والنظر إلى الأشخاص والأدوار والممارسات بعيون مفتوحة، وبصيرة واعية.

فقيم الدين واضحة، ومصالح المجتمع تدركها العقول، ولا قداسة مطلقة لغير المعصوم.

وهذه هي الرسالة التي تريد إيصالها الآيات الكريمة التي تتحدث عن فساد وانحراف قسم من علماء أهل الكتاب، كقوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ الله**﴾[1].

إن توجيه الخطاب للذين آمنوا هو لتحذيرهم من حصول مثل هذه الظاهرة في طبقتهم الدينية.

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٣٤.

كما أنّ هناك عددًا كبيرًا من الأحاديث والروايات التي تحذّر من علماء السوء.

روي عنه ﷺ أنه قال: «ويلٌ لأمتي من علماء السوء»[١].

وجاء عن الإمام موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام: «لا علم إلّا من عالم رباني، ومعرفة العالم بالعقل»[٢].

أي إنّ على الإنسان أن يستخدم عقله لتقويم العلماء، ومعرفة الجدير بالاقتداء منهم، وتمحيص توجهاتهم.

النقد البنّاء

السكوت على الأخطاء يراكمها، وقد يصدر الخطأ بسبب غفلة أو اشتباه، فوجود ناصحين ناقدين يدفع للتراجع عن الخطأ، كما أنّ شعور أيّ جهة بأنها معرضة للنقد وأنّ أعمالها تحت المجهر، يجعلها أكثر اهتمامًا بضبط ممارساتها حفاظًا على سمعتها وموقعيتها.

ومن مشاكل ساحتنا الدينية رفضها للنقد، والتشكيك في أيّ ناقد أنه ضد الدين، ومناوئ للحالة الدينية، واعتبار النقد سببًا لإضعاف دور العلماء وإسقاط مكانتهم، وتحقيقًا لأهداف أعداء الدين والأمة.

وهذا التفكير ليس صحيحًا، وليس مقبولًا؛ لأنه يخالف نهج القرآن والنصوص الدينية الأخرى، ويخالف منطق العقل، فالنقد والمعارضة سبب لاكتشاف الخطأ، ودافع لتصحيحه في كلّ مجال من المجالات.

---

(١) كنز العمال. حديث ٢٩٠٨٤.

(٢) مستدرك الوسائل. ج١١، الطبعة، ص٢٥٨، حديث ١٢٩٢٦.

وما أحوج ساحتنا الدينية إلى النقد البنّاء، فهو البديل الصحيح عن التهريج والتعبئة بين الأطراف المختلفة، وهو الذي يتيح فرصة التغيير والتطوير إلى الأفضل.

إنّ عالم الدين يجب أن يشجع من حوله على النقد وإبداء وجهات نظرهم، ليستفيد من ذلك في إصلاح ذاته، وإنجاح دوره، لا أن يفرض عليهم الرهبة والهيبة التي تمنعهم من إبداء آرائهم وانطباعاتهم.

فقد ورد أنّ رسول الله ﷺ، حين رأى إعرابيًا قد أخذته الرهبة منه ﷺ، قال له: «هوّن عليك إنما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد في مكة»[1].

بل إنّ على عالم الدين أن يضع برنامجًا لإشراك الناس معه في اتخاذ القرارات وإدارة الشؤون الدينية التي يقوم بها، وأن يتّسع صدره للنقد والاعتراض، فقد أمر الله رسوله محمدًا ﷺ، على عصمته وكماله، أن يستشير مَنْ حوله، يقول تعالى: ﴿**وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ**﴾[2].

من جانب آخر، فإنّ على الواعين من أبناء المجتمع ألّا يتردّدوا في إيصال نقدهم وإبداء ملاحظاتهم لعلماء الدين، وأن يجهروا لهم بآرائهم الناقدة، ما دام الهدف هو الإصلاح وحماية المصلحة الدينية.

(١) محمد بن عبدالله الحاكم النيسابوري. المستدرك على الصحيحين، ج٢، الطبعة الأولى ١٤١١هـ، (بيروت: دار الكتب العلمية)، ص٥٠٦، حديث٣٧٣٣.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٥٩.

الفصل الرابع

علماء الدّين والشأن السّياسي

الإنسان كائن سياسي

يتميز الإنسان عن سائر الحيوانات والكائنات بفكره وإرادته، فقد منحه الله تعالى القدرة على التفكير، وأعطاه نعمة الحرية والاختيار.

وبمقدار ما يمارس الإنسان هاتين الميزتين، ويفعِّلهما في حياته، يكون مستوى إنسانيته. فإذا ما تخلى عنهما واسترسل في حياته دون إعمال فكر ولا ممارسة إرادة فإنه يفقد إنسانيته ويكون «كالبهيمة المربوطة، همها علفها، أو المرسلة شغلها تقمّمها، تكترش من أعلافها، وتلهو عما يراد بها»[1]، على حدِّ تعبير الإمام علي عليه السلام.

بل يكون أحطّ قدرًا من البهائم؛ لأنها جبلت على ذلك، بينما تنازل هو عن مكانته وكرامته، يقول تعالى: ﴿**إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا**﴾[2].

ولو تلمّسنا الفرق بين حياة بهيمة من الأنعام، ضمن قطيع من البهائم، وبين

---

(١) نهج البلاغة. كتاب ٤٥.

(٢) سورة الفرقان، آية: ٤٤.

حياة إنسان وسط مجتمعه، لكان الفارق الجوهري يكمن في وجود إدراك ورأي لدى الإنسان عما يحيط به، ويحدث حوله. بينما لا تدرك البهيمة شيئًا مما يكتنفها من ظروف وأوضاع، فلا قابلية لها أن تعرف مالك القطيع، ولا جغرافية المرعى، ولا ما يسود واقعها من أحوال.

وإذا كان الإنسان مدركًا لتأثره وتأثيره فيما يحيط به، ومهتمًّا بملاحظة ما يجري حوله، فإنه يدرك بوضوح أنّ أقوى الجهات والجوانب تأثيرًا في حياته هي جهة السلطة والقرار السياسي.

حيث يتسع ويمتد تأثير هذه الجهة ليطال مختلف جوانب حياة الإنسان، بدءًا من لقمة عيشه، وانتهاءً بحقه في الحياة والوجود. فالاقتصاد والتعليم والصحة والثقافة، وحتى الجانب الديني، وسائر الجوانب الأخرى، تتأثر بالقرار السياسي بشكل أو بآخر.

يقول أحد الكتاب: (يظلّ عمل السياسي شاملًا ومتنوعًا شمول الحياة وتنوعها، فيتناول جميع فروع الحياة من أصغرها إلى أكبرها. فقد تمسّ سلطة التقرير السياسي مصير ينبوع من الماء في حديقة المنزل، كما تمسّ مصير ينبوع الحياة في نفس الإنسان، وقد تتعلق بها حياة الطيور كما تتعلق بها حياة الأمة بكاملها)[١].

وتعبيرًا عن تأثير السلطة السياسية الشامل يقول الإمام علي عليه السلام: «إذا تغيّر السلطان تغيّر الزمان»[٢].

وسأل الخليفة هارون الرشيد، معن بن زائدة يومًا: كيف زمانك يا معن؟ فأجابه

(١) الدكتور حسن صعب. علم السياسة، الطبعة السابعة ١٩٨١م، (بيروت: دار العلم للملايين)، ص٢٦.
(٢) نهج البلاغة. كتاب٣١.

معن: يا أمير المؤمنين، أنت الزمان، فإن صلحت صلح الزمان، وإن فسدت فسد الزمان.

ومن هنا قيل أيضًا: الناس على دين ملوكهم.

وإذا كانت السياسية وثيقة الصلة بتفاصيل حياة الإنسان، من حيث تأثيراتها وانعكاساتها، فمن الطبيعي أن تستقطب اهتمام الإنسان، انطلاقًا من اهتمامه بذاته، ودفاعه عن مصالحه.

والحد الأدنى من الاهتمام السياسي، لدى كلّ فرد، يتجلى في رأيه ومشاعره، تجاه السلطة السياسية وقراراتها، وممارساتها، وخاصة تلك التي تلامس أوضاعه، ومصالحه بشكل مباشر.

وقد يعبر عن تلك المشاعر والآراء، أو يتكتم عليها، لكنه لا يمكن أن يخلو منها فـ(كلّ ما يخطر للإنسان حول تنظيمه السياسي كما هو، وكما يجب أن يكون عليه، يمكن أن نعتبره أفكارًا سياسية، ولذلك كل إنسان هو في الواقع مفكر سياسي، من حيث يدري أو لا يدري؛ لأن كلّ إنسان لا يخلو من شعور ما تجاه تنظيمه السياسي، يحاول أن يمنطقه على طريقته الخاصة في فكرة ما)[1].

ولذا قال أرسطوطاليس (٣٨٤-٣٢٢ ق.م)، الملقب بالمعلم الأول وصاحب المنطق قال: إنّ الإنسان بطبعه حيوان سياسي[2].

وقد تتطور الحالة السياسية لدى الإنسان، من انبثاق المشاعر، وتكوين الرأي،

(١) علم السياسية، ص٤٦.

(٢) الدكتور عبد الرحمن بدوي. موسوعة الفلسفة، ج١، الطبعة الأولى ١٩٨٤م، (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر)، ص١٢٥.

إلى الإعلان عن الرأي، والتبشير به، وقد تتخطى ذلك إلى اتخاذ الموقف السياسي، بالممارسة العملية، أما المستوى المتقدم للحالة السياسية عند الإنسان، فيحصل عندما يتأتى له الوصول إلى مركز السلطة، وإصدار القرار السياسي، أو المشاركة في صنعه.

واللافت للنظر، أن نقرأ فيما ينقله لنا التاريخ، من تراث الإنسانية الموغل في القدم، ما يؤكد ضرورة الاهتمام بالشأن السياسي، من قبل كلّ فرد في المجتمع، كما في خطبة للقائد اليوناني (بريكليس ٤٩٠-٤٢٩ ق.م) جاء فيها: (ولا يعتبر الذين يمارسون الأعمال اليدوية غرباء عن السياسة، بل نحن الوحيدون الذين نعتبر الإنسان الغريب عن الشؤون العامة لا كشخص خلي البال بل كشخص لا خير فيه)[1].

والاهتمام السياسي، ليس شيئًا كماليًا، ولا أمرًا ترفيًا، بل هو من صميم وعي الإنسان لذاته، وحمايته لمصالحه وحقوقه، وجميل جدًّا ما عقده أحد الفقهاء من مقارنة وتمثيل بين اهتمام الإنسان بأمواله وممتلكاته، وبين اهتمامه بالقرار السياسي المؤثر على حياته فيقول:

(إنّ العقل العملي يشهد ويحكم بسلطة الناس على الأموال التي حازوها أو أنتجوها بنشاطاتهم، واستمرت سيرة العقلاء أيضًا على الالتزام بذلك في حياتهم ومعاملاتهم، ويحكمون بحرمة التعدي على مال الغير وكونه ظلمًا، وقد نفّذ الشرع أيضًا ذلك بحيث صار هذا من مسلمات فقه الفريقين، يتمسكون بها في الأبواب المختلفة.

---

(١) علم السياسية، ص٢٢.

(وروي في البحار عن عوالي اللئالي، عن النبي ﷺ أنه قال: «إنّ الناس مسلطون على أموالهم». وفى رواية أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام: «إن لصاحب المال أن يعمل بماله ما شاء ما دام حيًّا». الحديث.

إلى غير ذلك من الروايات التي يستفاد منها هذه القاعدة الشاملة. فإذا فرضنا أنّ الناس مسلّطون على أموالهم، بحيث يكون لهم التصرف فيها، إلّا ما حرّمه الله تعالى، وليس لغيرهم أن يتصرفوا في مال الغير إلّا بإذنه، فهم بطريق أولى مسلطون على أنفسهم وذواتهم. فإنّ السلطة على الذات قبل السلطة على المال بحسب الرتبة، بل هي العلة والملاك لها، حيث إن مال الإنسان محصول عمله، وعمله نتيجة فكره وقواه، فهو بملكه لذاته وفكره وقواه تكوينًا، يملك أمواله المنتجة منها، والله تعالى خلق الإنسان مسلطًا على ذاته حرًّا مختارًا، فليس لأحدٍ أن يحدد حريات الأفراد، أو يتصرف في مقدراتهم بغير إذنهم. وللأفراد أن ينتخبوا الفرد الأصلح ويولوه على أنفسهم)[1].

الإسلام والاهتمام السياسي

الإسلام كدين أنزله الله تعالى لإسعاد الإنسان بترشيد فكره، وتهذيب نفسه، وإصلاح سلوكه، ما هو موقفه من الاهتمام بالشأن السياسي؟

بالطبع، لا يمكن أبدًا أن يكبح عند الإنسان توجهه السياسي، ولا أن يحظر عليه الاهتمام بالشأن العام؛ لأن معنى ذلك أن يطلب منه التنازل عن أهم ميزات إنسانيته -كما سبق- وأن يشجعه على الاسترسال والخضوع للواقع المعيش دون أيّ وعي أو محاولة تأثير.

---

(١) حسين علي المنتظري. دراسات في ولاية الفقيه، ج١، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ، قم، ص٤٩٥.

ثم إنّ الإسلام جاء لإحقاق الحق، وإقامة العدل في حياة البشر، فلا بدّ أن يعبئ كلّ أتباعه لإنجاز ذلك الهدف، مما يعني توجيههم نحو الفاعلية والنشاط الاجتماعي، في كلّ ميادينه وعلى أعلى مستوياته.

وللإسلام برنامج ونظام في الحكم، وإدارة شؤون المجتمع، ولا يمكن أن يشق ذلك البرنامج طريقه للتنفيذ والتطبيق ما لم يتحمل أبناء الإسلام مسؤولية العمل من أجله.

لكل ذلك يمكننا القول بثقة: إنّ الإسلام يوجب على أبنائه الاهتمام بالشأن السياسي، ونلحظ موقف الإسلام هذا من خلال توجيهاته التي تحمّل المسلم مسؤولية ما يحدث في المجتمع، وتطالبه بالتصدي للقضايا والشؤون العامة.

يقول تعالى: ﴿**وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْؤُولُونَ**﴾[١].

ويقول ﷺ: «ألا كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته» [٢].

وعنه أيضًا ﷺ:«من أصبح لا يهتم بأمور المسلمين فليس بمسلم»[٣].

ونلحظ ذلك جليًّا في تشريع فريضة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، التي هي واجبة عينًا على كلّ مسلم كوجوب الصلاة والصيام في بعض المراتب، وواجبة كفاية في المراتب الأخرى. يقول تعالى: ﴿**وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾[٤].

---

(١) سورة الصافات، الآية: ٢٤.

(٢) سنن أبي داوود، ج٢، ص١٣، حديث٢٩٢٨.

(٣) الكافي، ج٢، ص١٦٣.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٠٤.

﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾[(١)].

والمعروف الذي يجب على المسلم أن يأمر به هو كلّ ما فيه خير ومصلحة في جميع المجالات والميادين، والمنكر الذي يجب عليه مقاومته هو كلّ شرّ وسوء في كلّ الجوانب والحقول.

وكثيرة هي التعاليم والمفردات الإسلامية التي تتضمن مدلولات ووظائف سياسية، يخاطب بها الإنسان المسلم، كواجب النصيحة، وخاصة لأئمة المسلمين، وواجب رفض الظلم ومقاومته، وإقامة العدل، والدفاع عنه، ومناصرة المظلومين و المضطهدين.

وإذا كنا في السابق بحاجة إلى البرهنة والاستدلال على الجانب السياسي للإسلام، وعدم الفصل بين الدين والسياسة، فإننا الآن في غنى عن ذلك إلى حدٍّ ما بعد انبثاق الصحوة الإسلامية، وانتشار فكر الإسلام الأصيل.

وإذا كان المطلوب من كلّ فرد مسلم أن يهتم بالشؤون العامة والقضايا السياسية، فإنّ عالِم الدين لا يكفي منه مستوى الاهتمام الذي يؤديه سائر أفراد المجتمع، بل هو مطالب بأعلى درجات الاهتمام وأرفع مستوياته.

أولًا: لموقعه القيادي الذي تؤكده النصوص والأحاديث الدينية

كقوله ﷺ: «اللهم ارحم خلفائي» قيل: يا رسول الله، ومن خلفاؤك؟ قال: «الذين يأتون من بعدي يروون حديثي وسنتي»[(٢)].

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١١٠.

(٢) محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي. من لا يحضره الفقيه، ج٤، الطبعة الخامسة ١٣٩٠هـ، (طهران: دار الكتب الإسلامية)، حديث٩١٥، ص٣٠٢.

وعنه ﷺ: «إنّ العلماء ورثة الأنبياء»[١].

وقال الإمام علي عليه السلام: «العلماء حكّام على الناس»[٢].

وعنه أيضًا: «إنّ مجاري الأمور والأحكام علي أيدي العلماء بالله الأمناء على حلاله وحرامه»[٣].

وهذه الموقعية تفرض عليه التصدي لقضايا الأمة وشؤون المجتمع.

ثانيًا: للمسؤولية التي يضعها الإسلام على عاتق عالِم الدين:

حيث تعتبره الكثير من النصوص مسؤولًا بالدرجة الأولى عمَّا يحدث في المجتمع، فقد وجه الله تعالى التوبيخ واللوم لعلماء بني إسرائيل لأنهم لم يقاوموا الانحرافات الحادثة في عصرهم. يقول تعالى: ﴿**لَوْلا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ**﴾[٤].

وعن رسول الله ﷺ: «إذا ظهرت البدع في أمتي فليظهر العالِمِ علمه فمن لم يفعل فعليه لعنة الله»[٥].

ويقول الإمام على عليه السلام: «وما أخذ الله على العلماء إلا يُقارُّوا على كِظَّة ظالم ولا سغب مظلوم»[٦].

---

(١) الكافي. ج ١، ص٣٤.
(٢) غرر الحكم ودرر الكلم، حكمة ٥٠٦.
(٣) تحف العقول، ص١٧٢.
(٤) سورة المائدة، الآية: ٦٣.
(٥) الكافي. ج١، ص٥٤.
(٦) نهج البلاغة. خطبة٣.

وعن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: «أما ليحملن ذنوب سفهائكم على علمائكم»[1].

ثالثًا: والعالم بحكم معرفته بالدين، واطلاعه الواسع على مبادئه وتعاليمه:

فإنه يفترض فيه أن يكون الأكثر التزامًا بأحكام الدين وتوجيهاته، والأسبق لتطبيقها وتنفيذها، يقول تعالى: ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى الله مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ**﴾[2]، وبذلك يكون قدوة لغيره.

ومع وضوح هذه الحقائق، إلا أنّ غالبية علماء الدين لهم موقف سلبي تجاه الشأن السياسي، فلا يرون أنفسهم معنيين به، بل ينأون بمقامهم عن التلوث بقضايا السياسة والحكم.

وينطلق هذا الموقف من فهم متخلف خاطئ لدور الدين في الحياة، فهو عندهم تعاليم روحية أخلاقية لتحصيل الجنة في الآخرة، وليس نظامًا شاملًا لإدارة حياة البشر في الدنيا.

وطبقًا لهذا الفهم، فعالِم الدين معني بالشعائر والممارسات الدينية العبادية، وبالوعظ والإرشاد الأخلاقي.

وقد عمل الاستعمار الغربي كثيرًا للترويج لفكرة فصل الدين عن السياسة في أوساط المسلمين، كما هو حال الكنيسة المسيحية.

كما وجد الحكام المحليون في هذه الفكرة ضالتهم المنشودة، ليحكموا وفق رغباتهم وشهواتهم، دون أن يردعهم رادع أو يعترضهم معترض.

---

(١) بحار الأنوار، ج ٩٧، ص٨٦.

(٢) سورة فاطر، الآية: ٢٨.

إضافة إلى ذلك، فإن سياسية الاستبداد واحتكار السلطة المعمول بها في أكثر بلاد المسلمين، وما يرافقها من إرهاب وقمع، صيّرت الاقتراب من الشأن السياسي أمرًا بالغ الخطورة والضرر.

وظيفة التوعية السياسية

إنّ من أولى مهام علماء الدين: تبيين برامج الإسلام وأحكامه وتعاليمه في مجال السياسية والحكم. فما دمنا نعتقد بشمولية الإسلام، واستيعابه لجميع جوانب الحياة ﴿**وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ**﴾[1]. وإنه الدين الكامل ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا**﴾[2]، فلا بدّ أن تكون للإسلام أنظمته وبرامجه في مجال السياسية والحكم.

فمن يبين تلك الأنظمة والبرامج؟ ومن يستنبط الأحكام الشرعية في هذه الأمور؟

العلماء هم المكلفون بهذه المهمة، ولا يصح لهم التواني في القيام بها، طبقًا لميثاق الله تعالى المأخوذ عليهم ﴿**وَإِذْ أَخَذَ الله مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا**

(١) سورة النحل، الآية: ٨٩.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٣.

تَكْتُمُونَهُ ﴾[١].

لكنّ المؤسف جدًّا أن نرى العلماء يتوغلون ويتعمقون في بحث وطرح المسائل العبادية المحدودة، دون أن يقتربوا من بحث الشؤون السياسية والقضايا العامة للأمة.

إنّ الساحة الفكرية العالمية مزدحمة بالنظريات والطروحات التي تعالج التحديات الخطيرة المقلقة لبني البشر، وهناك الأفكار والبرامج المتصارعة حول قضايا السلطة وأساليب التنمية الاقتصادية وتوزيع الثروة، وحول وسائل التقدم الاجتماعي.. وقلّ أن ترى لعلمائنا مشاركة في هذا المعترك؛ لأنهم مشغولون ببحث وتمحيص مجموعة من القواعد الأصولية والمسائل الفقهية وبشكل مكرور ومعاد!!

ولما أتيحت الفرصة لعلماء الدين في إيران أن يطبقوا الشريعة الإسلامية، وجدوا أنفسهم أمام نقص واضح كبير في تقديم الحلول والمعالجات لمسائل الحكم وإدارة شؤون البلاد، على ضوء الآراء والبحوث الفقهية المتوفرة. كما صرح بذلك الشيخ هاشمي رفسنجاني -رئيس الجمهورية الإسلامية الإيرانية السابق- في حديثه عن العقد التي واجهت مجلس الشورى الذي تولى رئاسته خلال السنوات الأولى من تأسيسه يقول: (واجهنا في المجلس معضلة حقيقية تتمثل في التفاوت الهائل بين ما لدينا من فتاوى وآراء فقهية، وبين ما تحتاجه البلاد من تشريعات لضمان مصالح الناس، وضمان الحفاظ على حركة الدولة في الإطارات الدينية، فكلما أردنا وضع قانون لتنظيم قضية من القضايا الضرورية، واجهنا الإشكال الناشئ عن عدم وجود آراء فقهية، أو عجز الآراء الموجودة عن مطابقة المصالح الواضحة، نقوم بتشخيص موضوع معين، ونقترح بنودًا قانونية لمعالجته، نظن أنها تضمن مصالح الجمهور، لكن يشعر الإنسان من ثمَّ بالتردد تجاه ما إذا كانت بنود هذا القانون

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٨٧.

موافقة لحكم إسلامي ما..

(لقد طرح أمام المجلس قانون العمل على سبيل المثال، وبعد النقاش تم إقراره، لكن واجهتنا المعضلة ذاتها، إنّ بعض بنوده تبدو غير مطابقة لأحكام شرعية معينة، واجهتنا ذات المعضلة حينما عرض على المجلس قانون الضريبة، وواجهتنا حينما عرض على المجلس قانون العقوبات الإدارية، وكذلك الحال عندما عرض قانون التعاونيات وقانون ملكية الأرض، وقانون المدارس الخاصة التجارية والخيرية وغيرها، إنّ كل مسألة مهمة في البلد أدى طرحها إلى إثارة الجدل حول مطابقة القوانين المقترحة بشأنها لأحكام معينة في الشريعة أو فتاوى الفقهاء، وإذا لم يجر حل لهذه المعضلات والمفارقات، فإن عملًا مهمًّا على صعيد أسْلَمة القوانين وتنظيم أوضاع البلد لن يمكن إنجازه)[1].

وإذا كان هذا هو حال إيران التي تعجّ بالعلماء المجتهدين، وفيها أكثر من حوزة علمية كبيرة، وفي طليعتها حوزة قم التي تضم الألوف من الفقهاء والعلماء، ومع ذلك تعاني قياداتها الدينية وتشكو من النقص والقصور في مجال البحوث والمعالجات العلمية المناسبة لإدارة شؤون الدولة والمجتمع، فكيف هو الحال في سائر المجتمعات الإسلامية؟

فلماذا لم يتوجّه العلماء لبحث هذه القضايا والمسائل الأساس، بينما يتنافسون في إصدار المجلدات وعقد بحوث الخارج حول مسائل أصولية وفقهية، أُشبعت وقُتلت بحثًا وتحقيقًا؟

علمًا بأن هذه الثغرات والنواقص لم يكتشفها العلماء في إيران فجأة بعد انتصار

(١) مجلة حوزة. تبليغات إسلامي حوزة علمية، قم، عدد ٢٣.

الثورة الإسلامية سنة ١٩٧٩م، بل كان الإمام الخميني، وقبل انتصار الثورة بعقد من الزمن، أي سنة ١٩٦٩م، يهيب العلماء لسدّ هذه الثغرات والنواقص، وينتقد جمود الفقهاء في بحث مسائل محدودة مكرورة، وتجاهلهم لاستنباط الأحكام المتعلقة بشؤون السلطة والمجتمع..

قال في أحد دروسه سنة ١٩٦٩م: «أحبّ أن أوجه أنظاركم إلى التفاوت بين القرآن وكتب الحديث من جهة، وبين الرسائل العملية من جهة أخرى، القرآن وكتب الحديث، وهما من أهم مصادر التشريع يمتازان عن الرسائل التي كتبها المجتهدون والفقهاء امتيازًا شديدًا، لما في القرآن وكتب الحديث من الشمول لجميع جوانب الحياة، فالآيات ذات العلاقة بشؤون المجتمع، تزيد أضعافًا عن الآيات ذات العلاقة بالعبادات خاصة. وفي أيّ كتاب من كتب الحديث الموسعة لا تكاد تجد أكثر من ثلاثة أبواب أو أربعة تعنى بتنظيم عبادات الإنسان، وعلاقاته بربه، وأبواب يسيرة أخرى تدور في الأخلاق، وما سوى ذلك فذو علاقة قوية بالاجتماع، والاقتصاد، وحقوق الإنسان، والتدبير، وسياسة المجتمعات».

«نحن اكتفينا بمقدار يسير من الأحكام نبحث فيه خلفًا عن سلف، وطرحنا الكثير من مسائله وجزئياته ومفرداته، كثير من مسائله غريب علينا»[1].

فلماذا لم يقم الفقهاء بواجبهم في هذا المجال؟

إنّ بعضهم لا يرى أن ذلك من واجبه ومسؤولياته، بسبب نظرته الضيقة المحدودة للإسلام، وبعضهم يخشى على نفسه من قمع الحاكمين وبطش الجاهلين، إن اقترب من حريم السياسية، ولذلك فإنّ العلامة أبو الحسن الماوردي المتوفى عام

---

(١) روح الله الموسوي الخميني. الحكومة الإسلامية، ص٩،٦٥.

٥٤٠هـ، عندما وضع كتابه القيم (الأحكام السلطانية) أوصى بعدم نشره إلا بعد وفاته[١].

والشيخ النائيني (١٨٦٠-١٩٣٦م) بعدما طبع كتابه عن الحرية السياسية والشورى في النظام الإسلامي (تنبيه الأمة وتنزيه الملة) قام بسحبه من الأسواق تلافيًا للضغوط[٢].

يقول الشيخ المنتظري:

«كان الفقهاء مشردين غالبًا في شدة وتقية، فكانوا آئسين من رجوع الحكومة إليهم، ويرون كأنه بمنزلة أمر ممتنع. فكان البحث فيها وفي فروعها، وفي شرائط الحاكم ونحو ذلك عندهم بحثًا لغوًا وبلا فائدة. فلذلك لم يبحث فيها إلا بعض فقهائنا بنحو التطفل، وبالنسبة إلى التصرفات الجزئية، فترى الشيخ الأعظم الأنصاري قدّس سرّه مثلًا يبحث فيها بحثًا ما في مكاسبه في مسألة التصرف في حال الطفل..»[٣].

وهناك ميدان آخر للتوعية السياسية المطلوبة من العلماء وهو توعية الأمة بالواقع السياسي المعيش، بتنبيهها إلى ما يحيط بها من أخطار وتحديات، وتوجيه الناس إلى مسؤولياتهم تجاه دينهم ومصلحتهم العامة.

إنّ بعض العلماء يشتد به الغضب حينما يرى انتهاكًا لحكم شرعي من قبل أحد أفراد المجتمع، كما لو رأى امرأة سافرة، أو شابًّا يلبس الذهب أو شخصًا يستمع

(١) فاروق عبد السلام. الإسلام والأحزاب السياسية، طبعة ١٩٧٨م، (القاهرة: مكتب قليوب للطبع والنشر)، ص٢٤.
(٢) مجلة الموسم، المجلد الثاني، ص٤١.
(٣) دراسات في ولاية الفقيه، ج ١، ص٤٢١.

إلى الغناء.. ويبادر لإلقاء الخطب وكتابة المقالات حول هذا الفساد والانحراف الخطير.. لكنه لا يحرك ساكنًا ولا يجد نفسه معنيًا إزاء الانحرافات السياسية وفساد الأنظمة والقوانين..

لقد ثارت ثائرة أحد علماء المسلمين في (تمبكتو) غرب أفريقيا حينما رأى انتشار شرب الشاي في أوساط المتدينين هناك حيث يسمونه (الأتاء أو الأتاي) وكان هذا العالم يرى حرمة تناول الشاي، فاجتهد في إعلان غضبه على شيوع هذه المعصية حتى نظم فتواه شعرًا جاء فيه:

أتـاء شـاربه يلهـو كسـكرانا
ولا يـزال مـن الضـلال حيرانـا
أتـاء لم يـك مـن أفعـال سـيدنا
وتاليـه ولا مـن فعـل عثمانـا
ولا عـلي و لا الأصحـاب كلـه
والتابعـين لهـم عـدلًا وإحسـانا
أتـاء بدعـة أقـوام سـيورثهم
مـن بعـض مشربهـم فقـدًا وخذلانـا[1]

كان ذلك في الوقت الذي زحف فيه الاحتلال الفرنسي على (تمبكتو) دون أن يتحدث ذلك العالم كلمة يبين فيها حكم وواجب المسلمين تجاه السيطرة الأجنبية!!

(١) أزمة الوعي الديني. ص١٠٠.

التصدي السياسي

إنّ من الواضح لكل دارس لتعاليم الإسلام، وتاريخ قادته المصلحين، أنّ التصدي لإدارة شؤون الأمة وفق مناهج الدين، واجب شرعي، ومسؤولية دينية.

وما يبديه بعض العلماء من أنّ دخول ميدان العمل السياسي يعني حب الزعامة وطلب الرئاسة، ويسبب التلوث بأعراض السياسية وأمراضها كالمكر والخداع، مما يخالف حالة الزهد والتقوى والقداسة التي يجب أن يحافظ عليها العالم الديني في شخصيته.

هذا الكلام ما هو إلّا تبرير للتقاعس عن المسؤولية، والقعود عن الواجب. وإلّا فبماذا نفسر تصدي الأنبياء والأئمة -عليهم جميعًا أفضل الصلاة والسلام- لقيادة المجتمع، وسعيهم لإصلاح شؤون الناس..

إنّ كل نبي أو رسول يبعثه الله سبحانه وتعالى هو مشروع قيادة وحكم للناس

يقول تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ الله﴾(١)

ويتحدث القرآن الحكيم عن نبي الله يوسف عليه السلام وهو يرشح نفسه لمنصب إدارة الاقتصاد في مصر، ويطلب من ملكها أن يوليه ذلك: ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾(٢)

قال العلامة الآلوسي في تفسيره لهذه الآية الكريمة:

وفيه دليل على جواز مدح الإنسان نفسه بالحق، إذا جُهل أمرُه، وجواز طلب الولاية إذا كان الطالب ممن يقدر على إقامة العدل، وإجراء أحكام الشريعة، وإن كان من يد الجائر أو الكافر، وربما يجب عليه الطلب إذا توقف على ولايته إقامة واجب مثلًا، وكان متعينًا لذلك، وما في الصحيحين من حديث عبد الرحمن بن سمرة قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: يا عبد الرحمن، لا تسأل الإمارة، فإنك إن أوتيتها عن مسألة وكلت إليها، وإن أعطيتها من غير مسألة أعنت عليها» وارد في غير ما ذكر.(٣)

ونقل القرآن الكريم عن لسان نبي الله سليمان عليه السلام دعاءه لله يطلب منه الحكم والسلطة: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾.(٤)

ودعاء آخر يذكره القرآن على لسان نبي الله إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾.(٥)

---

(١) سورة النساء، الآية: ٦٤.

(٢) سورة يوسف، الآية: ٥٥.

(٣) محمود الآلوسي. روح المعاني في تفسير القرآن، ج١٣، (بيروت: دار إحياء التراث العربي)، ص٥.

(٤) سورة ص، الآية: ٣٥.

(٥) سورة الشعراء، الآية: ٨٣.

وقد تكررت في سورة الشعراء آية ﴿**فَاتَّقُوا الله وَأَطِيعُونِ**﴾ على لسان خمسة أنبياء: نوح، هود، صالح، لوط، شعيب ﷺ، حين كانوا يدعون الناس إلى عبادة الله وإلى طاعتهم، والخضوع لهم كأنبياء وقادة لمجتمعاتهم.

وفي الحديث: «كان بنو إسرائيل يسوسهم أنبياؤهم» أي تتولى أمورهم كما يفعل الأمراء والولاة بالرعية(١).

والأئمة الهداة الذين نعتقد بإمامتهم ليسوا في عقيدتنا مجرد مفتين ومرشدين، بل هم قادة كان يجب أن تخضع الأمة لهم، وأن يتسنّموا موقع السلطة والحكم.

لذلك ورد في وصف الأئمة ﷺ: «أنتم ساسة العباد» وورد أيضًا «الإمام عارف بالسياسة»(٢).

إنّ تصدي الأئمة والأولياء لمهام القيادة وشؤون السياسية ليس إلا استجابة للواجب الشرعى، وقيامًا بالمهمة الدينية، دون أن يشوبه أيّ غرض مصلحي، كما يقول الإمام علي في بيان سبب تصديه للسلطة والحكم: «اللهمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنِ الَّذِي كَانَ مِنَّا مُنَافَسَةً فِي سُلْطَانٍ ولا الْتِمَاسَ شَيْءٍ مِنْ فُضُولِ الْحُطَامِ ولَكِنْ لِنَرِدَ الْمَعَالِمَ مِنْ دِينِكَ ونُظْهِرَ الإِصْلاحَ فِي بِلادِكَ فَيَأْمَنَ الْمَظْلُومُونَ مِنْ عِبَادِكَ وتُقَامَ الْمُعَطَّلَةُ مِنْ حُدُودِكَ»(٣).

وإذا ابتعد العلماء العدول عن ميدان السياسة، ولم يتحملوا مهام إدارة شؤون الحكم، فستكون النتيجة إتاحة الفرصة وفسح المجال لغير الكفوئين الصالحين، من

(١) لسان العرب، ج٦، ص١٠٨.
(٢) مجمع البحرين، ج٤، ص٧٨.
(٣) نهج البلاغة، خطبة ١٣١.

الجهلة والمنحرفين، لكي يتسلطوا على رقاب العباد.

أما تحديد الدور السياسي للفقيه، وكيفية تصديه للقيام به، فذلك يخضع لطبيعة الظروف والأوضاع التي يعيشها المجتمع، ولقدرة الفقيه وإمكاناته، فإذا تمكن الفقيه من التصدّي الكامل والمباشر لإدارة دفّة السياسة والحكم، فهو المطلوب بالدرجة الأولى.

وإن تعذّر عليه ذلك، واستطاع ممارسة دور التوجيه والإشراف على الحاكمين، كانت تلك وظيفته.

وإذا لم تكن الظروف مهيّأةً لهذا المستوى من التصدّي، وأمكن للفقيه المشاركة في الحكم لإصلاح ما يمكن إصلاحه، تعيّن ذلك ما لم تكن له مضاعفات وأخطار غير محتملة.

وأدنى درجة هي القيام بدور النصيحة للحاكمين، وإلفات نظرهم إلى الانحرافات التي تحدث، والتأثير عليهم بالمقدار الممكن.

وإذا كانت الأوضاع التي تعيشها الأمة متردّية سياسيًّا، وبلغ الانحراف والظلم بالحاكمين مداه، بحيث لا يتمكن العلماء من القيام بأي دور أو تأثير سياسي إيجابي، فلا بدّ حينئذٍ من التصدّي للمعارضة، بأن يعلن الفقيه موقفه المعارض ويحمل راية الثورة والجهاد.

وحيث لا تكون الظروف مساعدة، والأجواء مهيّأة، فعليه التخطيط والإعداد لصنع الأرضية المناسبة لتحمل واجب المعارضة.

تلك هي أهم الصور والخيارات التي يمكن للفقيه أن يمارس عبرها دوره

السياسي، ويتصدّى لمسؤوليته القيادية الخطيرة.

وبشيء من التوضيح يمكن الحديث هنا عن كل صورة من تلك الصور:

الفقيه الحاكم

إنما تتوفر الشرعية لأيّ حاكم بانتخاب الأمة له، ورضاها بقيادته، بعد توفر الصفات المحدّدة شرعًا فيه، كالعلم والعدالة والكفاءة.

من هنا، فإنّ على الأمة أن تسلّم أزمة أمورها للفقهاء العدول الكفوئين للقيادة، لما ورد من نصوص دينية تشير إلى أحقيتهم بمنصب الحكم والسلطة، وبغض النظر عن هذه النصوص وخلاف العلماء حول مدى دلالتها على ولاية الفقهاء، ومساحة تلك الولاية وحدودها، فإنّ الأمة إذا كانت مخيرة بين قيادة الفقيه العادل الكفؤ، وقيادة غيره ممن يفتقد تلك الصفات، فإنّ وجدانها الديني سيدفعها لانتخاب قيادة الفقيه ما دام كفوءًا مقتدرًا.

وعلى الفقيه من جهة أخرى أن يهيئ نفسه للقيام بأعباء هذا المنصب، وأن يستعد لأداء هذا الدور، بترشيح نفسه، وبالسعي نحو موقع السلطة والحكم، يقول المرجع الديني السيد محمد الشيرازي: «الظاهر استحباب السعي من العالم الجامع للشرائط لنيل منصب الرئاسة في الدولة الإسلامية، بقصد إقامة الأحكام إذا كان يرى نفسه أكفأ من غيره، أو أراد طلب الثواب، قال سبحانه: ﴿**وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ**.. ﴾ وقال علي عليه السلام: «لَوْ لا حُضُورُ الْحَاضِرِ وقِيَامُ الْحُجَّةِ بِوُجُودِ النَّاصِرِ ومَا أَخَذَ الله عَلَى الْعُلَمَاءِ إلا يُقَارُّوا عَلَى كِظَّةِ ظَالِمٍ ولا سَغَبِ مَظْلُومٍ لَأَلْقَيْتُ حَبْلَهَا عَلَى غَارِبِهَا» مما يدل على وجوب القيام بالأمر مع المكنة، فإن كان واحدًا وجب عليه عينًا، وإن كان متعددًا وجب عليه كفاية، فإنّ في ذلك أسوة بالأنبياء والأئمة

حيث طلبوا الحكم، بالإضافة إلى أنه مقدمة إقامة الدين، ونشر العلم، وقطع دابر الظلمة قال تعالى: ﴿**أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ**﴾ سورة الشورى، الآية١٣ »[1].

وفي تاريخنا الإسلامي القديم والحديث صفحات مشرقة لنماذج رائعة من الفقهاء الذين تصدوا لموقع القيادة والحكم.

فمن التاريخ القديم نذكر مؤسس الدولة الزيدية في اليمن الفقيه العلوي (يحيى بن الحسين بن القاسم)، الذي يتصل نسبه بالإمام علي بن أبي طالب عليه السلام (ولد سنة ٢٤٥هـ وتوفي سنة ٢٩٨هـ). كان هذا الفقيه العلوي مقيمًا في الحجاز بقرية تبعد عن المدينة المنورة ٧٠ كيلومترًا تقريبًا اسمها (الفرع).

فقدمت عليه وفود من أهل اليمن، تدعوه للانتقال إليهم، والتصدّي لقيادتهم، رجاء أن يخلصهم مما كانوا يعانونه من فتن داخلية، ومشاكل وأزمات، فاستجاب لطلبهم، وغادر الحجاز إلى اليمن، فبايعوه إمامًا شرعيًّا، وحلفوا له على الطاعة والمناصرة، والقيام بأمر الله، وأعلن منهجه السياسي للحكم قائلًا في خطبة له: « أيها الناس، أدعوكم إلى ما أمر الله أن أدعوكم إليه، إلى كتاب الله وسنة رسوله، وإلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فما جاءنا به الكتاب اتبعناه، وما نهانا عنه اجتنبناه، وإلى أن نأمر نحن وأنتم بالمعروف ونفعله، وننهى نحن وأنتم عن المنكر جاهدين ونتركه » ثم شرط على نفسه شروطًا فقال:

« أيها الناس، وبعد فإني اشترط لكم أربعًا على نفسي: الحكم بكتاب الله وسنة نبيه، والأثرة لكم على نفسي، فيما جعله الله بيني وبينكم، أوثركم فلا أتفضل عليكم، وأقدمكم عند العطاء قبلي، وأتقدم أمامكم عند لقاء عدوي وعدوكم بنفسي.

(١) محمد الشيرازي. الفقه ـ الحكم في الإسلام، الطبعة الثانية ١٩٨٩، (بيروت: دار العلوم)، ص٦٢.

وأشترط لنفسي عليكم اثنتين: النصيحة لله سبحانه ولي في السّر والعلانية، والطاعة لأمري على كل حالاتكم ما أطعت الله، فإن خالفت طاعة الله فلا طاعة لي عليكم، وإن ملت أو عدلت عن كتاب الله وسنة رسوله فلا حجة لي عليكم. **﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى الله عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ الله وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾** » كان ذلك سنة ٢٨٤هـ.

وعرف في اليمن بالإمام الهادي، ووحّد الشعب اليمني بعدما كان يعاني من التناحر القبلي، وضربت النقود الذهبية والفضية باسمه، وحددت المكاييل والمقاييس.. وقاد عدة معارك عسكرية ضد القرامطة وسائر الفئات المنحرفة والمتمردة. واستمرت الدولة التي شيّد أركانها في اليمن عدة قرون، حسب نظام الإمامة في المذهب الزيدي، إلى منتصف هذا القرن.[١]

ومن النماذج في تاريخنا الماضي القريب فقيه السودان، السيد محمد بن أحمد المهدي (١٢٦٠-١٣٠٢هـ/ ١٨٤٤-١٨٨٥م) وينتهي نسبه إلى الإمام الحسين بن علي عليه السلام.

فقد ثار على واقع الجهل والتخلف والانحراف في بلاده، والتفّ الشعب حوله، وأقام دولته على أساس تطبيق الإسلام، وفشلت جهود الاستعمار البريطاني في استمالته، وفي مقاومته عسكريًّا. (وأقام في المنطقة التي امتد إليها نفوذه نظامًا إسلاميًّا، وطبّق تعاليم الإسلام في جميع نواحي الحياة، فعيّن قضاة من صفوة العلماء الأتقياء، ونوابًا عنه في الأقاليم ممن يثق بصلاحهم وعلمهم، وعهد إليهم مباشرة القضاء والأحكام والفصل بين الناس. ونظم الشؤون المالية، فأنشأ بيت المال، وعيّن جباة لجمع الزكاة، وقسم الغنائم كما تقضي الشريعة الإسلامية، ومنع حيازة

(١) علي عبد الكريم الفضيل شرف الدين. الزيدية نظرية وتطبيق، الطبعة الأولى ١٩٨٥م، ص١٤٤-١٥٧.

الأرض لأنها لا تملك، بل هي محوزة لبيت المال، وجعل بيت المال موردًا لرزق المسلمين، يعطي كلًّا منهم بمقدار حاجته هو وعائلته، ورجع في أحكامه إلى عهد الإسلام الأول، فلم يتقيد بمذهب من المذاهب الأربعة..)[1]

وفي عصرنا الحديث تتألق الثورة الإسلامية في إيران التي قادها الإمام الخميني، كأروع نموذج لتصدي الفقيه لشؤون الأمة، وممارسته لدور القيادة الناجحة.. فقد أسقط بثورته المباركة أعتى حكومة استبدادية في المنطقة، وقاد أعظم حركة جماهيرية في التاريخ، وأسس أول جمهورية إسلامية عصرية، تعتمد على رأي الشعب، حيث دعا الشعب بعد انتصار الثورة إلى الاستفتاء على نظام الجمهورية، وإلى انتخاب ممثلين خبراء عنه ليضعوا دستورًا للحكم في البلاد على أساس الإسلام، ثم عرض الدستور على الشعب للتصويت والاستفتاء، وأشاد هيكلية الحكم انطلاقًا من الدستور الذي وضعه الفقهاء والخبراء ووافق عليه الشعب، كما واجه الفقيه الخميني الاعتداءات الخارجية والمؤامرات الداخلية، بكل حزم وصمود، حتى وطّد أركان الحكم الإسلامي، إلى أن اختاره الله إلى جواره بتاريخ ٢٩/ ١٠/ ١٤٠٩هـ، فاختار الفقهاء في مجلس الخبراء بعده تلميذه آية الله السيد علي الخامنئي لمواصلة المسيرة.

الإشراف على الحكم

حينما لا تساعد الفقيه صحته الجسمية، أو كفاءته وخبرته العملية، على التصدي المباشر لإدارة دفّة الحكم، أو حينما لا تكون الظروف السياسية والاجتماعية مناسبة لذلك، فإن أمكن للفقيه أن يمارس دور الإشراف على الحكم وتوجيهه فهو الخيار

(١) فتحي يكن. الموسوعة الحركية، ج١، الطبعة الثانية، (عمان: دار البشير)، ص٢٠٩.

المطلوب، حيث يأخذ الفقيه دور المراقبة والتسديد لخطوات الحاكم، باتجاه تنفيذ أحكام الشرع، وحماية مصالح الشعب.

وكنموذج لهذه الحالة يمكن قراءة دور العلامة الشيخ محمد باقر المجلسي (١٠٣٧-١١١٠هـ/ ١٦٢٧-١٦٩٩م) في التعامل مع الحكام الصفويين في إيران. والمجلسي عالم مشهور بكتاباته الموسوعية المعروفة، وأبرزها (بحار الأنوار) الذي طبع في أكثر من (١١٠) مجلدات. (فكان يتمتع بحظوة عظيمة لدى الشاه -الشاه حسين الصفوي (١٦٩٤-١٧٠٩م)- ولدى حاشيته، فقد كان نفوذه واسعًا في إيران، والعراق، وما جاورهما من المناطق، لا بوصفه المرجع الأعلى فقط، بل لعلمه وتقواه وشخصيته ولمؤلفاته العديدة، ومنحه الشاه لقب «ملاباشي» أي شيخ أو رئيس العلماء، وكان سندًا كبيرًا دينيًّا قويًّا للحكم الصفوي)[1].

ونموذج آخر هو الفقيه الشيخ جعفر الكبير النجفي (١١٥٤-١٢٢٧هـ) صاحب (كاشف الغطاء) وهو كتاب قيّم في الفقه، أصبح مؤلفه يعرف به (كشف الغطاء) الذي كان المرجع الديني الأعلى في عصره للمسلمين في العراق وإيران، وقد قام بدور التوجيه والإشراف على مسار الحكم القاجاري في إيران، وخاصة في عهد فتح علي شاه (١٧٩٧-١٨٣٤م/ ١٢١٢-١٢٥٠هـ) وقد بلغ مستوى العلاقة بين الفقيه كاشف الغطاء والحاكم فتح علي شاه، أن أجاز الفقيه للحاكم ممارسة الحكم، وإدارة شؤون الحرب، إجازة خطية أثبتها في كتابه (كشف الغطاء) ضمن باب الجهاد[2].

(١) سعد الأنصاري. الفقهاء حكام على الملوك، الطبعة الأولى ١٩٨٦م، دار الهدى، ص٣٣-٣٤.
(٢) أعيان الشيعة، ج ٤، ص١٠٠.

المشاركة في الحكم

حتى وإن لم تكن الحكومة قائمة على أساس ديني، أولم يكن مسارها مطابقًا للشرع والعدل. فإنه إذا سنحت الفرصة للفقيه، للمشاركة في هذه الحكومة القائمة، بتولي بعض المناصب والوزارات، أو إدارة بعض الأجهزة والمؤسسات، من أجل تطبيق الممكن من أحكام الله، وتقليل الانحرافات والفساد في السلطة، والدفاع عن حرمات الدين وحقوق الناس، ولم تكن في المشاركة مضاعفات وأخطار تفوق تلك المكاسب الممكنة، فإن المشاركة في الحكم من قبل الفقيه قد تكون مفيدة ومطلوبة.

وقد ذكر الباري سبحانه وتعالى في القرآن الكريم، مشاركة نبي الله يوسف في حكومة مصر، وكان ملكها كافرًا.

كما تحدث القرآن الحكيم عن دور مؤمن آل فرعون في بلاط فرعون، يقول تعالى: ﴿**وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ**﴾[1]

ويمكن اعتبار علي بن يقطين البغدادي (١٢٤-١٨٢هـ)، من أبرز وأوضح النماذج التاريخية للقيام بدور المشاركة في الحكم. فقد كان من عيون أهل العلم، ومن فضلاء عصره، وتلميذًا وثيق الصلة بالإمام موسى بن جعفر الكاظم.

تولى علي بن يقطين منصب الوزير الأهم في عهد الخليفتين المهدي وهارون الرشيد العباسيين.

ومعلوم مدى فساد وانحراف الحكم العباسي، لكن المصلحة العامة اقتضت من علي بن يقطين تولّي ذلك المنصب، وقد ضاق صدره بمنصبه عدّة مرات، وأراد

(١) سورة غافر، الآية: ٢٨.

الاستقالة، لكن الإمام موسى الكاظم نهاه عن ذلك، وطلب منه الاستمرار في موقعه وقال له: «لا تفعل فإنّ لنا بك أنسًا، ولإخوانك بك عزًّا، وعسى الله أن يجبر بك كسيرًا، أو يكسر بك نائرة المخالفين عن أوليائه، يا علي، كفارة أعمالكم الإحسان إلى إخوانكم...»، وينقل التاريخ مواقف عديدة للإمام موسى الكاظم في دعم وتعزيز موقع علي بن يقطين[1].

وفي العصر الحديث هناك نماذج عديدة من الفقهاء المصلحين، الذين شاركوا في الحكومات القائمة في مناطقهم، خدمة للمصلحة الدينية والاجتماعية العامة، ونشير هنا إلى نموذج واحد هو الفقيه السيد هبة الدين الشهرستاني (١٣٠١-١٣٨٦هـ/ ١٨٨٤-١٩٦٧م) وهو من فضلاء علماء العراق في عصره، فقد كان فقيهًا مصلحًا مجاهدًا، شارك في معركة الدفاع ضد الاحتلال الروسي لآذربيجان الإيرانية، كما قام بدور مهمّ في مقاومة الاحتلال البريطاني للعراق في ثورة العشرين، وساهم أيضًا في الحركة الدستورية الإيرانية ضد الاستبداد.

وقد تقلد منصب وزارة المعارف في العراق أيام الحكم الملكي سنة ١٩٢١م، حيث وجد أن تولّي وزارة المعارف سيتيح له إسداء خدمات جيدة للمجتمع العراقي، وإبعاد بعض جوانب الغزو الفكري الغربي، وتربية النشء الجديد تربية إسلامية صحيحة. ودخل الوزارة ليحارب على جبهتين، جبهة استقلال الوزارة عن الإرادة البريطانية، وجبهة بناء أسس صحيحة للتعليم في العراق.

وعلى الجبهة الأولى حارب المناهج الاستعمارية، ورفض إحلال الرموز والشعارات الإنجليزية محلّ الشعارات الوطنية والإسلامية. بل وأقدم على عمل

---

(١) باقر شريف القرشي. حياة الإمام موسى بن جعفر، ج٢، الطبعة الثانية ١٩٧٠م، ص٢٨٤-٢٩١.

جريء جدًّا هو فصل المستشار البريطاني «كابتن فاول» من الوزارة.

وفي الجبهة الثانية قام بعدة إنجازات في مجال بناء المدارس، كما قام بتأسيس مجالس المعارف في مراكز المحافظات، وسنّ لهذه المجالس قانونًا صدّقه مجلس الوزراء. ووزّع منشورًا على الأهالي يطلب منهم التبرع للمشاريع التعليمية، فجمع من ذلك (٣٠٠) ألف روبية، كما قام بإرسال أول بعثة علمية إلى خارج العراق، وأمر بأداء الصلاة جماعة في دار المعلمين. كل ذلك في فترة محدودة تقرب من سنة واحدة فقط[١].

النصيحة للحاكم

ترتبط قرارات الحاكم وتصرفاته بأوضاع الأمة ومستقبلها، وأي خطأ أو انحراف يصدر عنه يضر بمصلحة الأمة ككل، ويتنافى مع قيم الدين وأهدافه. وعلى المسلمين، وفي طليعتهم العلماء، السعي بأقصى حدٍّ ممكن للتأثير على قرارات الحاكم، لتكون مطابقة لأحكام الإسلام ومصلحة الأمة..

وقد يكون للحوار والنصيحة والموعظة أثر محتمل حتى على الحاكمين الظالمين والفاسدين، لذلك أمر الله تعالى نبيه موسى عليه السلام بتوجيه الخطاب اللّين الهادئ لفرعون في بداية الأمر، قال تعالى: ﴿**اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُولا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى**﴾[٢].

ونصيحة الحاكم مطلوبة، سواء كان الحاكم شرعيًّا صالحًا، أم غير ذلك.

---

(١) عبد الكريم آل نجف. السيد هبة الدين الشهرستاني طليعة التحديث الإسلامي، مجلة التوحيد، العدد ٦٨، السنة العاشرة، تشرين الثاني ١٩٩٣م، ص٤٠ - ٥٠.
(٢) سورة طه، الآية: ٤٣ - ٤٤.

وفي حياة أئمة أهل البيت عليهم السلام، والعلماء الصالحين، دروس وعبر ومواقف مشرقة في هذا المجال.

فالإمام علي بن أبي طالب عليه السلام كان يبذل رأيه ويقدم نصيحته للخلفاء، وكانوا يرون في مشورته ونصيحته السداد والخير، وقد ورد عن الخليفة عمر عبارات مختلفة، تحكي اعتزازه برأي الإمام علي، واعتماده عليه، كما ينقل ابن عساكر الشافعي، عن سعيد بن المسيب قوله: قال عمر بن الخطاب: أعوذ بالله من معضلة ليس لها أبو حسن علي بن أبي طالب. وعن أبي سعيد الخدري قال عمر بن الخطاب: لا بقيت في قوم لست فيهم أبا حسن[1].

وقد أثبت الشريف الرضي رحمه الله في نهج البلاغة، بعض نصائح الإمام علي ومشورته التي قدمها للخليفة عمر، حينما فكر الخليفة في الشخوص بنفسه لقتال الفرس، وشجعه على ذلك بعض الصحابة، لكن الإمام عليًّا أشار عليه بالبقاء في عاصمة الخلافة، والاكتفاء ببعث الجيش لقتالهم، قائلًا: «ومَكَانُ الْقَيِّمِ بِالأمْرِ مَكَانُ النِّظَامِ مِنَ الْخَرَزِ يَجْمَعُهُ ويَضُمُّهُ فَإِنِ انْقَطَعَ النِّظَامُ تَفَرَّقَ الْخَرَزُ وذَهَبَ ثُمَّ لَمْ يَجْتَمِعْ بِحَذَافِيرِهِ أَبَدًا والْعَرَبُ الْيَوْمَ وإِنْ كَانُوا قَلِيلًا فَهُمْ كَثِيرُونَ بِالإِسْلامِ عَزِيزُونَ بِالاجْتِمَاعِ فَكُنْ قُطْبًا واسْتَدِرِ الرَّحَى بِالْعَرَبِ وأَصْلِهِمْ دُونَكَ نَارَ الْحَرْبِ فَإِنَّكَ إِنْ شَخَصْتَ مِنْ هَذِهِ الأَرْضِ انْتَقَضَتْ عَلَيْكَ الْعَرَبُ مِنْ أَطْرَافِهَا وأَقْطَارِهَا حَتَّى يَكُونَ مَا تَدَعُ وَرَاءَكَ مِنَ الْعَوْرَاتِ أَهَمَّ إِلَيْكَ مِمَّا بَيْنَ يَدَيْكَ إِنَّ الأَعَاجِمَ إِنْ يَنْظُرُوا إِلَيْكَ غَدًا يَقُولُوا هَذَا أَصْلُ الْعَرَبِ فَإِذَا اقْتَطَعْتُمُوهُ اسْتَرَحْتُمْ فَيَكُونُ ذَلِكَ أَشَدَّ

(١) الحافظ علي بن الحسن (ابن عساكر). ترجمة الإمام علي من تاريخ دمشق، الطبعة الثالثة ١٩٨٠م، تحقيق محمد باقر المحمودي، ج٣، ص٥١-٥٣.

لِكَلَبِهِمْ عَلَيْكَ وطَمَعِهِمْ فِيكَ..»(١)

وأيضًا: روي أنه ذكر عند الخليفة عمر بن الخطاب، حليّ الكعبة وكثرته، فقال قوم: لو أخذته فجهزت به جيوش المسلمين كان أعظم للأجر، وما تصنع الكعبة بالحليّ؟ فهمّ عمر بذلك. فتدخل الإمام علي ناصحًا بقوله: «إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ أُنْزِلَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ والأَمْوَالُ أَرْبَعَةٌ أَمْوَالُ الْمُسْلِمِينَ فَقَسَّمَهَا بَيْنَ الْوَرَثَةِ فِي الْفَرَائِضِ والْفَيْءُ فَقَسَّمَهُ عَلَى مُسْتَحِقِّيهِ والْخُمُسُ فَوَضَعَهُ الله حَيْثُ وَضَعَهُ والصَّدَقَاتُ فَجَعَلَهَا الله حَيْثُ جَعَلَهَا وكَانَ حَلْيُ الْكَعْبَةِ فِيهَا يَوْمَئِذٍ فَتَرَكَهُ الله عَلَى حَالِهِ ولَمْ يَتْرُكْهُ نِسْيَاناً ولَمْ يَخْفَ عَلَيْهِ مَكَاناً فَأَقِرَّهُ حَيْثُ أَقَرَّهُ الله ورَسُولُهُ فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: لَوْلاكَ لافْتَضَحْنَا وتَرَكَ الْحَلْيَ بِحَالِهِ».(٢)

وأما نصائحه للخليفة عثمان، عندما حدثت المشاكل في عهده، التي انتهت إلى قتله، فعديدة، تناقلها المؤرخون، كقوله عليه السلام له: «اعلم يا عثمان أنّ أفضل عباد الله إمام عادل هُدي وهدى، فأقام سنة معلومة، وأمات بدعة متروكة، فو الله إن كلًّا لبيّن، وإن السنن لقائمة لها أعلام، وأن البدع لقائمة لها أعلام. وإن شرّ الناس عند الله إمام جائر ضلّ وأضلّ، فأمات سنّة معلومة، وأحيا بدعة متروكة، وأني أحذّرك الله وسطواته ونقماته، فإنّ عذابه شديد أليم، وأحذّرك أن تكون إمام هذه الأمة الذي يُقتل، فيفتح عليها القتل والقتال إلى يوم القيامة...».(٣)

وفي تاريخنا المعاصر يمكن الإشارة إلى شخصية العالم المصلح السيد جمال

---

(١) نهج البلاغة (من كلام له) رقم ١٤٦.

(٢) نهج البلاغة، قصار الحكم، رقم ٢٧٠.

(٣) عز الدين أبوالحسن الشيباني ابن الأثير. الكامل في التاريخ، ج٣، طبعة ١٩٧٩م، (بيروت: دار صادر)، ص١٥١.

الدين الأفغاني (١٢٥٤-١٣١٤هـ/ ١٨٣٨-١٨٩٧م) الذي كان يستثمر مكانته واحترامه لدى حكام البلدان الإسلامية، بتقديم النصيحة لهم، وتوجيههم نحو الاستقلال عن الهيمنة الأجنبية، وتحكيم العدل في سياستهم الداخلية، والنهوض بالأمة من وهدة التخلف والانحطاط.

ففي أفغانستان كان يجتهد في نصح حاكمها الأمير دوست محمد خان، وبعده الأمير شير علي خان، ثم الأمير محمد أعظم خان.. وعندما حلّ بمصر، واحتفى به حاكمها إسماعيل باشا خديوي، لم يألُ جهدًا في تقديم نصحه، وطرح آرائه الإصلاحية للحاكم ووزرائه.. واستعان بالصحافة لنشر أفكاره الإصلاحية بأسماء مستعارة.. ولما تولى حكم مصر الخديوي توفيق بن إسماعيل باشا، واصل السيد جمال الدين دوره في النصح للحاكم، لكن الخديوي توفيق لم يتحمل نصائحه ونشاطه التوعوي في أوساط الشعب، بل اتهمه بالتحريض على الحكم، قائلًا له: «إن دروسكم وأقوالكم المهيجة ستؤدي بالشعب والبلاد في تهلكة» !!

فرد عليه جمال الدين قائلًا: «ليسمح لي سمو أمير البلاد، أن أقول بحرية وإخلاص: إنّ الشعب المصري كسائر شعوب العالم، لا يخلو من وجود الخامل والجاهل بين أفراده، ولكن هذا لا يمنع من وجود العالم والعاقل أيضًا، فبالمنظار الذي تنظرون به إلى الشعب المصري يُنظر به لسموكم، وإذا قبلتم نصحي، وأسرعتم لإشراك الأمة في حكم البلاد، فتأمرون بإجراء انتخاب نواب عن الأمة، تسنّ القوانين، فإنّ ذلك أثبت لعرشكم وأدوم لسلطانكم».

وعلى أثر هذه المواجهة، أمر الخديوي توفيق، بإخراج السيد جمال الدين من مصر.

وهكذا كان منهجه في الأستانة، مقر الخلافة العثمانية، عندما ذهب إليها بدعوة ملحة من السلطان عبد الحميد، فكان السيد جمال الدين يكرر عليه النصائح، والسلطان يظهر له القبول غالبًا. يقول السيد جمال الدين: «رأيت من السلطان ارتياحًا لقبول كل ما ذكرته له من محاسن الحكم الدستوري، وأنّ الإسلام أول من عمل به في سلطانه، أي الحكم الشوري وذلك عملًا بحكم النص ﴿**وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ**﴾».

وكانت نصائحه بعض الأحيان للسلطان شديدة اللهجة، كقوله له مرة: «جلالة السلطان: مللت من تعاطينا الشكاية، وَمَنْ غيرك صاحب الأمر؟ خذ بحزم جدّك محمود، وأقصِ الخائنين من خاصتك، الذين يبعدون عن بلاطك حقائق تخريب الوزراء هنا، والعمال في الولايات، وهم صنائعهم وجباة جيوبهم الخاصة. خفف الحجّاب عندك، واظهر للملأ ظهورًا يقطع من الخائنين الظهور. وأعتقد أنّ نعم الحارس الأجل ﴿**فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ**﴾(سورة الأعراف، الآية: **٣٣**)»[١].

إنّ اللقاء مع الحاكم من قبل العلماء، لتذكيره بمراعاة قوانين الإسلام، وحثه على احترام حقوق المواطنين، أو كتابة الرسائل والبرقيات، وإرسال الوفود والمندوبين إليه بهذا الصدد، قد يكون وسيلة مؤثرة أو محتملة التأثير. طبعًا مع أخذ مجمل الظروف والأوضاع بعين الاعتبار، ودراسة الموقف لاختيار أنسب الوسائل والأساليب.

والمؤسف أنّ الكثير من العلماء يتردّدون في القيام بهذا الدور الإصلاحي

(١) الدكتور علي عبد الحليم محمود. جمال الدين الأفغاني، (الرياض: دار عكاظ للطباعة والنشر)، ص١٩٧-٢٦٣.

الهادئ، انطلاقًا من فكرة عدم التدخل في الشؤون السياسية، أو تخوّفًا من أضرار محتملة على أشخاصهم ومكانتهم، أو لعدم الاهتمام بالمصلحة العامة.

موقف المعارضة

حين تتوغّل السلطة السياسية في الانحراف والفساد، فلا تُعنى بقيم الدين وأحكامه، ولا تراعي حقوق الناس ومصالحهم، وحين لا تجدي أساليب النصيحة والوعظ، فإنه لا يصحّ للأمة وفي طليعتها العلماء، السكوت على واقع الظلم والفساد والانحراف.

فلا بدّ من التخطيط والإعداد لمعارضة الطغيان، ومسؤولية العلماء هي التصدّي لإنقاذ الدين والأمة. وذلك من أجلى مصاديق فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

روى الطبري في تاريخه، وابن الأثير في الكامل: أنّ الحسين بن علي عليهما السلام خطب الناس أثناء سيره إلى العراق، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «أيها الناس، إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: من رأى سلطانًا جائرًا، مستحلًا لحرم الله، ناكثًا لعهد الله، مخالفًا لسنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان، فلم يغيّر عليه بفعل ولا قول، كان حقًّا على الله أن يدخله مدخله».[١]

وتاريخنا الإسلامي زاخر بحركات المعارضة، وثورات الإصلاح، التي قادها أعلام الأمة وفقهاؤها، ضد الانحرافات السياسية، كثورة الإمام الحسين بن علي سبط رسول الله سنة ٦١ هـ، وثورة حفيده زيد بن علي بن الحسين سنة ١٢١ هـ،

(١) محمد بن جرير الطبري. تاريخ الأمم والملوك، ج ٤، (بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات)، ص ٣٠٤.

على الحكم الأموي، وثورة محمد بن عبد الله، الملقب بالنفس الزكية سنة ١٤٥هـ، وثورة الحسين بن علي شهيد فخ سنة ١٦٩هـ على العباسيين..

وتنتشر الآن الحركات الإسلامية في العالم الإسلامي، يقودها علماء أفاضل، يطالبون بتطبيق شرع الله، ورفض هيمنة أعداء الله، وإجراء العدل بين الناس.

والحديث عن وسائل المعارضة وأساليبها وبرامجها يحتاج إلى أبحاث تفصيلية موسّعة.

ذلك أنّ الظروف الزمانية والمكانية لها دخل في تحديد الأساليب والوسائل. فكل ظرف سياسي، ووضع اجتماعي، يستلزم نمطًا معيّنًا من التحرك والعمل.

ودور العلماء هو التصدي لقيادة المعارضة، حينما تكون مطلوبة، لترشيدها وتوجيهها، وفق تعاليم الإسلام، ومقتضيات الظروف والمصلحة العامة.

بالطبع إنّ التصدّي لهذه المهمة الخطيرة، يعني الاستعداد للتضحية، وتحمل الآلام والمصاعب، من سجن وتعذيب وتشريد وقتل.. والعالم بدين الله، والعارف بعظمة الله، لا يبخل بنفسه على البذل في سبيل الله، ولقد سجّل المجاهدون من علماء الإسلام، في الماضي والحاضر، بنضالهم ودمائهم الزكية، أروع مواقف الفداء والتضحية، دفاعًا عن قيم الدين ومصلحة الأمة.

المرجعية الدينية والانتماء الوطني

هناك تعقيدات سياسية واجتماعية تدرك بالمعايشة والاحتكاك المباشر، وتترك آثارها وانعكاساتها على نفس الإنسان وتفكيره، أكثر من مجرّد العلم بها، والاطّلاع عليها. فالفقيه بمعايشته الفعلية للمجتمع، يكون أكثر إدراكًا وشعورًا بضروراته وحاجاته، وأفضل تقويمًا وتشخيصًا لتفاصيل واقعه وأوضاعه السياسية والاجتماعية. وقديمًا قيل: يرى الحاضر ما لا يرى الغائب.

بل إنّ الشهيد الثاني زين الدين بن علي العاملي ٩١١ ـ ٩٦٥هـ قد ذكر من جملة أحكام المفتي وآدابه، أنه: «لا يجوز أن يفتي بما يتعلق بألفاظ الأيمان والأقارير والوصايا، ونحوها إلّا من كان من أهل بلد اللافظ، أو خبيرًا بمرادهم في العادة»[1].

كما أن الاعتبارات السياسية، تجعل قدرة الفقيه المواطن على إبداء الرأي، واتخاذ الموقف، تجاه أوضاع بلاده، أكبر من قدرة الفقيه المنتمي إلى وطن آخر، وأكثر

(١) منية المريد في آداب المفيد والمستفيد، ص٩٢.

مقبولية. وإن كانت الاعتبارات الشرعية هي الأصل في الأمور الدينية.

ولوجود الفقيه في المجتمع منافع وآثار إيجابية أخرى، حيث يستطيع رفع مستوى الحركة العلمية الدينية في البلاد، عن طريق التدريس في مختلف مراحله، وتربية الطلاب في المستويات المتقدمة، كالبحث الخارج، حسب اصطلاح الحوزات العلمية.

وكذلك فإنّ الناس أكثر استجابة وانقيادًا للفقيه المجتهد، مما يعزّز الحالة الدينية، ويكرّس وحدة المجتمع وتماسكه.

من هنا يمكن القول بأن وجود المجتهد الفقيه مطلوب في كل بيئة اجتماعية، وغير بعيد ما استنتجه الشيخ محمد مهدي شمس الدين ﵀ من وجوب وجود الفقيه على نحو الوجوب الكفائي في كل مجتمع، على ضوء الآية الكريمة: ﴿**فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ**﴾[1].

قال: «فقد دلّت على وجوب التفقّه لأجل تبليغ أحكام الشريعة. ودلت على أنّ هذا الوجوب ثابت على الأمة بنحو الكفاية يجب أن تقوم به طائفة من كل فرقة، فهو واجب على الأمة الإسلامية مع ملاحظة انقسامها إلى فرق، وينبسط هذا الوجوب على فرق الأمة بنحو الكفاية على كل فرقة، ويتحقّق الامتثال بقيام طائفة من كل فرقة بالنّفر والتفقّه.

وهل يعتبر وحدة الانتماء القومي بين الفرقة والنافرين؟ مما ذكرنا لا يبعد استفادة عدم كفاية وجود مجتهدين في شعب من الشعوب الإسلامية لسقوط

(١) سورة التوبة، الآية: ١٢٢.

وجوب التفقّه عن سائر الشعوب الإسلامية، بل يجب على كل شعب فرقة مسلم أن يكون منه نافرون متفقهون مجتهدون؛ لأنّ الأمر في الآية الكريمة وارد بنحو العموم الاستغراقي ﴿.. كُلِّ فِرْقَةٍ..﴾ فلا يتحقّق الامتثال بنفر طائفة من فرقة واحدة أو أكثر إذا لم ينفر فرق من جميع الطوائف.

وعلى تقدير البناء على هذا، فهل يعتبر أيضًا أن يكون النافرون من نفس شعب/ قبيلة المكلفين، فلا يتحقّق امتثال بني تميم مثلًا إذا كان النافرون من طي، ولا يتحقق امتثال العراقيين إذا كان النافرون مصريين مثلًا، فلا يكفي انتماء الجميع للعربية أو الفارسية أو التركية، بل لا بدّ من أن يكون النافرون الطائفة من سنخ الانتماء الخاص للفرقة ولا يكفي مجرد اشتراكهم في الانتماء العام العربية أو الفارسية أو التركية؟.. أو يكفي مجرد الانتماء العام إلى عنوان القوم الفرقة .

مقتضى قوله تعالى: ﴿مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ﴾ هو اعتبار الانتماء الخاص، وعدم كفاية الانتماء العام، إذ إن بني تميم ـ مثلًا فرقة، فلو نفر جماعة من طي فإنه لا يصدق عليهم عرفًا أنهم منهم، والمصريون ـ مثلًا ـ فرقة، فلو نفر جماعة من العراقيين لا يصدق عليهم عرفًا أنهم منهم، وهكذا، والمسألة بحاجة إلى مزيد من التأمل»[1].

الفقهاء والمراجع في المنطقة

حفل تاريخ منطقة الأحساء والقطيف بوجود عدد كبير من مراجع الدين والفقهاء المجتهدين في مختلف القرون، فكانت المرجعية الدينية محليّة يتصدّى لها فقهاء من أبناء المنطقة.

---

(١) محمد مهدي شمس الدين. الاجتهاد والتقليد، الطبعة الأولى ١٩٩٨م، (بيروت: المؤسسة الدولية للدراسات والنشر)، ص٩١-٩٢.

وآخر مرجع ديني كان مقلَّدًا في الأحساء هو الشيخ حبيب بن صالح ابن قرين الذي توفي بتاريخ ٢١ محرم ١٣٦٣هـ. وقبله كانت مرجعية السيد ناصر بن السيد هاشم السلمان توفي سنة ١٣٥٨هـ، كما أنّ آخر مرجع ديني كان يقلد في القطيف هو السيد ماجد بن السيد هاشم العوامي الذي توفي بتاريخ ٧ ربيع الآخر ١٣٦٧هـ، وقبله كانت مرجعية الشيخ علي ـ أبوالحسن ـ الخنيزي توفي سنة ١٣٦٣هـ.

بل امتدت مرجعية بعض فقهاء المنطقة إلى المناطق الأخرى كالعراق وإيران والكويت والبحرين.

فالشيخ أحمد بن زين الدين الأحسائي ١١٦٦ ـ ١٢٤١هـ قلّده بعض العراقيين وكثير من الإيرانيين وعلى رأسهم ملك إيران آنذاك فتح علي شاه وأسرته ووزراؤه وكبار رجال دولته. وقد سجّل الدكتور ميرزا مهدي خان في تاريخه: أنّ ربع الشعب الإيراني كانوا من مقلديه والتابعين له[١].

والشيخ محمد بن علي آل عبدالجبار القطيفي توفي بعد ١٢٥٠هـ كان يقلّده كثير من أهالي العراق وأهل القطيف والأحساء وقد ارتضاه علماء النجف للمحاكمة بينهم وبين السيد كاظم الرشتي أيام النزاع بينهم، وارتضاه السيد المذكور وناهيك بذلك فضلًا[٢].

أما الفقهاء المجتهدون الذين لم يتصدّوا للمرجعية فهم كثيرون في تاريخ المنطقة.

تساؤلات ومعالجات

(١) السيد هاشم الشخص. أعلام هجر، ج١، الطبعة الثانية ١٤١٦هـ، (قم: مؤسسة أم القرى)، ص١٧٣.
(٢) الشيخ علي البلادي البحراني. أنوار البدرين، الطبعة الثانية ١٤٠٧هـ، (قم: مكتبة المرعشي النجفي)، ص٣١٧.

تدور في بعض الأوساط السياسية والإعلامية تساؤلات حول ارتباط الشيعة بالمرجعيات الدينية خارج أوطانهم، وخاصة مع تسليط الأضواء على الشيعة بعد سقوط النظام العراقي. وفي داخل كل مجتمع شيعي يتنامى شعور بضرورة وجود فقهاء يتصدّون لإدارة الحالة الدينية في المجتمع، ويعزّزون ثقة الناس في أنفسهم وفي انتمائهم الديني والوطني.

ومن المناسب أن تطرح مثل هذه التساؤلات بصراحة ووضوح، وأن تناقش بشفافية وموضوعية، فمثلًا تحاول بعض الجهات أن تطرح موضوع ارتباط الشيعة بمرجعيات دينية في الخارج، وكأنه مظهر خلل في الولاء الوطني للشيعة، وهذا الطرح ناشئ من ضعف المعرفة بواقع الارتباط بالمرجعية الدينية، وقد يأتي هذا الطرح في سياق الصراع الطائفي وإرادة التشويه لصورة المواطنين الشيعة.

إنّ المرجعية الدينية عند الشيعة لا تتدخل في الخصوصيات السياسية للمجتمعات الشيعية في أوطانهم المختلفة، إنما يرجعون إليها في قضاياهم الدينية ومسائلهم الشرعية، أما الشأن السياسي والاجتماعي فتتصدّى له القيادات المحلية من علماء ووجهاء، وسيرة المراجع تثبت أنهم في مستوى كبير من النضج والحرص على مصالح البلاد الإسلامية، لذلك يوجهون أتباعهم إلى الاندماج في أوطانهم، والتفاعل مع محيطهم، والحفاظ على الوحدة الإسلامية والوطنية.

وقد يتصدّى المرجع لدور سياسي في وطنه كإيران أو العراق حسب ما تفرضه الظروف، أو تقتضيه المصلحة هناك. أما تبنّي المواقف السياسية حول الشؤون الداخلية للبلدان الأخرى فهذا ما لم يعهد من سيرة مراجع الشيعة، وتاريخهم واضح جلي.

والارتباط بمرجعيات دينية خارج الوطن ليس ظاهرة خاصة بالشيعة، فأهل السنة في بلاد عديدة يرتبطون في شؤونهم الدينية بالجامع الأزهر في مصر، وهناك في بلدان إسلامية من يأخذ بآراء المفتي وكبار العلماء في المملكة العربية السعودية، فهل يعتبر ذلك خللًا في ولاء هؤلاء لأوطانهم؟

كما أنّ المجتمعات المسيحية في دول العالم تقدّس البابا الذي يمثل الزعامة الدينية للمسيحيين وترتبط به كنائسهم ومؤسساتهم الدينية، ولا أحد يعتبر ذلك خللًا في الولاء الوطني!!

المرجعية المحلية والضوابط الشرعية

تلتزم المجتمعات الشيعية بالضوابط والشروط الشرعية في اختيار المرجع الديني، ولا تقبل الإخلال بتلك الضوابط لمراعاة الاعتبارات السياسية والمادية. فالمرجع يتم اختياره بإرادة شعبية، بعيدًا عن القرارات والمواقف الحكومية، وبشكل عفوي، بناءً على شهادات ذوي الخبرة من العلماء في الحوزات العلمية ومختلف المجتمعات الشيعية.

والتفاف شيعة العراق العرب الأقحاح، بمشاعرهم القومية والوطنية المرهفة حول مرجعية السيد السيستاني، وهو من أصل إيراني، يقدم أروع شاهد على عمق الالتزام بالضوابط الشرعية في اختيار المرجعية الدينية.

كما أنّ مواقف المرجع السيستاني في غمرة الاضطرابات وتعقيدات الواقع العراقي الناتج عن الاحتلال الأمريكي، يكشف عن استقلالية المرجعية الدينية، ونضج آرائها، وصدق إخلاصها لمصلحة الدين والأمة، بعيدًا عن أيّ تأثيرات سياسية خارجية أو داخلية.

بالطبع فإنّ وجود مرجعية دينية من أبناء الوطن تتوفر على المواصفات الشرعية المطلوبة يشكل خيارًا أفضل، وهذا ما كان قائمًا في الكثير من المجتمعات الشيعية في إيران والعراق ولبنان والبحرين والأحساء والقطيف.

لكن ضعف الحالة العلمية في بعض هذه المناطق هو الذي حرمها من هذه النعمة في الأزمنة الأخيرة.

وكان للظروف السياسية التي مرّت بها هذه المناطق دور أساس في خلق هذا الواقع، ولو تبنّت الحكومات في هذه المناطق سياسة تشجيع الحالة العلمية للمجتمعات الشيعية فيها، ورفع القيود والعوائق عن طريقها لأمكن توفر عدد من الفقهاء والمجتهدين المحليين، وبالتالي بروز مرجعيات محلية كما كان ذلك في الماضي.

كما تتحمّل المجتمعات الشيعية ذاتها قسطًا كبيرًا من المسؤولية؛ لأنّ عليها أن تدعم وجود الحوزات العلمية في بلادها، وأن تشجع الراغبين في طلب العلم من أبنائها، وتوفر لهم إمكانات الابتعاث لمواصلة الدراسات العليا في الحوزات العلمية المركزية.

والمؤسف أنّ طلاب العلوم الدينية في مجتمعاتنا لا يوجد من يدعمهم أو يتبنّاهم، بل يعتمد كل منهم على إمكاناته الذاتية، ومساعدة أسرته، وعلى المكافأة المحدودة التي يقدمها المراجع للطلاب في الحوزات الدينية.

وغالبًا ما يضطر أكثرهم للعودة إلى الوطن دون مواصلة الدراسات العليا، بسبب ضغط الظروف الاقتصادية ومتطلبات الحياة العائلية.

ومع إدراكنا لهذه الصعوبات التي تواجه طلاب العلوم الدينية، إلّا أننا نأمل

أن يشحذوا هممهم، وأن يتحدّوا العوائق والعراقيل، فرضا الربّ، وخدمة الدين، ومجد العلم يستحق التضحيات، وتهون أمامه الشدائد، وقد روي عن الإمام زين العابدين عليه السلام قوله: «لو علم الناس ما في طلب العلم لطلبوه ولو بسفك المهج وخوض اللجج»[1].

فلماذا يتحمّل طالب العلم الإيراني أو الأفغاني أو غيرهما سنين الغربة الطويلة في النجف الأشرف مثلًا، والانقطاع عن أهله ووطنه، ويتحمّل أخطار الأوضاع القائمة هناك، وصعوبات الحياة، حتى يصل إلى مقام الاجتهاد والمرجعية، بينما يكتفي أكثر طلابنا بالوصول إلى مستوى محدود من العلم، ثم يسارعون للرجوع إلى بلدانهم؟

ونقول أكثر طلابنا تلافيًا للتعميم، ففيهم من يتوقع منه وله المستقبل المشرق إن شاء الله.

توطين الاهتمامات الفقهية

حاجة المجتمعات لوجود فقهاء مجتهدين من أبنائها، ليس من أجل أن يجترّوا ويعيدوا بحث الموضوعات الأصولية والفقهية التي أُشبعت بحثًا، وإن كان بحثها مهمًّا لجهة تنمية القدرة العلمية والاجتهادية، وهي موضوعات لا يمكن تجاوزها أو التقليل من شأنها، لكن روّادها كثيرون، والاستفادة من باحثيها في مجالها لا يستلزم خصوصية محلية.

إنما الحاجة الأهمّ للفقهاء المحليين، تكمن في تميزهم المفترض، بإدراك مشاكل

(١) الكافي ج١، ص٣٥.

مجتمعاتهم وخصوصياتها، وتقديم المعالجات العلمية المناسبة لها.

فالوضع السياسي في كل مجتمع، والقضايا الاجتماعية القائمة فيه، والتحدّيات الثقافية، والعلاقة بينه وبين أطراف محيطه، كل هذه الأبعاد تحتاج إلى بحث ومعالجة في تميزاتها وخصوصياتها، على هدى الشريعة الإسلامية.

وظاهرة العزوف عن معالجة القضايا المحلية عبر البحث العلمي الفقهي تكشف عن ضعف شعور بالمسؤولية الاجتماعية الوطنية، أو تهيّب من ارتياد بحوث غير مألوفة، أو خوف من إبداء الرأي والنظر.

ولا بدّ أن نشيد هنا ببعض النماذج من الفقهاء الذين تميّزوا ببحث مشكلات مجتمعاتهم، وقدموا لها مشاريع وطروحات بتأصيل علميّ فقهيّ، كالإمام السيد موسى الصدر، والشيخ محمد مهدي شمس الدين في لبنان، اللذين استطاعا إنقاذ مجتمعهم من حالة الانكفاء والحرمان والتهميش، وساعدا على ترتيب أوضاعه الداخلية، وتحسين علاقاته مع أطراف محيطه، وتحقيق مشاركته وإسهامه على المستوى الوطنيّ العام.

وخطاباتهما وكتاباتهما التي أسّست لهذه الحالة ورعت نموها وتطورها منشورة معروفة، وخاصة البحوث القيمة التي أنجزها الشيخ شمس الدين مثل الاجتماع السياسيّ في الإسلام ونظام الحكم والإدارة في الإسلام والعلمانية وفقه العنف المسلح في الإسلام، وومسائل حرجة في فقه المرأة وضرورات الأنظمة وخيارات الشعوب والحوار الإسلامي المسيحيّ والإسلام والغرب وفي الاجتماع المدني الإسلاميّ ومطارحات في الفكر المادي والفكر الديني . وحين أصابه المرض العضال وأحسّ بقرب الرحيل عن الدنيا سجّل وصاياه لأبناء مجتمعه عبر جهاز تسجيل، وكتبت

ونشرت بعد وفاته تحت عنوان الوصايا. وهي كتابات علمية تأصيلية تعالج قضايا مثارة في الساحة بشكل عام ولها انعكاساتها على مستوى الساحة اللبنانية. إضافة إلى آرائه التي طرحها من خلال المحاضرات والمقابلات الإعلامية، فيما يخصّ الشأن السياسي والاجتماعي في لبنان، برؤية إسلامية وتأصيل فقهيّ.

ونموذج آخر يتمثل في المرجع الشهيد السيد محمد صادق الصدر ١٣٦٢ ـ ١٤١٩هـ، الذي استطاع إحياء الحالة الدينية في العراق في ظلّ طغيان نظام صدام، وقدّم معالجات شرعية للكثير من القضايا المعيشة في الوسط العراقي، وقد تضمّنت موسوعته ما وراء الفقه بعض تلك البحوث، ونشر بعضها الآخر، وأكثرها لا يزال بحثًا شفهيًّا مسجلًا.

ومن أبحاثه بحث عن الأحكام والأعراف العشائرية السائدة بين قبائل العراق، وبحث عن فئة الغجر التي تعيش في العراق. وبحوث أخرى مشابهة.

إنّ الساحة اللبنانية ساحة مفتوحة تتوفر فيها حرية البحث والتعبير عن الرأي، لكن لها معادلاتها وتعقيداتها الشائكة، كما أنّ الساحة العراقية كانت في ظلّ نظام صدام تمثل أسوأ وضع قمعيّ، ووجود نماذج شقَّت طريقها وتصدّت لمعالجة الهموم والمشاكل المحلية في الساحتين دليل على إمكان مثل هذا التوجّه ضمن ظروف أيّ بلد ومجتمع.

إنني أهيب بالكفاءات العلمية من أبناء مجتمعاتنا للتوجّه بقدراتهم البحثية لمعالجة قضايا مجتمعاتهم، وليسهموا في مسيرة البناء والتنمية لأوطانهم، فالفقيه الشيعي في بلده مواطن مسلم، عليه أن يتحمّل مسؤوليته تجاه وطنه ومجتمعه ودينه، وألّا يسجن نفسه ضمن القبيلة المذهبية المنكفئة عن التفاعل مع تطورات العصر

وقضايا الوطن.

الفصل الخامس

علماء الدّين
ومسؤوليّة الوحدة

مدخل

الوحدة أصل ثابت من أصول مقاصد الإسلام، وهدف أساس للأمة الإسلامية التي أرادها الله أمة واحدة، يقول تعالى: ﴿**إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ**﴾[1] والاختلاف والنزاع حالة مضادة ومناقضة لأساس الدين وغايته، يقول تعالى: ﴿**وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا**﴾[2] ويقول تعالى: ﴿**وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ**﴾[3].

لسنا بحاجة للوقوف طويلًا، للحديث حول ضرورة الوحدة، وأهميتها وموقعيتها على المستوى الديني، فذلك أمر مفروغ منه، واضح لدى كل مسلم واعٍ.

لكن، بالنظر إلى الواقع التجزيئي الذي تعيشه الأمة، فإنّ السؤال الذي يفرض نفسه بإلحاح، هو: ما الخطوة الأولى في طريق الوحدة؟

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٩٢.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٠٣.

(٣) سورة الأنفال، الآية: ٤٦.

فمنذ أكثر من نصف قرن، كان هناك من يراهن على دور الأنظمة والحكومات، في العالمين العربي والإسلامي، لكي تصنع واقع الوحدة، من خلال الأطر والمؤسسات الرسمية، وعبر العلاقات والتحالفات الثنائية بينها.. وكانت جماهير الأمة تهلّل فرحًا، لكل مؤسسة رسمية، ترفع راية الوحدة، أو إطار إقليمي يتبنى التعاون والتنسيق، أو أيّ صيغة تبشّر بتوجه وحدوي، ولو بين دولتين وقطرين من أقطار المسلمين.

لكن هذا الرهان باء بالفشل والخيبة، وتأكد لجماهير الأمة، أنّ الأنظمة والحاكمين، لا يتوقع تحقيق وحدة الأمة على أيديهم.

فأكثر هذه الأنظمة تدور ضمن أفلاك دولية، لا ترى أنّ من مصلحتها وحدة الأمة، بل تعمل لإبقائها مجزأة ممزقة.

وأغلب الحاكمين، تسيطر عليهم نزعة التسلط والتفرد، وليسوا مخلصين لمصلحة الأمة، ولا جادّين في تحقيق آمالها وتطلعاتها، كما لا يمتلكون مستوى من الوعي السياسي الحضاري، الذي يدفعهم للتعاون فيما بينهم.

من هنا، أصبحت المؤسسات الرسمية ذات الطابع الوحدوي هياكل شكلية، وبقيت الأطر دون محتوى ومضمون حقيقي، وانتهت أغلب مشاريع الوحدة إلى التفكك والخلاف والنزاع.

وهناك من يرى أنّ الوحدة يجب أن تبدأ من جماهير الأمة، وذلك بتعبئة الجمهور، ودفعه لفرض الوحدة، وأن يمارس الناس السلوك الوحدوي، ويجسّدون عملية الوحدة في تعاملهم الاجتماعي.

وإذا ما أصبحت الوحدة مطلبًا للناس، وتحركوا لتحقيقه، فإنّ إرادتهم ستنتصر

على القوى والعناصر المناوئة والمضادة للتوجه الوحدوي.

ولكن، كيف يمكن تعبئة الناس باتجاه الوحدة، وهناك واقع من التمايز والتنوع القومي والعرقي والمذهبي والإقليمي والسياسي والطبقي؟.. وكلّ لون من ألوان التمايز، قد صنع له فلسفة وتنظيرًا، وأشاد عليها مواقف وهياكل ومؤسسات، بهدف الدفاع عن الذات، والخصائص المميزة، في مواجهة ما يعتبره تهديدًا لتلك الخصائص، ومحاولة لفرض الذوبان، وتجاوز الحقوق.

كانت الأمة في سالف عصورها الأولى، تعيش حالة حضارية نموذجية للوحدة، حيث انصهرت في بوتقة الإسلام شعوب مختلفة ومتمايزة، عرقيًّا وقوميًّا وقبائليًّا، ومع انبثاق مدارس اجتهادية متعددة دينيًّا وسياسيًّا، إلّا أنّ الأجواء العامة للأمة كانت تنعم بمشاعر الوحدة، وكانت الأنظمة والقوانين السياسية والاجتماعية قائمة على هذا الأساس.

ومع حصول الكثير من الانحرافات السياسية والإدارية، على الصعيد الرسمي من قبل الحاكمين، إلّا أنّ الحالة الشعبية كانت تعيش واقع الوحدة والاندماج، ولم يكن هناك شعور بالتناقض والتعارض، ما بين الخصائص والميزات العرقية والقومية، التي لم تكن ممارستها تثير أية حساسية، ولا كان يترتب عليها أيّ أثر، في الحقوق العامة، يميز بين ذوي تلك الانتماءات، وما بين الانتماء إلى الكيان الواحد للأمة الواحدة.

لكن المؤسف والمؤلم هو ما حصل في العصور المتأخرة، من تفجّر زخم من المشاعر والأحاسيس العميقة في نفوس أبناء الأمة، باتجاه تأكيد جوانب التمايز القومي والعرقي والطائفي والمذهبي.

مما يجعل عملية التوعية والتعبئة باتجاه الوحدة، تحتاج إلى جهد خارق، وبرمجة دقيقة، لكي تتجاوز حالة الشعار والمشاعر، وتتحول إلى طروحات فكرية، وبرامج عملية، تعالج المخاوف والتحفظات، وتعطي الاطمئنان لمختلف الجهات، بأنّ الوحدة لا تعني مصادرة خصائصها وميزاتها، بل تفسح لها المجال لتشارك في بناء الكيان الشامل، ولتتكامل مع سائر الجهات والأطراف.

ومشكلة أخرى نواجهها في طريق تعبئة جمهور الأمة باتجاه الوحدة، هي وجود الدعاوى والمدعين، من حاملي رايات الوحدة، ورافعي شعاراتها، من حكام وأحزاب، ومراكز قوى وفاعليات، في الوقت الذي تجيّر فيه هذه الدعوات، وتستثمر لأغراض مصلحية مناقضة للهدف الوحدوي، فكم من تجزئة وتفرقة ونزاع جرى تحت رايات الوحدة، وعلى أنغام موسيقى شعاراتها؟ مما أحدث شيئًا من اليأس وردة الفعل، والتشكيك في الدعوات الوحدوية، لدى قطاع من جماهير الأمة.

كما يحصل الالتباس والخلط، فيصعب على الناس التمييز بين الدعوات الصادقة والأخرى الزائفة...

دور العلماء

يبدو أنّ علماء الدين هم الجهة الأكثر تأهيلًا وقدرة على شقّ طريق الوحدة أمام الأمة، وذلك للأسباب التالية:

أولًا:

لما يفترض فيهم من أنهم الأكثر تمسكًا بتعاليم الإسلام، والأحرص على تطبيق

مبادئه، يقول تعالى: ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى الله مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ**﴾[1].. والوحدة كمبدأ ونظام ينبثق من عمق الدين عقيدة وتشريعًا، لا بدّ أن يحتضنها العلماء، ويهتموا بتنفيذ أوامر الله حولها.

ثانيًا:

والعلماء مدعوّون ومطالبون من قبل الله تعالى، قبل أيّ جهة أخرى، بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، و أيّ معروف أكبر من الوحدة، وأيّ منكر أخطر من التجزئة والتفرقة؟

ثالثًا:

وللعلماء رصيد كبير من الثقة في نفوس الناس، مما يجعل دعوتهم أكثر مقبولية، ويمكّنهم من التغلّب على حالات اليأس والتشكيك والالتباس، وأن يتعاطى الجمهور مع دعوتهم بثقة وجدّية.

نشأة الاختلاف في الأمم السابقة

لأهمية موضوع وحدة الأمة، فإنّ القرآن الكريم يتناوله في العشرات من الآيات والسور، ويعالجه من زوايا متعددة، وجوانب مختلفة.

فبعض الآيات الكريمة تؤكد أهمية الوحدة وضرورتها، في حياة الأمة، كقوله تعالى: ﴿**إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ**﴾[2] وقوله تعالى: ﴿**وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ الله جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا**﴾[3].

(١) سورة فاطر، الآية: ٢٨.

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٩٢.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٠٣.

وآيات أُخر في القرآن الكريم تبين أضرار وأخطار الفرقة والخلاف، وتحذّر منها. يقول تعالى: **﴿وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾**(١).

بينما تشير مجموعة من الآيات القرآنية إلى الجهات الداخلية والخارجية، التي تعمل على تمزيق المجتمع، وتغذّي حالة النزاع والتمزق في الأمة، منها قوله تعالى: **﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ﴾**(٢) وقوله تعالى: **﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾**(٣) والمقصود في الآية الكريمة المنافقون، أو الطابور الخامس.

ومن المسارات التي سلكها القرآن الحكيم في تناول موضوع الوحدة، التوجيه إلى قراءة أحوال الأمم السابقة في هذا المجال، وأخذ العبر والدروس، من التحولات السلبية التي حصلت لها، وعصفت بوحدتها وتماسكها، وجعلتها عرضة للتفرق والتمزق.

فمن أيّ وسط بدأ الخلاف في الأمم السابقة؟ ومن أيّ شريحة اجتماعية انطلق وانتشر؟

اللافت للنظر ما يؤكّده القرآن الحكيم، في هذا السياق، من أن سبب الاختلاف في تلك الأمم ليس الجهل بالحقائق، ومنطلق الخلاف ليس من الأوساط الجاهلة بالدين، والبعيدة عنه، وإنما جاء الاختلاف من واقع العلم والمعرفة، وانبثق من الأوساط العالمة بالدين، التي تحتضن الدعوة، والكتب السماوية المقدسة.

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٤٦.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٩١.

(٣) سورة التوبة، الآية: ٤٧.

وهذا ما يظهر من آيات قرآنية عديدة، نذكر بعضها كنماذج:

يقول تعالى:

﴿وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾(1).

﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾(2).

﴿وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾(3).

﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرائيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾(4).

﴿وَآتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾(5).

وقد استوقفت هذه الملاحظة العديد من العلماء المفسرين للقرآن عند تناولهم لبعض هذه الآيات الكريمة.

يقول السيد محمد حسين الطباطبائي عند تفسيره للآية رقم ٢١٣ من سورة البقرة:

«إنه تعالى يخبرنا أنّ الاختلاف نشأ بين النوع في نفس الدين، وإنما أوجده حملة

(١) سورة البقرة، الآية: ٤٦.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٩.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٠٥.
(٤) سورة يونس، الآية: ٩٣.
(٥) سورة الجاثية، الآية: ١٧.

الدين ممن أوتي الكتاب المبين: من العلماء بكتاب الله بغيًا بينهم وظلمًا وعتوًّا »[1].

ويقول عند تفسيره للآية رقم ١٧ من سورة الجاثية:

« يشير إلى أنّ ما ظهر بينهم، من الاختلاف في الدين، واختلاط الباطل بالحق، لم يكن عن شبهة أو جهل، وإنما أوجدها علماؤهم بغيًا، وكان البغي دائرًا بينهم »[2].

ويتحدث السيد عبد الأعلى السبزواري بتوضيح أكثر حول الموضوع، عند تفسيره للآية ٢١٣ من سورة البقرة فيقول:

« والمعنى: أنّ الاختلاف إنما حصل من حملة الكتاب العالمين به، بغيًا بينهم وتجاوزًا، فحرفوا كتاب الله تعالى وضيّعوه وتعدّوا حدوده ».

« ويستفاد من قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ﴾ إن الاختلاف الحاصل في الكتاب والشريعة، لا يكون إلا من حملة الكتاب الذين قد استبانت لهم الآيات، وهم الأصل في الاختلاف الواقع في الأديان الإلهية، وأن غيرهم وإن كانوا على الخلاف، ولكنهم منحرفون عن الصراط وليسوا بغاة، ويشهد لذلك الاختلاف في كل علم، فإنه يكون من العالمين به دون غيرهم ممن لا علم له به.

« كما يستفاد من قوله تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ أنّ الكتاب إنما نزل لرفع الاختلاف، والتوفيق بين الناس، وإسعادهم بما فيه من الحجج الواضحة، والبراهين القويمة، ولكن يشوب الحقّ أهواء العالمين به، وأغراضهم الفاسدة، وزيغهم بتحريف الكتاب، أو تأويله، بما لا يرتضيه عزّ وجلّ، أو بتبديل آياته،

(١) محمد حسين الطباطبائي. الميزان في تفسير القرآن، ج٢، طبعة١٩٩١م، (بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات)، ص١٢٤.
(٢) المصدر نفسه. ج١٨، ص١٦٩.

والأخذ بمتشابهاته، والإعراض عن محكماته»[١].

وحول تفسير الآية ١٠٥ من سورة آل عمران يقول الشيخ عبد الرحمن السعدي:

«ثم نهاهم عن سلوك مسلك المتفرقين، الذين جاءهم الدين والبينات الموجب لقيامهم به، واجتماعهم، فتفرقوا واختلفوا، وصاروا شيعًا، ولم يصدر ذلك عن جهل وضلال، وإنما صدر عن علم وقصد سيئ، وبغي من بعضهم على بعض»[٢].

ويؤكد الحقيقة نفسها الدكتور وهبة الزحيلي عند تفسيره للآية ٢١٣ من سورة البقرة، فيقول:

«ثم ذكر الله تعالى إنّ بعض أهل الكتاب، جعلوا كتابهم مصدر الاختلاف عدوانًا وتجاوزًا للحق، فقال: لقد اختلف الرؤساء والأحبار وعلماء الدين في الكتاب الذي أنزله الله للحق، بعدما جاءتهم البينات الواضحة، والأدلة على سلامة الكتاب، وعصمته من إثارة الخلاف، وأنه لإسعاد الناس، لا لإشقائهم والتفريق بينهم، ولم يكن ذلك الاختلاف من أولي العلم القائمين على الدين الحافظين له بعد الرسل، والمطالبين بتقرير ما فيه، إلا حسدًا وبغيًا - جورًا - منهم، وتعديًا لحدود الشريعة التي أقامها حواجز للناس)[٣].

ولعلّ القرآن الكريم من خلال إثارته وطرحه المكرور، للدور السلبي الذي قام به علماء الدين في الأمم السابقة، الذين اتخذوا الدين مطية للوصول إلى مواقع

---

(١) السيد عبد الأعلى السبزواري. مواهب الرحمن في تفسير القرآن، ج٣، الطبعة الثانية ١٩٩٠م، (بيروت: مؤسسة أهل البيت)، ص٢٦٧.

(٢) الشيخ عبد الرحمن السعدي. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، طبعة١٩٩٧م (بيروت: دار الذخائر، مؤسسة الريان).

(٣) التفسير المنير، ج٢، ص٢٤٨.

الزعامة والنفوذ، وسلاحًا في معاركهم الداخلية المصلحية مع بعضهم بعضًا، فمزقوا وحدة أممهم، وحولوها إلى أحزاب متناحرة، وشيع متصارعة باسم الدين...

لعلّ القرآن يريد بذلك تنبيه الأمة وتحذيرها، لتنظر إلى علمائها بعقول واعية، ولتتعامل معهم بعيون مفتوحة، لا بثقة عمياء وتقديس مطلق.

إذا اختلف علماء الدين

قد يحدث الاختلاف والنزاع داخل أيّ شريحة من شرائح المجتمع، وعلى أيّ مستوى من مستوياته، وهو أمر سيئ ضار، لكن أضراره تبقى ضمن حدود معينة، أما إذا حدث الاختلاف والنزاع في وسط علماء الدين، فإنّ الأضرار ستكون أشد، والخطر أعظم. وذلك لأنه ينطوي على الأبعاد التالية:

١. استغلال الدين:

في الخلاف بين علماء الدين، يصبح الدين هو ميدان الصراع، وتكون القضايا الدينية هي أدوات النزاع والخلاف، حيث يسعى كل طرف للتحصن بالدين، في مقابل الطرف الآخر، وتعزيز موقفه في النزاع بمبررات دينية، وقد يكون -كما هو الغالب- جوهر الصراع هو اختلافًا مصلحيًّا، لكنه ما يلبث أن يأخذ المنحى الديني، أو يكون في البداية اختلافًا محدودًا، ضمن مسألة من المسائل الدينية، لكن حالة الصراع توسّع رقعة الخلاف، وبشكل مفتعل متكلف، يطال أغلب المسائل والقضايا الدينية، حتى يصبح الدين الواحد دينين، والمذهب مذهبين، والمدرسة الفكرية تنشطر إلى مدرستين..

ثم يزايد كلّ طرف على الآخر في التمسك بالدين، ويتهمه في دينه وعقيدته

والتزامه، ويعطي لنفسه الحق في إصدار أحكام التكفير والتفسيق والمروق والخروج من الدين..

وهكذا يصبح الدين ساحة صراع، وخنادق للقتال، ومواقع للمهاجمة والرمي، وتصويب السهام، فتتمزق الأمة وتحترب وتتشرذم باسم الدين، وتحت رايات تحمل شعاراته، وخلف قيادات تلبس مسوحه.

٢. طمس الحقائق الدينية وتحريفها:

لعلّ من أسوأ وأخطر آثار الصراع والخلاف بين علماء الدين، انعكاسه على طرح وتبيين الحقائق الدينية.

فقد يلجأ أحد طرفي الصراع، أو كلاهما، إلى إنكار حقيقة دينية، أو طمسها؛ لأنّ الطرف الآخر يستفيد منها، أو يقول بها.

وقد يحرّف شيئًا من مفاهيم الدين، أو ينسب للدين ما ليس منه، نكاية بالطرف الآخر، وكم حصل في الديانات السابقة، وحتى في الإسلام، تحريف وتزوير وإضافة وإنقاص؛ بسبب حالات الخلاف والصراع، بين المذاهب والمدارس والجهات الدينية.

وفي أكثر من آية في القرآن الكريم، جاء التحذير من التحريف والتزوير، والطمس للحقائق الدينية، بدوافع مصلحية، وعلى خلفية التعصب والاختلاف. يقول تعالى: ﴿**مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ**﴾[1] أي يصرفونه عن المعنى المقصود منه وينسبونه إلى معنى آخر.

---

(١) سورة النساء، الآية: ٤٦.

وحينما يجد عالم الدين نفسه في مقابل عالم آخر، فإنّ الدوافع الذاتية قد تدفعه لإثبات تميزه، أو تفوّقه على مقابله، وإن كان ذلك على حساب الحق والحقيقة، إلّا من عصم الله من الورعين المخلصين الأتقياء.

من هنا جاءت تعاليم الإسلام، وتوجيهات أئمة الهدى، للتحذير من الدخول في أيّ نقاش أو مناظرة تشوبها الدوافع الذاتية، فالحوار والجدال مع الآخرين المختلفين مع الإنسان دينيًّا، يجب أن يكون خالصًا لخدمة الحق، واستكشاف الحقيقة، وضمن الآداب والضوابط، التي ترتقي بالحوار والجدال إلى أفضل مستوى، وأحسن أسلوب، كما يقول تعالى: ﴿**وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**﴾[1]، ﴿**وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**﴾[2].

روي أنّ رجلا قال للحسين بن علي عليهما السلام: (اجلس حتى نتناظر في الدين فقال: يا هذا أنا بصير بديني، مكشوف عليَّ هداي، فإن كنت جاهلًا بدينك، فاذهب واطلبه ما لي وللمماراة؟! وإنّ الشيطان ليوسوس للرجل ويناجيه ويقول: ناظر الناس في الدين كيلا يظنوا بك العجز والجهل)[3].

إنّ الإخلاص للحقيقة، والموضوعية في الحوار والمناظرة، عند الاختلاف، تستلزم القبول بالحق، وإن جاء على لسان الخصم، وحتى لو كان الطرف الآخر مبطلًا في أصل دعواه واتجاهه، لكنه أورد برهانًا صحيحًا في معرض جداله، فإنه لا يصح رفض البرهان الصحيح بسبب العجز عن مقابلته.

وهذا ما تشير له رواية عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام، قال فيها: (أما

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٤٦.

(٢) سورة النحل، الآية: ١٢٥.

(٣) بحار الأنوار. ج٢، ص١٣٥.

الجدال بغير التي هي أحسن، أن تجادل مبطلًا، فيورد عليك باطلًا، فلا تردّه بحجة قد نصبها الله تعالى، ولكن تجحد قوله، أو تجحد حقًّا يريد ذلك المبطل أن يعين به باطله، فتجحد ذلك الحق مخافة أن يكون عليك حجة؛ لأنك لا تدري كيف المخلص منه).

وفي فقرة أخرى من نفس الرواية: (وأما الجدال بغير التي هي أحسن، بأن تجحد حقًّا لا يمكنك أن تفرّق بينه وبين باطل من تجادله، وإنما تدفعه عن باطله بأن تجحد الحق، فهذا هو المحرّم؛ لأنك مثله، جحد هو حقًّا وجحدت أنت حقًّا آخر)[١].

وقد أفرد الإمام أبو حامد الغزالي بابًا في موسوعته (إحياء علوم الدين) لبيان آفات المناظرة وما يتولّد منها من مهلكات الأخلاق[٢].

والغريب أنّ بعض العلماء يجاهر بتخليه عن الموضوعية، ومخالفته للحقيقة والأحكام الشرعية، بمبرر التمايز عن الطرف الآخر، ومخالفته فيما ذهب إليه.

وكمثال على ذلك، ما ذكره الزرقاني في (المواهب اللدنية) في صفة عِمّة النبي ﷺ على رواية علي عليه السلام في إسدالها على منكبه حين عمّمه رسول الله ﷺ، ثم ذكر قول الحافظ العراقي إنّ ذلك أصبح شعار كثير من فقهاء الإمامية فينبغي تجنبه لترك التشبه بهم[٣].

وفي تفسيره للآية الكريمة ﴿**إِنَّ الله وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا**﴾[٤] يتحدث العلامة الآلوسي البغدادي عن

(١) المصدر نفسه. ص١٢٥-١٢٦.

(٢) إحياء علوم الدين. ج١، ص٦٨.

(٣) الإمام الصادق والمذاهب الأربعة. ج١، ص٢٠٥.

(٤) سورة الأحزاب، الآية: ٥٦.

الصلاة على غير الأنبياء والملائكة ﷺ فيقول:

«اضطربت فيها أقوال العلماء، فقيل تجوز مطلقًا، قال القاضي عياض، وعليه عامة أهل العلم، واستدل له بقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ﴾ وبما صح من قوله ﷺ: (اللهم صلَّ على آل أبي أوفى) وقوله ﷺ وقد رفع يديه: (اللهم اجعل صلواتك ورحمتك على آل سعد بن عبادة). وصحّح بن حبان خبره»، أن امرأة قالت للنبي ﷺ: (صلِّ عليّ وعلى زوجي ففعل) وفي خبر مسلم (إن الملائكة تقول لروح المؤمن: (صلّى الله عليك وعلى جسدك) وقيل لا تجوز مطلقًا، وقيل لا تجوز استقلالًا، وتجوز تبعًا، فيما ورد فيه النص كالآل أو أُلحق به كالأصحاب).

ثم يذكر أدلّة أحد المانعين من الصلاة على غير الأنبياء والملائكة وهو محلّ الشاهد في بحثنا، فيقول عنه: (هو أمر لم يكن معروفًا في الصدر الأول، وإنما أحدثه الرافضة في بعض الأئمة والتشبه بأهل البدع، منهي عنه فتجب مخالفتهم)[1].

وينقل الشيخ ابن تيمية في منهاج السنة أنّ (المعروف في العراق أنّ الجهر بالبسملة كان من شعار الرافضة، وأنّ القنوت في الفجر كان من شعار القدرية، حتى إن سفيان الثوري وغيره من الأئمة يذكرون في عقائدهم ترك الجهر بالبسملة؛ لأنه كان عندهم من شعار الرافضة)[2].

ثم يقول ابن تيمية: (ومن هنا ذهب من ذهب من الفقهاء، إلى ترك بعض المستحبات، إذا صارت شعارًا لهم -الشيعة- فإنه وإن لم يكن الترك واجبًا لذلك، لكن في إظهار ذلك مشابهة لهم، فلا يتميز السني من الرافضي، ومصلحة التميّز

(١) روح المعاني، ج٢٢، ص٨٥.

(٢) أحمد بن تيمية الحراني. منهاج السنة، ج٢، الطبعة الأولى١٣٢١هـ، (مصر: المطبعة الكبرى الأميرية)، ص١٤٦.

عنهم لأجل هجرانهم ومخالفتهم، أعظم من مصلحة هذا المستحب)[1].

وأذكر مرّة أنّ أحد العلماء أفتى لشخص ببطلان صلاته؛ لأنه اقتدى فيها بإمام يختلف معه، وأمره بإعادة الصلاة، مع إجماع الفقهاء على صحة الصلاة إذا اقتدى فيها بإمام، معتقدًا توفره على شرائط الإمامة، فبان افتقاده لها أو لبعضها، وحتى لو تبيّن بعد الصلاة كون الإمام فاسقًا أو كافرًا! ويورد الفقهاء رواية عن الإمام الصادق عليه السلام: في قوم خرجوا من خراسان أو بعض الجبال، وكان يؤمهم رجل، فلما صاروا إلى الكوفة علموا أنه يهودي، قال عليه السلام: لا يعيدون[2].

ومع هذا، فإنّ ذلك العالم أفتى بإعادة الصلاة خلف إمام مسلم، على نفس مذهبه، مع ثقة المصلي باجتماع الشرائط فيه حين الصلاة، لا لشيء إلّا على خلفية الصراع والنزاع.

٣. إضعاف المصداقية والثقة في الدين وعلمائه:

يتأثر الناس، في نظرتهم إلى أيّ فكرة أو مبدأ، بالواقع المنتسب إلى تلك الفكرة أو المبدأ، سلبًا أو إيجابًا. وكما يقال، فالناس عقولهم في عيونهم، فالواقع الجميل يعتبر عامل جذب وتبشير بالفكرة التي يرتبط بها، بينما ينفّر الواقع السيئ من أيّ فكرة ينتسب إليها.

والإسلام كمنظومة قيم وتشريعات إلهية عظيمة، يجب أن تنعكس وتتجلى في حياة المؤمنين به، ليكون ذلك دافعًا لإقبال الآخرين على اعتناقه، والالتزام به، من

(١) المصدر نفسه. ص١٤٧.

(٢) السيد محسن الحكيم الطباطبائي. مستمسك العروة الوثقى، ج٧، (بيروت دار إحياء التراث العربي)، ص٣٠٧.

خلال مشاهدتهم لنموذج تطبيقي مشَّرف.

أما لو حصل العكس من ذلك، وكانت حياة المتدينين سيئة متخلفة، فإن ذلك سيسبب عزوفًا عند الآخرين من الدين.

لذلك يُروى عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام قوله مخاطبًا تلامذته وأتباعه: (كونوا دعاة للناس بغير ألسنتكم، ليروا منكم الورع والاجتهاد والصلاة والخير، فإنّ ذلك داعية)[1].

وفي نص آخر يخاطب أتباعه قائلًا: (إنكم قد نُسبتم إلينا، كونوا لنا زينًا ولا تكونوا علينا شينًا)[2].

وعلماء الدين هم قمة المجتمع الإسلامي، و طليعته، فإذا ما كان واقعهم مشرقًا نقيًّا، يعكس صفاء قيم الإسلام، فإنّ ذلك يقدم للآخرين صورةً مشرقة عن الدين، مما يزيد من الاندفاع والإقبال على الدين، والالتزام بمبادئه.

أما إذا ظهر الخلاف والصراع بين علماء الدين، ونشط كل واحد منهم في إظهار معايب الآخر وأخطائه، فسيعطي ذلك صورة مشوهة عن الإسلام، وسيتساءل الكثيرون: إذا كانت تعاليم الدين سليمة ومجدية؛ فلماذا لا يظهر أثرها على حملته والمبشرين به؟

وعلماء الدين يفترض أن يكونوا قادة المجتمع المسلم، ومحلّ ثقته ومحور التفافه، وكيف تتوفر فيهم ثقة الناس، إذا ما اختلفوا وتصارعوا، وعملوا على إسقاط سمعة بعضهم بعضًا؟

---

(١) الكافي. ج٢، ص٧٨.

(٢) مشكاة الأنوار. ج٦٧، ص١٨٠.

لقد استفاد المخالفون للإسلام كثيرًا من وجود الخلافات والنزاعات بين الجهات الدينية، لإبعاد الناس عن العلماء، عبر التشكيك في مصداقيتهم، والتأكيد على دوافعهم الذاتية المصلحية، ونزوعهم إلى المواقع والمناصب.

٤. عمق الخلاف وانتشاره:

نظرًا لموقعية العلماء المميزة في أوساط جماهير الأمة، وللتأثير الكبير الذي يمتلكونه فإن اختلافهم ونزاعهم لن يبقى في حدودهم، وإنما سيعكسه كل منهم على أتباعه، وسينشره في ساحة نفوذه وتأثيره، وبذلك يصبح الخلاف بين كل عالمين، خلافًا ونزاعًا بين جماعتين وفرقتين من المجتمع، وليس خلافًا بين شخصين، كما هو شأن أيّ اختلاف بين الأشخاص العاديين.

وقد يجد الناس أنفسهم محشورين ومتورطين في صراع ونزاع بين عالمين، تحت عنوان قضية فكرية، أو مسألة شرعية، لا يعرفون مضمونها، ولا دليلها وبرهانها، وإنما يتمحور كلّ قسم منهم حول عالم يثقون به، أو قد توارثوا الولاء لاتجاهه.

وقد عايشت بعض مظاهر وحالات الخلاف والنزاع بين الناس في منطقتنا، لفترة سابقة، بين من يسمّون أنفسهم بالأصوليين، ومن يسمّون أنفسهم بالإخباريين، والخلاف في جوهره علمي يرتبط بمناهج استنباط الأحكام الشرعية، ولا دخل فيه لعامة الناس، بل لا يعرف الأصولي منهم ماذا تعني الأصولية؟ ولا الإخباري منهم ماذا تعني الإخبارية؟ ولكنهم مع ذلك يتنازعون ويتمايزون!! وقد يتشدد بعضهم في رفض التزاوج، والاقتداء بالطرف الآخر، في صلاة الجماعة وما أشبه، دون مبرر، إلا توارث الانتماء والالتفاف حول هذا العالم أو ذاك.

وإضافة إلى انتشار الخلاف، واتساع رقعته، بين أبناء المجتمع، هناك مشكلة

أعقد، هي حدة الصراع وعمقه غالبًا، حيث يأخذ الخلاف صبغة دينية، ويرى كلّ طرف نفسه محقًّا، والآخر مبطلًا، وقد يجيز لنفسه تكفير الآخر، أو تفسيقه، أو مقاطعته، أو إعلان الحرب عليه.

وهذا ما يحدث عادة في الخلافات الدينية، فأقسى الحروب وأبشعها تلك التي تتم بشعارات دينية، وأعمق النزاعات وأشدها ما يدور منها في أوساط المتدينين، وبتصدي القيادات الدينية.

٥. الانشغال بالخلافات:

العالم يجب أن يكرّس جهوده ووقته لاستنباط حقائق الدين وأحكامه، ولنشرها وبثّها في المجتمع، وللدعوة إلى الله تعالى، حتى في أوساط غير المسلمين، ولردّ شبهات الكفار والمخالفين للدين، وتعبئة الأمة لمواجهة الأخطار المحدقة بها، ولترتقي إلى مستوى الريادة بين الأمم لتكون كما أرادها الله تعالى ﴿**خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ**﴾(١)، و ﴿**شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ**﴾(٢).

لكن الخلافات والنزاعات بين علماء الدين، تشغلهم ببعضهم بعضًا، فتتركز أذهانهم وأفكارهم في ميدان هذا الصراع، وتتجه جهودهم وأنشطتهم لتحقيق الأهداف والنقاط في ساحته، وتتمحور علاقاتهم وتحالفاتهم على أساسه.

وحينما ابتلي علماء الأمة في عصور التخلف بهذا الداء الوبيل، تقلصت جهودهم للتبشير بالإسلام، وتوسيع رقعة انتشاره، كما توقفت لديهم حركة الإبداع العلمي والفكري، وأصبح الجهد منصبًّا على شرح المتون السابقة، والجدل حول مفاداتها،

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١١٠.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٤٣.

مما أدى إلى انكماش دورهم القيادي في المجتمع.

ولو تصفحنا المكتبة الإسلامية لوجدناها مليئة بكتب الخلافات والردود المتبادلة، بين الأشاعرة والمعتزلة، وبين الشيعة والسنة، وداخل كل مذهب بين الاتجاهات المختلفة.

بينما تقل الكتابات التي تسبر أغوار الفكر الإسلامي، وتستجلي أبعاده، وتستنبط برامج الشريعة لمختلف جوانب الحياة، وتستنهض الأمة لتفجير كفاءاتها، ولمواجهة التحديات التي تحيط بها، وتوجه الأنظار إلى خزائن الكون، وثروات الطبيعة، وأدوارهم الطليعية.

وهكذا تزّيف الخلافات والصراعات اهتمامات العلماء، وتشغلهم عن القيام بمهامهم الأساس، وأدوارهم الطليعية.

الاختلاف العلمي

هناك تساؤل عريض يدور في أوساط الجمهور، وعامة أفراد المجتمع، هو: لماذا وكيف يحصل الاختلاف بين العلماء؟ وعادة ما يأتي السؤال بصيغة الاستغراب والاستنكار!!

الاستغراب نتيجة لما يعتقده الناس من أنّ العلماء يعبّرون عن الدين، ويتحدثون عن حقائقه وأحكامه، والدين واحد، وحقائقه وأحكامه واحدة ثابتة، فكيف يختلف العلماء فيما ينقلونه عن الدين، وتتعدد فتاواهم وآراؤهم في الموضوع الواحد، والمسألة الواحدة؟

ثم كيف يدرك الناس ويعرفون الرأي الحقيقي، والحكم الواقعي للدين، مع هذا الاختلاف والتفاوت في الآراء والفتاوى؟

والاستنكار لما يتوقعه الناس من نزاهة العلماء وورعهم، وحسن نياتهم، والتزامهم تعاليم الإسلام، وتخلّقهم بأخلاقه وآدابه، مما يجعلهم وفقًا لتوقّعات

الناس، منسجمين متعاونين فيما بينهم، لا سبيل للشيطان عليهم، ولا تأثير للمصالح والأغراض المادّية في نفوسهم، وإلّا فكيف يكونون علماء وأئمة للناس، وحجة فيما بينهم وبين الله؟

هذا التساؤل الذي يدور بإلحاح، في أوساط العامة من الناس، يستوجب منّا وقفة متأنّية، ومعالجة هادئة، للإجابة عنه، باستعراض أهم الأسباب والعوامل، التي تنتج منها حالات الاختلاف بين العلماء، وهي في مجملها العوامل والأسباب نفسها لأيّ اختلاف آخر يجري بين أبناء البشر، ضمن مختلف الشرائح والتخصصات.

فالعلماء مثلهم مثل سائر الناس، والعلوم الدينية التي اكتسبوها لا تتجاوز بهم طبيعتهم البشرية، ولا تنقلهم إلى الحالة الملائكية، كما لا تمنحهم درجة العصمة التي اختص الله تعالى بها أنبياءه وأوصياءهم.

صحيح أنّ العلماء يعتمدون في آرائهم الدينية، وفتاواهم الشرعية، على مصدرين أساسيين، هما الكتاب والسنة، لكن ذلك لا يعني الاتفاق في الآراء والفتاوى.

ففي القرآن الكريم، وهو المصدر الأول، والمقطوع بصدوره من قبل الله تعالى حرفًا حرفًا، دون أيّ زيادة أو نقصان، إلّا أنّ فهم الدلالة والمعنى في بعض الآيات الكريمة، قد تكون مجالًا للاختلاف بين العلماء والمفسرين، إما لأسباب تعود للغة، كما إذا ورد في الآية لفظ مشترك، وضع لمعانٍ متعددة مختلفة، كلفظ «عين» حيث تستعمل في الباصرة، والجارية، والذهب الخالص، والرقيب، ولم تكن إلى جانبها قرينة تدلّ على المراد منها فهنا يحصل الاختلاف في حملها على أيّ معانيها.

ومن شواهد هذه الحالة قوله تعالى: ﴿**وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ**

قُرُوءٍ﴾[1] ولفظ (القرء) في اللغة مشترك، بين الطهر والحيض، لذا اختلف الفقهاء في عدة المطلقة، أتكون بالحيض أم بالإطهار.

وكذلك فيما يكون للفظ استعمالان: حقيقي ومجازي، فيختلف العلماء حول المراد من ذلك اللفظ في الآية، هل هو المعنى الحقيقي أو المجازي؟.. وما شابه ذلك من موارد. كما في اختلافهم حول آية الوضوء، في سورة المائدة وهي قوله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾**[2].

فالآية تنص على مسح الرأس في الوضوء، لكن حرف الباء الوارد في (برؤوسكم) هل هو للتبعيض؟ فيكفي مسح بعض الرأس، وبه قال فقهاء مذهب أهل البيت، وفقهاء المذهب الحنفي والشافعي، أم هو حرف زائد؟ أو للإلصاق؟ فيجب مسح جميع الرأس، كما هو رأي فقهاء المذهب المالكي والحنبلي.

وقوله تعالى: **﴿وَأَرْجُلَكُمْ﴾** هل هي معطوفة على **﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾**؟ فيكون حكم الرجلين هو الغسل كالوجه، وهو ما يراه فقهاء المذاهب الأربعة، أو أنها معطوفة على **﴿وَامْسَحُوا بِرُؤُوسِكُمْ﴾** فيكون حكم الرجلين المسح كالرأس، وهو ما ذهب إليه فقهاء مذهب أهل البيت. ويستند أهل كل رأي لدليل يعتمدون عليه.

وقد ينشأ الاختلاف حول مفاد النص القرآني، لتفاوت مستويات المعرفة والإدراك، أو نظرًا لعلاقة النص بنصوص أخرى، من القرآن أو السنة.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٢٨.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٦.

وفيما يرتبط بالسُنّة النبويّة، وهي المصدر الثاني للتشريع الإسلامي، فإنّ مجال الاختلاف فيها بين العلماء أوسع، وأسبابه أكثر؛ لأنّ القرآن الكريم يتفق المسلمون على قطعية صدوره من قبل الله تعالى، ثم قد يختلفون في مداليل ومعاني بعض آياته ـ كما سبق ـ أما السنة، فإنّ كل حديث من أحاديثها يحتاج إلى بحث، للتأكد من صحة سنده أولًا، ومن ثم يكون البحث في مدلوله ومعناه، وكلا الجانبين يتسع لاختلاف وتعدد وجهات النظر.

فالعالم لا يقبل حديثًا، إلّا إذا كان مطمئنًا من صدق راويه، وصحة سند روايته، وهنا يتفاوت تقويم العلماء للرواة، وقبولهم لأسانيد الروايات.

ثم قد يحصل الاتفاق على صحة حديث، لكن يختلف في تحديد معناه ودلالته. وكمثال على ذلك حديث غدير خم وهو (قوله ﷺ يوم غدير خم (موضع بالجحفة) مرجعه من حجة الوداع بعد أن جمع الصحابة، وكرر عليهم: ألست أولى بكم من أنفسكم ثلاثًا، وهم يجيبون بالتصديق والاعتراف، ثم رفع يد علي، وقال: من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم والِ من والاه، وعادِ من عاداه، وأحبّ من أحبّه، وأبغض من أبغضه، وانصر من نصره، واخذل من خذله، وأدِرِ الحقّ معه حيث دار)[1] وهذا الحديث أجمع علماء الشيعة على صحته وقبوله، ورأوه دالًا على تنصيب علي بن أبي طالب كإمام ووليّ وخليفة من قبل رسول ﷺ، ووافقهم على قبول الحديث كثير من علماء السنة، ولكنهم خالفهم في تحديد دلالة الحديث.

وأورده المحدث السلفي المعاصر، الشيخ محمد ناصر الدين الألباني، في كتابه سلسلة الأحاديث الصحيحة، وعدد له أكثر من عشرين طريقًا، ثم أضاف قائلًا:

---

(١) أحمد بن حجر الهيثمي. الصواعق المحرقة في الرد على أهل البدع والزندقة، طبعة ١٣٧٥هـ، مكتبة القاهرة، ص٤٠.

(وللحديث طرق أخرى كثيرة، جمع طائفة منها الهيثمي في المجمع (٩/ ١٠٣-١٠٨) وقد ذكرت وخرّجت ما تيسر لي منها، مما يقطع الواقف عليها، بعد تحقيق الكلام على أسانيدها، بصحة الحديث يقينًا، وإلّا فهي كثيرة جدًّا، وقد استوعبها ابن عقدة في كتاب مفرد. قال الحافظ ابن حجر: منها صحاح ومنها حسان)[(١)].

يقول ابن حجر: (إنه حديث صحيح لا مرية فيه، وقد أخرجه جماعة، كالترمذي والنسائي وأحمد، وطرقة كثيرة جدًّا، ومن ثم رواه ستة عشر صحابيًّا، وفي رواية لأحمد أنه سمعه من النبي ﷺ ثلاثون صحابيًّا، وشهدوا به لعلي لما نوزع أيام خلافته - كما مرّ وسيأتي - وكثير من أسانيدها صحاح وحسان، ولا التفاف لمن قدح في صحته ولا لمن رده)[(٢)].

لكنه يخالف علماء الشيعة في الاستدلال بالحديث على إمامة علي وخلافته بقوله: (لا نسلم أنّ معنى الولي ما ذكروه، بل معناه الناصر؛ لأنه مشترك بين معانٍ، كالمعتق والعتيق والمتصرف في الأمر، والناصر والمحبوب، وهو حقيقة في كلٍّ منها، وتعيين بعض معاني المشترك من غير دليل يقتضيه تحكم لا يعتدّ به).

بينما يرى علماء الشيعة أنّ القرائن الحالية التي تزامنت مع النص من أمر رسول الله ﷺ بإيقاف حركة سير قوافل الحجيج، الذين بلغ عددهم نحو مئة ألف، في تلك الصحراء التي يلفحها الهجير، وتلتهب رمالها بوهج الظهيرة، ومن أخذه ﷺ بيد علي عليه السلام، ورفعها أمام الناس، وكذلك القرائن اللفظية كقوله ﷺ: ألست أولى بكم من أنفسكم، ثلاثًا، وهم يجيبونه بالتصديق، ودعائه لعلي بتلك الدعوات المميزة،

---

(١) محمد ناصر الدين الألباني. سلسلة الأحاديث الصحيحة، ج٤، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ، (عمّان: المكتبة الإسلامية، الكويت: الدار السلفية)، ص٣٣٠-٣٤٣.
(٢) الصواعق المحرقة، ص٤٠.

اللهم والِ من والاه، وعادِ من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله.

إضافة إلى العديد من النصوص والإشارات والمؤشرات، التي يرى فيها علماء الشيعة تحديدًا وتأكيدًا لدلالة هذا النص على تنصيب الإمام علي للخلافة والإمامة[1].

فهنا اتّفاق على النص وصحة صدوره عن النبي ﷺ، لكن الاختلاف هو في تحديد دلالة النص.

وهناك مصادر أخرى يختلف العلماء في مدى وحدود حجيتها للتشريع الإسلامي، كالإجماع والعقل، وما يتفرع عنه من قياس واستحسان.

فالإجماع مثلًا: هل هو حجة بذاته، وكأصل مستقلّ من أصول التشريع، كما يقول بذلك جمهور فقهاء المذاهب الأربعة؟ أم إنه حكاية عن أصل، فحجيته تتوقف على كاشفيته عن رأي المعصوم كما يقول فقهاء الشيعة؟

ثم ما هي حدود الإجماع الذي يحتج به؟ هل هو إجماع مطلق الأمة؟ أو خصوص المجتهدين منهم في عصر؟ أو اتفاق أهل المدينة؟ أو اتفاق مجتهدي المذاهب خاصة؟

ظاهرة الاختلاف العلمي

الاختلاف في الرأي والفتوى بين العلماء، مع وحدة المصدر، هو أمر له أسبابه ومبرراته المعقولة، وهي جزء من ظاهرة الاختلاف الطبيعية بين أبناء البشر، في مختلف مجالات المعرفة، وميادين الحياة. فالأطباء والمهندسون والاقتصاديون

---

(١) يراجع: الشيخ عبد الحسين الأميني. الغدير في الكتاب والسنة والأدب، ج١، طبعة١٤١٤هـ، (بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات)، ص٤١٨-٤٥٨.

والفنيون، وسائر الشرائح العلمية والعملية في المجتمع، تتعدد في أوساطهم المدارس والمناهج، والآراء والنظريات.

وقد يضيق البعض ذرعًا بهذا الاختلاف بين العلماء، في الفتوى والرأي، ويتساءلون عن إمكان تلافي حالة الاختلاف، والخروج منها، بأن يتفق علماء الإسلام على آراء وفتاوى موحدة، في الأصول والفروع، للعبادات والمعاملات، فلا تكون هناك مذاهب متعددة ولا مدارس مختلفة ولا أحكام متضاربة.

لكن هذه أمنية لا تنسجم مع طبيعة الدين، الذي أراد الله تعالى أن تكون فيه مساحة للاجتهاد، وشحذ العقول والأذهان، وعبر ذلك يُبتلى الإنسان، ويُمتحن إخلاصه في البحث عن الحقيقة والتسليم لها، ولو كانت كل الأحكام منصوصة واضحة، لا تحتمل خلافًا، لما كان هناك بحث ولا اجتهاد، ولا استلزم الأمر ابتلاءً وامتحانًا.

ولعلّ في قوله تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا الله وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ**﴾[1]، لعلّ في ذلك إشارة إلى هذا المعنى.

كما أنّ طبيعة اللغة تنتج شيئًا من الاختلاف، فالقرآن الحكيم نصوص قولية لفظية، والسنة المنقولة كذلك، ألفاظ وأقوال، والأقوال لدى أبناء البشر، يرد فيها الاختلاف؛ لوجود الألفاظ المشتركة، التي تحتمل أكثر من معنى، ولوجود المعاني الحقيقة والمجازية، ولإمكان الدلالة بالمنطوق والمفهوم.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٧.

ولذا تتعدد الشروح والتفسيرات، لأقوال الأدباء والعلماء والحكماء، ويحصل الاختلاف في تفسير مواد القوانين والمعاهدات، والوثائق الرسمية، والنقل التاريخي.

وأخيرًا، فإنّ طبيعة البشر، في تفاوت مستويات علومهم وأفهامهم، واختلاف توجهاتهم، وحالاتهم النفسية، تنعكس ولا شك على استنتاجاتهم وآرائهم ومواقفهم.

لكل ذلك، يكون الاختلاف العلمي في الرأي والفتوى، أمرًا طبيعيًّا لا مفرّ منه، ولا يمكن تجاوزه.

إيجابيات الاختلاف العلمي

على أنّ هذا الاختلاف العلمي قد ساهم في تنشيط حركة الفكر والاجتهاد، وأنتج هذه الثروة المعرفية الكبيرة للأمة، فلو كان هناك رأي واحد ثابت، في تفسير الآيات القرآنية، لما كانت لدينا هذه المكتبة القرآنية الواسعة من التفاسير، حيث يسعى كلّ مفسر لإمعان النظر والتدبّر في الآيات الكريمة، واكتشاف الجديد والمزيد من آفاقها ومعانيها، دون أن يقيد حركة فكره برأي مفسر سابق.

ولو كان هناك سقف في الفتوى برأي محدد، في جميع الأحكام، لا يمكن تجاوزه، لما توفّرت للأمة هذه الثروة الفقهية التشريعية الضخمة، التي نوهت بها المجامع والمؤتمرات العالمية مثل مؤتمر (لاهاي) للقانون المقارن سنة ١٩٣٦م، ومؤتمر باريس سنة ١٩٥١م.

ويدرك العلماء المفكرون أهمية هذه الثروة العلمية، وما فيها من تنوع في الأفكار

والاجتهادات، تتيح المجال لتقديم البرامج والطروحات التشريعية المتكاملة، لمختلف مجالات الحياة.

حينما قام الفقيه الشهيد السيد محمد باقر الصدر ببحثه العلمي، ودراسته القيمة، حول نقد المذاهب الاقتصادية الماركسية والرأسمالية، ورسم معالم المذهب الاقتصادي للإسلام، وجد في تنوع الآراء الاجتهادية للفقهاء المسلمين، رصيدًا مهمًّا استفاد منه في تكوين صورة متكاملة عن الاقتصاد الإسلامي. يقول ﵀: (فالاجتهاد إذن عملية معقدة، تواجه الشكوك من كلّ جانب. ومهما كانت النتيجة راجحة في رأي المجتهد، فهو لا يجزم بصحتها في الواقع، ما دام يحتمل خطأه في استنتاجها، إما لعدم صحة النص في الواقع وإن بدا له صحيحًا، أو لخطأ في فهمه، أو في طريقة التوفيق بينه وبين سائر النصوص، أو لعدم استيعابه نصوصًا أخرى ذات دلالة في الموضوع، ذهل عنها الممارس، أو عاثت بها القرون.

(وهذا لا يعني، بطبيعة الحال، إلغاء عملية الاجتهاد، أو عدم جوازها، فإنّ الإسلام -بالرغم من الشكوك التي تكتنف هذه العملية- قد سمح بها، وحدد للمجتهد المدى الذي يجوز له أن يعتمد فيه على الظن، ضمن قواعد تشرح عادة في علم أصول الفقه، وليس على المجتهد إثم إذا اعتمد ظنه في الحدود المسموح بها، سواء أخطأ أو أصاب.

(وعلى هذا الضوء، يصبح من المعقول ومن المحتمل أن توجد لدى كلّ مجتهد مجموعة من الأخطاء والمخالفات لواقع التشريع الإسلامي، وإن كان معذورًا فيها. ويصبح من المعقول أيضًا أن يكون واقع التشريع الإسلامي في مجموعة من المسائل التي يعالجها موزعًا هنا وهناك، وبنسب متفاوتة في آراء المجتهدين، فيكون هذا المجتهد على خطأ في مسألة وصواب في مسألة أخرى، ويكون الآخر على العكس.

(ولكن علينا أن نتساءل: هل من الضروري أن يعكس لنا اجتهاد كلّ واحد من المجتهدين ـ بما يضم من أحكام ـ مذهبًا اقتصاديًّا كاملًا، وأسسًا موحدة منسجمة مع بناء تلك الأحكام وطبيعتها؟

(ونجيب على هذا السؤال بالنفي؛ لأنّ الاجتهاد الذي يقوم على أساسه استنتاج تلك الأحكام معرض للخطأ، وما دام كذلك، فمن الجائز أن يضم اجتهاد المجتهد عنصرًا تشريعيًّا غريبًا على واقع الإسلام، قد أخطأ المجتهد في استنتاجه، أو يفقد عنصرًا تشريعيًّا إسلاميًا لم يوفق المجتهد للظفر به في النصوص التي مارسها. وقد تصبح مجموعة الأحكام التي أدى إليها اجتهاده متناقضة في أسسها بسبب هذا أو ذاك، ويتعذر عندئذٍ الوصول إلى رصيد نظري كامل يوحد بينها، أو تفسير مذهبي شامل يضعها جميعًا في إطّراد واحد.

(فليس من الضروري أن تعكس الأحكام التي يضعها ذلك الاجتهاد مذهبًا اقتصاديًّا كاملًا، وأساسًا نظريًّا شاملًا، ما دام من الممكن فيها أن تضم عنصرًا غريبًا، أو تفقد عنصرًا أصيلًا، بسبب خطأ المجتهد.

(وقد يؤدي خطأ واحد في مجموعة تلك الأحكام إلى قلب الحقائق في عملية الاكتشاف رأسًا على عقب، وبالتالي إلى استحالة الوصول إلى المذهب الاقتصادي عن طريق تلك الأحكام.

(ولهذا، قد يواجه الممارس لعملية اكتشاف المذهب الاقتصادي محنة، هي محنة التناقض بين وصفه مكتشفًا للمذهب، ووصفه مجتهدًا في استنباط الأحكام. وذلك فيما إذا افترضنا أن المجموعة من الأحكام التي أدى إليها اجتهاده الخاص، غير قادرة على الكشف عن المذهب الاقتصادي. فالممارس في هذه الحالة، بوصفه مجتهدًا

في استنباط تلك الأحكام، مدفوع بطبيعة اجتهاده إلى اختيار تلك الأحكام التي أدى إليها اجتهاده، لينطلق منه في اكتشافه للمذهب الاقتصادي. ولكنه، بوصفه مكتشفًا للمذهب، يجب عليه أن يختار مجموعة منسقة من الأحكام، منسجمة في اتجاهاتها ومدلولاتها النظرية، ليستطيع أن يكتشف على أساسها المذهب، وهو حين لا يجد هذه المجموعة المنسقة في الأحكام التي أدى إليها اجتهاده الشخصي، يجد نفسه مضطرًا إلى اختيار نقطة انطلاق أخرى، مناسبة لعملية الاكتشاف.

(والسبيل الوحيد الذي يتحتم على الممارس سلوكه في هذه الحالة، أن يستعين بالأحكام التي أدت إليها اجتهادات غيره من المجتهدين)[١].

شرعية الخيار الآخر

قد يجد المكلف نفسه أمام حكم شرعي يصعب عليه الالتزام به، ونقصد بذلك ما دون مرتبة العسر والحرج والاضطرار، التي لها تكليفها الخاص، وهنا في موقع الصعوبة، فإنّ اختلاف الفتاوى يتيح للمكلف خيارًا آخر يتناسب مع مصالحه وظروفه، وهو ضمن دائرة المشروعية ما دام ناتجًا عن اجتهاد مقبول.

وتبرز أهمية هذا الأمر أكثر على المستوى الاجتماعي، في التشريعات التي تتعلق بالشؤون العامة للناس.

وكمثال على ذلك موضوع الطلاق، حيث تحصل حالات من التسرع والانفعال عند بعض الأزواج، فيوقع الطلاق ثلاثًا على زوجته دفعة واحدة. وعلى رأي فقهاء

---

(١) السيد محمد باقر الصدر. اقتصادنا، (بتصرف)، طبعة١٩٩١م، (بيروت: دار التعارف للمطبوعات)، ص٣٩٤-٣٩٨.

المذاهب الأربعة فإنّ الطلاق يقع ثلاثًا، ولا يحل له الرجوع إلى زوجته حتى تنكح زوجًا غيره.

لكن الالتزام بهذا الرأي أدّى إلى الكثير من المشاكل العائلية والاجتماعية، وفي مقابله رأي آخر لفقهاء الشيعة يرى عدم وقوع الطلاق إلا مرة واحدة، مما يتيح فرصة الرجوع للزوج، وهو رأي الزيدية أيضًا، وقد ذهب إلى هذا الرأي من فقهاء السنة الشيخ ابن تيمية وابن القيم.

وقد أخذت بهذا الرأي عدة جهات إسلامية، وتضمنه قانون الأحوال الشخصية الذي صدر في مصر سنة ١٩٢٩م، وقد جاء في (المذكرة التفسيرية) لهذا القانون أنه موافق لآراء بعض فقهاء المسلمين، ولو من غير المذاهب الأربعة. وأنه ليس هناك مانع شرعي من الأخذ بقول غيرهم خصوصًا إذا ترتب عليه نفع عام[١].

ويقول الدكتور وهبة الزحيلي، حول هذه المسألة: (والذي يظهر لي رجحان رأي الجمهور وهو وقوع الطلاق ثلاثًا، إذا طلق الرجل امرأته دفعة واحدة، لكن إذا رجح الحاكم رأيًا ضعيفًا صار هو الحكم الأقوى، فإن صدر قانون، كما هو الشأن في بعض البلاد العربية، بجعل هذا الطلاق واحدة، فلا مانع من اعتماده والإفتاء به، تيسيرًا على الناس، وصونًا للرابطة الزوجية، وحماية لمصلحة الأولاد، خصوصًا ونحن في وقت قل فيه الورع والاحتياط، وتهاون الناس في التلفظ بهذه الصيغة من الطلاق، وهم يقصدون غالبًا التهديد والزجر، ويعلمون أن في الفقه منفذًا للحل ومراجعة الزوجة)[٢].

---

(١) الدكتور محمد فاروق النبهان. المدخل للتشريع الإسلامي، الطبعة الثانية ١٩٨١م، (الكويت: وكالة المطبوعات، بيروت: دار القلم)، ص٣٦٤.

(٢) الدكتور وهبة الزحيلي. الفقه الإسلامي وأدلته، ج٧، الطبعة الثالثة ١٩٨٩م، (دمشق: دار الفكر)،

ولعلّ كثيرًا من المشاكل والتحديات، التي يواجهها المجتمع الإسلامي في هذا العصر، يمكن معالجتها في الإطار الشرعي، إذا ما ساد منهج الانفتاح الفقهي، وتوخي التيسير على الناس.

ويشير الأستاذ الكبير، مصطفى الزرقا، إلى هذا الاتجاه بقوله: (ويرى بعض المفكرين من علماء العصر، أنّ مجموعة المذاهب الاجتهادية، يجب أن تعتبر كمذهب واحد كبير في الشريعة، وكل مذهب فردي منها، كالمذهب الحنفي والمالكي والشافعي والحنبلي وغيرها، يعتبر في هذا المذهب العام الكبير، كالآراء والأقوال المختلفة في المذهب الفردي الواحد، فيرجع علماء الأمة ويختارون منها للتقنين في ميدان القضاء والفتيا، ما هو أوفى بالحاجة الزمنية، ومقتضيات المصلحة في كلّ عصر، وهذا رأي سديد)[1].

وهذا الاتجاه في الاستفادة من تعدد آراء الفقهاء، لاختيار ما هو الأنسب، وللتوسعة على الأمة ليس جديدًا وطارئًا، بل هو اتجاه أصيل وعريق في تاريخ التشريع الإسلامي.

قيل لعمر بن عبد العزيز: (لو جمعت الناس على شيء؟ فقال: ما يسرني أنهم لم يختلفوا. قال: ثم كتب إلى الآفاق وإلى الأمصار: ليقضِ كلّ قوم بما اجتمع عليه فقهاؤهم)[2].

وعن عون بن عبد الله قال: (قال لي عمر بن عبد العزيز: ما أحبّ أنّ أصحاب

ص٤١٣.

(١) المدخل للتشريع الإسلامي، ص٣٧٠.

(٢) نبيل العمري. فتح المنان إلى شرح وتحقيق المسند الجامع للإمام الدارمي، ج٣، الطبعة الأولى ١٩٩٦م، (بيروت: دار البشائر الإسلامية، مكة المكرمة: المكتبة المكية)، ص٥٢١.

رسول الله ﷺ لم يختلفوا، فإنهم لو اجتمعوا على شيء فتركه رجل ترك السنة، ولو اختلفوا فأخذ رجل بقول أحد أخذ بالسنة)[١].

وروى ابن عبد البر النمري بسنده إلى يحيى بن سعيد قال: (ما برح أولو الفتوى يفتون فيحلّ هذا، ويحرّم هذا، فلا يرى المحّرم أنّ المحل هلك لتحليله، ولا يرى المحلّ إن المحّرم هلك لتحريمه)[٢].

وقد ألف أحد علماء القرن الثامن الهجري كتابًا بعنوان (رحمة الأمة باختلاف الأئمة) هو العلامة الشيخ محمد بن عبد الرحمن الدمشقي الشافعي، وقد طبع أخيرًا من قبل إدارة إحياء التراث الإسلامي في دولة قطر سنة ١٤٠١هـ.

ويرى أكثر فقهاء الشيعة تخيير المكلف في الأخذ بفتوى أي من المجتهدين المتساويين في المرتبة العلمية، بأن يلتزم بالعمل بجميع فتاواه، أو أن يأخذ ببعض الفتاوى منه، والبقية من الفقهاء الآخرين.

يقول السيد محمد كاظم اليزدي: (إذا كان هناك مجتهدان متساويان في العلم كان للمقلّد تقليد أيهما شاء ويجوز التبعيض في المسائل)[٣].

(١) المصدر نفسه، ص٥٢٣.

(٢) يوسف القرضاوي. الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم، الطبعة الثالثة ١٩٩٣م، (بيروت: مؤسسة الرسالة)، ص٤٩.

(٣) السيد محمد كاظم اليزدي. العروة الوثقى، (مسائل التقليد)، مسألة رقم ٣٣ ورقم ٦٥.

اختلاف المصالح والأهواء

يفترض في رجل الدين أن يكون على درجة من الورع والتقوى، تمنعه من الانقياد للأهواء، والاستجابة للدوافع المصلحية الذاتية، على حساب القيم والمبادئ.

١. فرجل الدين قد اطّلع أكثر من غيره، على أحكام الدين وتعاليمه، بشكل مفصل، من خلال دراسته للقرآن الكريم، والسنة النبوية وسائر المناهج الدينية.

ولاحظ مدى تأكيد النصوص الشرعية أهمية الوحدة، وحسن التعامل مع الآخرين، وتشديدها على سوء التفرقة والنزاع والتنافر مع الآخرين.

وإنّ في الألفة والتوادد بين الناس عظيم الأجر والثواب من الله سبحانه، وفي التخاصم والتقاطع ما يوجب غضب الرب تعالى، وسخطه وعذابه.

هذه المعرفة والاطّلاع ينبغي أن تجعل رجل الدين أكثر ورعًا، وخشية لله، وأبعد عن الانزلاق في مهاوي الفتن والبغضاء.

يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى الله مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[1].

٢. ورجل الدين، بقراءته لسير الأنبياء والأولياء وخاصة سيرة الرسول الأعظم ﷺ وسير الأئمة من ذريته وخيرة أصحابه، وما تنضح به تلك الصفحات المشرقة من مكارم الأخلاق، ومحاسن الشيم، وروائع الصفات.. يجب أن يكون أكثر تطلعًا وتشوقًا للتأسي، والاقتداء بتلك النفوس الطاهرة، والشخصيات المباركة.

ففي سورة الأنعام، بعد أن يستعرض القرآن الحكيم بعض الصور والمشاهد من حياة الأنبياء والأولياء، يقول تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى الله فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾[2].

٣. ولأنّ رجل الدين في موقع الإرشاد والوعظ للآخرين، حيث يدعو الناس إلى تقوى الله، ويأمرهم بالتزام أحكامه وحدوده، ويحذرهم من إغواء الشيطان، والخضوع للشهوات والأهواء، فإنه يجب أن يكون قدوة للناس، متعظًا بما يعظ به، وملتزمًا قبل غيره، ليكون كلامه مؤثرًا في الناس، مقبولًا لديهم، وليكون منسجمًا مع نفسه.

كما يقول الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: (من نصب نفسه للناس إمامًا، فليبدأ بتعليم نفسه، قبل تعليم غيره، وليكن تأديبه بسيرته، قبل تأديبه بلسانه. ومعلم نفسه ومؤدبها، أحق بالإجلال من معلم الناس ومؤدبهم)[3].

لكلّ ذلك، فإنّ المتوقع أن تكون العلاقة بين رجال الدين علاقة مثالية، نابعة من قيم الإسلام، ومنسجمة مع تعاليمه. وإذا كان الاختلاف العلمي له مبرراته

---

(١) سورة فاطر، الآية: ٢٨.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ٩٠.

(٣) نهج البلاغة، قصار الحكم، رقم ٧٣.

وأسبابه المقبولة، فليكن الخلاف ضمن دائرته، وداخل إطاره وحدوده، واختلاف الرأي لا يفسد للودّ قضية - كما يقول الشاعر-.

لكن رجال الدين هم من البشر، وتعتمل في نفوسهم -كسائر البشر- مختلف النوازع الشهوانية، وقد يضعف بعضهم أمامها، وتخونه إرادته، فينحرف عن منهج الله، ويستجيب لدواعي الشهوة والأهواء، فهو ليس معصومًا عن الخطأ والانحراف.

ولأنّ هذا الاحتمال وارد وواقع في تاريخ الرسالات الإلهية، ولأنه يشكل خطورة كبرى في المجتمعات المتدينة، لذلك تحدثت عنه النصوص الدينية، ودعت المؤمنين لكي يتحلّوا باليقظة والانتباه، في تعاطيهم وتعاملهم مع رجال الدين، فلا يسلمون لهم القياد دون وعي، ولا يقلدونهم تقليدًا أعمى، ولا يقدسونهم تقديسًا مطلقًا، فهم معرضون -كغيرهم من الناس- للخطأ والانحراف، وليست لهم حصانة خاصة، تعفيهم من تبعات الذنوب والآثام.

ولنتأمل بعض النصوص الواردة في الكتاب والسنة، حول التحذير من انحراف رجل الدين، ومدى الخطورة التي يشكلها بانحرافه.

نماذج يذكرها القرآن

يتعاطى بعض المتدينين مع رجل الدين بمثالية ساذجة، وبساطة متناهية، فيأخذون قوله دون تفكير، ويقدسون أعماله دون نقاش، بل ويرفضون أن يتجرأ أحد على انتقاده أو مناقشته، وإذا ما انكشف لهم منه خطأ صارخ فاضح، استعصى عليهم تبريره، فإنهم يصابون بهزّة عميقة وصدمة كبيرة، وكأنّ ما حدث لم يكن محتملًا ولا متوقعًا.

لمثل هؤلاء يتحدث القرآن الكريم، عن بعض النماذج، ممن خانوا أمانة العلم والدين، في الأمم السابقة، ليكون المجتمع الإسلامي على حذر من تكرار مثل هذه النماذج.

١. يقول تعالى: ﴿**وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ* وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**﴾[١].

إنها قصة عالم وصل إلى رتبة متقدمة من العلوم والمعارف الدينية ﴿**آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا**﴾ فكان العلم ملتصقًا به، محيطًا بجوانب شخصيته، إحاطة الجلد بالبدن، لكنه مع سعة معرفته، وعمق علمه، سقط في هاوية الانحراف. ويعبر القرآن عن خيانة العالم للمعرفة التي تحتضنه وتحيطه، بالانسلاخ ﴿ **فَانْسَلَخَ مِنْهَا**﴾ والانسلاخ خروج جسد الحيوان من جلده حينما يسلخ عنه.

وكيف ينفلت العالم، وينفصل عن مؤدى علمه ومعرفته، مع أنه عاش في أحضان العلم، وتشربت نفسه بالمعرفة؟

لأنّ العلم لا يعني العصمة، والإجبار على الطاعة، فهو خلاف إرادة الله ومشيئته، بأن يكون الإنسان حرًّا مختارًا، في سلوكه وتصرفاته، ليكون جديرًا بالثواب، مستحقًا للعقاب ﴿ **وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا**﴾ فالعلم يهيئ الإنسان للتحليق والارتفاع في سماء القيم، إن أراد هو ذلك، أما إذا خانته إرادته، وسيطرت على

---

(١) سورة الأعراف، الآيتان ١٧٥-١٧٦.

نفسه الأهواء والشهوات، و الانشدادات المادية، فـ ﴿ **أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ** ﴾ فإنه يتحمل مسؤولية سقوطه وانحداره.

وماذا يحصل حينئذٍ؟

إنه التورط والتوغل في حضيض الانحراف والسقوط؛ لأنّ غير العالم قد يردعه الوعظ والتوجيه، أما العالم، فلمعرفته بالمواعظ والتوجيهات، تصبح لديه ما يشبه المناعة من تأثيرها، كما يحدث لبعض الميكروبات في الجسم، التي تستعصي على بعض أنواع المضادات الحيوية في حالة تكرار استخدامها.

لذلك يشبِّه القرآن الكريم العالم المنحرف بالكلب اللاهث، الذي يستمر في لهاثه، سواء في حالة مطاردته والهجوم عليه، أو في حالة هدوئه ودعته ﴿**فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ**﴾.

وأمر الله تعالى نبيه أن يقرأ للناس، ويتلو عليهم، خبر هذا العالم المنحرف وقصته، ليكون مثلًا ونموذجًا، يدفع الناس للتفكير في تعاملهم وتعاطيهم مع رجال الدين ﴿**فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**﴾.

٢. يقول تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ الله**﴾[١].

وحديث القرآن عن انحرافات علماء اليهود والنصارى، ليس في سياق التشهير بهم فقط، وإنما ليستفيد المسلمون دروسًا وعبرًا من أوضاعهم. ولدقة القرآن وموضوعيته فإنه لم يصدر حكمًا عامًّا على جميع زعاماتهم الدينية، وإنما الأكثر منهم، إنصافًا للقلة الملتزمة المتورعة منهم.

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٣٤.

وقد يكون في الآية الكريمة إشارة إلى ناحية مهمّة، وهي أن رجال الدين كطبقة متفرغة للعمل الديني، تأخذ نفقاتها من الناس والأموال الشرعية، إزاء قيامهم بواجب الإرشاد والهداية، والدعوة إلى المبادئ والقيم، ولكنهم حينما يقومون بدور معاكس، بممارساتهم الفاسدة المنحرفة، فإنهم لا يؤدون الوظيفة التي على أساسها جاز لهم تناول الأموال الشرعية، فيصدق عليهم حينئذٍ إنهم ﴿**لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ**﴾ لأنهم بدل أن يقودوا الناس إلى طريق الله، يُسيّرون الناس في الاتجاه المعاكس ﴿**وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ الله**﴾.

٣. يقول تعالى: ﴿**مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ الله وَالله لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ**﴾[١].

فالعلم بالدين يحّمل صاحبه مسؤولية العمل به، فإذا لم يلتزم بذلك، ولم ينعكس الدين على سلوكه ومواقفه، فإنه يشبه الحمار الذي يحمل على ظهره مجلدات الكتب العلمية لكنه لا يفقهها، ولا يتفاعل مع ما فيها.

وعلماء الدين الذين يتحمّلون مسؤولية الرسالات الإلهية، بعلمهم وموقعهم القيادي، إذا ما تخلوّا عن القيام بواجبات تلك المسؤولية الخطيرة فإنهم مصداق لهذا المثل السيئ.

تحذيرات من السنة

وفي السنة الشريفة أحاديث وروايات كثيرة، تبيّن خطورة انحراف رجل الدين، وآثار ذلك الانحراف على قضايا الدين وأوضاع الأمة.

---

(١) سورة الجمعة، الآية: ٥.

١ . فازدواج الشخصية عند العالم المنحرف، حيث يدعو الناس إلى الدين، وهو غير ملتزم بأحكامه، يعرِّضه لغضب الله تعالى وشديد عذابه.

روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: (يطّلع قوم من أهل الجنة على قوم من أهل النار فيقولون: ما أدخلكم النار، وقد دخلنا الجنة لفضل تأديبكم وتعليمكم؟!

(فيقولون: إنا كنا نأمر بالخير ولا نفعله)[١].

وعنه ﷺ: (من تعلم العلم ولم يعمل بما فيه حشره الله يوم القيامة أعمى)[٢].

وعنه ﷺ: (إنّ أهل النار ليتأذون بريح العالم التارك لعلمه، وأنّ أشد أهل النار ندامة وحسرة رجل دعا عبدًا إلى الله عزّ وجلّ، فاستجاب له وقبل منه، وأطاع الله عزّ وجلّ، فأدخله الله الجنة، وأدخل الداعي النار، بتركه علمه، واتّباعه الهوى)[٣].

وعنه ﷺ: (رأيت ليلة أسري بي رجالًا تقرض شفاههم بمقاريض من نار، فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟

فقال: الخطباء من أمتك، يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم، وهم يتلون الكتاب، أفلا يعقلون؟!)[٤].

وعنه ﷺ: (الزبانية أسرع إلى فسقة حملة القرآن منهم إلى عبدة الأوثان، فيقولون: يُبدأ بنا قبل عبدة الأوثان؟ فيقال لهم: ليس من يعلم كمن لا يعلم)[٥].

---

(١) بحار الأنوار، ج٧٤، ص٧٦.
(٢) المصدر نفسه، ص ١٠٠.
(٣) المصدر نفسه، ج٢ ص١٠٦.
(٤) سلسلة الأحاديث الصحيحة، ج١، ص ٥٢٢.
(٥) كنز العمال. ج١٠، ص١٩١، حديث٢٩٠٠٥.

٢. وعلى الجمهور أن يحذر من العلماء غير الملتزمين، فلا يمنحهم الثقة، ولا يجعلهم في موقع القيادة والاتّباع، ولا يعتبرهم مصدرًا ومرجعية في شؤون الدين.

وعن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: (إذا رأيتم العالم محبًّا للدنيا فاتهموه على دينكم، فإنّ كلّ محبٍّ يحوط ما أحبّ)[١].

في رواية عن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام: (أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام،قل لعبادي: لا يجعلوا بيني وبينهم عالمًا مفتونًا بالدنيا فيصدّهم عن ذكري، وعن طريق محبتي ومناجاتي، أولئك قطّاع الطريق من عبادي)[٢].

٣. ومن الواضح، فإنّ انحراف رجل الدين له مضاعفاته وآثاره الخطيرة، على الدين والمجتمع، لذا جاءت النصوص والأحاديث تنبّه إلى ذلك.

قيل لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: أيّ الناس شرّ؟

قال صلى الله عليه وآله وسلم: (العلماء إذا فسدوا)[٣].

وعن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: (زلّة العالم كانكسار السفينة تَغرَق وتُغرِقُ معها غيرها)[٤].

عالم الدين بين الاستقامة والانحراف

إذا ما فقد عالم الدين مناعته وحصانته المبدئية، وضعفت إرادته الإيمانية، عن

(١) المصدر نفسه. ج٢ ص١٠٧.

(٢) بحار الأنوار. ج٧٥، ص٣١٢.

(٣) المصدر نفسه، ج٧٤ ص١٣٨.

(٤) غرر الحكم ودرر الكلم. ج١، ص٣٨٥.

مقاومة (فيروسات) الأهواء، فستكون نفسه مرتعًا لمختلف النزعات الشهوانية، والتوجهات الانحرافية.

ومن هذه الثغرة الخطيرة الواسعة، تهبّ رياح الخلافات والصراعات في أوساط رجال الدين.

أولًا: تنمو النزعة الأنانية الذاتية، على حساب المبدأ والمصلحة العامة، فالفتاوى والآراء والمواقف حينئذٍ، تتأثر بحسابات المصلحة الشخصية، وتصبح خاضعة لمعادلة الربح والخسارة.

فلا ينظر رجل الدين الأناني إلى الأمور والأحداث والأشخاص نظرة موضوعية، على أساس مقاييس الحقّ والباطل، وإنما بمنظار مصلحته ومنفعته العاجلة، وهذا قد يؤدي به إلى الاصطدام برجال الدين المبدئيين المخلصين، كما قد يسبب له الصراع حتى مع أشباهه من رجال الدين الأنانيين؛ لأنّ المصالح تختلف وتتخالف.

وقد تحدث القرآن الحكيم في آيات عديدة، محذرًا ومنددًا بأولئك المساومين على المبادئ، والمتخلين عن الحقائق، من أجل مصالح مادية ضئيلة محدودة، لأنّ أيّ ثمن في مقابل الحقّ تافه حقير.

يقول تعالى: ﴿**وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ*وَلا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾[١].

وتشير الآية الكريمة إلى أسلوبين خبيثين تستخدمهما عادة هذه الفئة: أسلوب

---

(١) سورة البقرة، الآيتان: ٤١-٤٢.

تزوير وتزييف الحقائق، بإلباس الباطل الذي يطرحونه صورة الحق وعنوانه، لينطلي على الناس. وإلباس الحق الذي يطرحه غيرهم صورة الباطل وعنوانه، ليصدوا الناس عنه.

والأسلوب الآخر: هو كتمان الحقائق والسكوت عنها، مع معرفتهم بها.

ويقول تعالى: ﴿**اشْتَرَوْا بِآيَاتِ الله ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾[١].

ويقول تعالى: ﴿**فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ الله لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ**﴾[٢].

فمن أجل المصالح المادية الزائلة يختلقون الفتاوى، ويبتدعون الآراء، وينسبونها لله سبحانه.

ورجل الدين المصلحي ينظر إلى سائر رجال الدين كمنافسين له، ينتابه الحسد إذا ما رأى تقدمًا أو تفوقًا لأحدٍ منهم، ويحاول التقليل من شأنه أمام الناس، ويتصيّد أخطاءه، ويتابع عثراته ليشيعها في الجمهور، وقد يسعى بكلّ جهده لعرقلة طريق الآخرين من رجال الدين إلى التقدم.

ولعلّ هذا الجانب من أهم أسباب بروز الخلافات بين رجال الدين، حيث إنّ ثقة الناس والتفافهم حول رجل الدين، هما المكسب الرئيس له، والرصيد الأساس لدوره وقيمته، فالتنافس يكون على هذه الثقة والاتّباع بين رجال الدين، وإذا ما خاصم أحدهم الآخر، فإنّ أهم ضربة يوجهها إليه، هي إسقاط أو إضعاف شعبيته

(١) سورة التوبة، الآية: ٩.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٧٩.

وسمعته عند الناس، عبر نقد آرائه، والتشهير بأخطائه.

وهناك حديث شريف يبيّن أنّ الحسد هو المرض الأكثر شيوعًا في أوساط العلماء، وأنه مدخل أكثرهم إلى نار جهنم، فعن رسول الله ﷺ: (ستة يدخلون النار قبل الحساب بسنة، قيل: يا رسول الله من هم؟ فعدَّ منهم: والعلماء بالحسد)[1].

ومثله روي عن الإمام علي عليه السلام: (إنّ الله عزّ وجلّ يعذّب ستة بست ... والفقهاء بالحسد)[2].

ثانيًا: من الطبيعي وجود حالة من التنوع والتعددية في كلّ مجتمع، بأن يتشكل من أكثر من قومية، أو تختلف الأديان والمذاهب التي ينتمي إليها أبناؤه، وقد تتعدد المدارس الفكرية ضمن الدين الواحد، أو المذهب الواحد، هذا فضلًا عن تنوع القبائل، أو الطبقات الاجتماعية، أو الانتماءات الحزبية والسياسية. وعادة ما يصاحب هذا التنوع والتعدد نوع من الحساسيات والخلافات والحواجز والفواصل، بين أبناء المجتمع الواحد، قد يصل إلى حدّ التنازع والصراع.

ورجل الدين، بما يمثل من موقع ودور مبدئي، يجب أن يتسامى على تأثيرات تلك الحساسيات والحواجز، ويكون داعية للوحدة والتعاون، ورائدًا للعدالة والإنصاف، لكن ذلك مشروط بنزاهة رجل الدين، وصدقية التزامه المبدئي، فإذا ما تسرب الانحراف إلى نفسه، فسيقع تحت تأثيرات الواقع الاجتماعي، ويكون خاضعًا لتفاعلاته، بل قد يصبح أداة وواجهة في معادلة الصراع، بما يشكله من ثقل ونفوذ بعنوانه الديني. وحينئذٍ يُستغلّ الدين كوقود في معارك الصراع القومي والطائفي والقبلي والحزبي والطبقي.

(١) إحياء علوم الدين، ج٣ ص٢٧٦.

(٢) بحار الأنوار، ج٢ ص١٠٨.

وكم من معركة دامية، وفتنة مرعبة، سالت فيها الدماء،وهتكت فيها الحرم والأعراض، بين أبناء الأمة، حصلت بتحريض أو تبرير من رجال دين منحرفين؟.

ثالثًا: إنّ القوى التي تريد الهيمنة على المجتمع، والسيطرة على قدراته، لا تجد لخدمة نفوذها ومصالحها أفضل من رجل دين مصلحي، يوفر لممارساتها الغطاء الشرعي، ويكون رأس حربتها باسم الدين في مواجهة المخالفين والمعارضين.

وتعطيه في المقابل شيئًا من فتات موائدها، أو تمنحه منصبًا على هامش سلطاتها، ولعلّ قسطًا لا بأس به من الخلافات والنزاعات داخل الساحة الدينية، تحركه قوى خارجية معادية، أو داخلية متسلطة، تستغلّ بعض العناصر المصلحية من رجال الدين.

وقد تتجه بعض القوى والجهات إلى دسّ بعض العناصر التابعة لهم بالأساس في أوساط رجال الدين، للقيام بمهمات الاستقطاب والإرباك، مستغلة ضعف الإدارة والتنظيم لدى المؤسسات الدينية، وتواضع التفكير، وسذاجة التعاطي، لدى بعض الزعامات والقيادات الدينية.

بالطبع، فإنّ أيّ رجل دين مبدئي لا يبيع آخرته بدنياه، ولا يساوم على مصلحة الدين والأمة.

أخلاقيّات الاختلاف العلمي

إذا كان الاختلاف العلمي في القضايا الدينية أمرًا لا يمكن تلافيه، إلا أنّ التعاطي والتعامل مع هذا الأمر يختلف من حالة إلى أخرى، فقد يكون هذا الاختلاف سببًا لاستثارة الأذهان والعقول، وباعثًا لتنشيط حركة الفكر والاجتهاد، وتوسعةً على الناس بتعدد الخيارات والحلول أمامهم في بعض المسائل.

وقد يتحول هذا الاختلاف العلمي عن مساره الإيجابي، ليصبح عنصرًا سلبيًّا، يغذّي حالة التفرقة والنزاع، وأرضية تنمو فيها أشواك العداوة والخصام.

فلا بدّ من وجود ضوابط فكرية، وأخلاقيات سلوكية، تحكم تعاطي العلماء فيما بينهم، وخاصة عند مواقع الاختلاف العلمي. والصفحات التالية استعراض وبحث لما بدا لي أنه من أهم الأخلاقيات والضوابط التي تنظم حالة الاختلاف العلمي.

الاعتراف بحق الاختلاف ووجود الرأي الآخر

كيف يتكوّن رأي علمّي في أيّ قضية شرعية، عند أيّ عالم من العلماء، فيفتي به ويعتبره رأيًا شرعيًّا، وحكمًا دينيًّا؟

لا شك أنّ السبيل لذلك هو الاجتهاد وإعمال الفكر والنظر، بالرجوع إلى الكتاب والسنة، وبدراسة واستقراء آراء الأئمة والعلماء السابقين، فالوحي لم ينزل ولا ينزل على أحد بعد رسول الله ﷺ.

والاجتهاد باب مشرع، وطريق مفتوح، لجميع المؤهلين، فلا يمكن لعالم أن يعتبر نفسه وحيد دهره الذي يجوز له الاجتهاد.

وحينما يمارس أيّ عالم مهمة الاجتهاد وفق ضوابطها الشرعية، فسيرى نفسه ملزمًا بنتائج اجتهاده، باعتبارها تمثل رأي الشرع والدين في نظره.

وهذا ينطبق على غيره أيضًا، فكما جاز له الاجتهاد، وصح له الالتزام بنتائجه، فذلك جائز وصحيح في حق غيره أيضًا، فلا يمكن التفكيك ولا الترجيح بلا مرجح بينهما.

من هنا اتفقت كلمة العلماء على حجّية رأي المجتهد عند نفسه.

(إنّ كلمة الإعلام تكاد تتفق على حجية رأيه ـ المجتهد ـ ولزوم العمل به، وعدم جواز رجوعه إلى الغير ...إذ المجتهد إذا أعمل ملكته وانتهى إلى رأي، فهو إما عالم بالحكم الواقعي علمًا وجدانيًّا، أو علمًا تعبديًّا -بواسطة جعل الشارع للطريقية أو الحجية- أو يكون عالمًا بإحدى الوظيفتين الشرعية أو العقلية...ومع فرض حصول العلم لا يبقى مجال للتصرف الشرعي، فلا يمكن أن يقال للمجتهد العالم بالمسألة: إنك لا يسوغ لك أن تعمل بعلمك، وعليك الرجوع إلى الغير واستشارته فيما تراه حاصلًا لديك من الواقع ...أما جواز إفتائه على وفق ما وصل إليه من رأي، فهو

أيضًا لا يقتضي أن يكون موضعًا لإشكال، لما تقدم بيانه من أن من لوازم الحجية العقلية جواز نسبة مؤدى ما قامت عليه إلى مصدرها من شارع أو عقل، وليس المراد من الفتوى إلا الإخبار عما يراه من حكم أو وظيفة)[١].

ومع وضوح هذه المعادلة عقلًا، وإقرارها شرعًا، إلا أنّ البعض من العلماء يتنكر لها، ويتمرد عليها. فيعطي لنفسه الحقّ أن يجتهد، وأن يعتبر نتاج اجتهاده رأيًا شرعيًّا، ثم ينكر على الآخرين ممارسة هذا الحق، بدعوى أن ما وصل إليه من رأي هو الحق والصواب، وبالتالي فإنّ الرأي المخالف هو باطل وخطأ.

ولكن أصحاب الرأي الآخر لديهم القناعة نفسها أيضًا، بأنّ رأيهم هو الحقّ والصواب، والرأي المخالف هو باطل وخطأ.

ولا مجال هنا إلا بالاعتراف بحقّ الاختلاف، ووجود الرأي الآخر، والخطأ والصواب احتمالان يردان على كلّ رأي، وقد يكونان نسبيين في بعض الآراء، والله تعالى هو الأعلم بحقائق الأمور والأحكام، وجميل جدًّا ما تعارف عليه العلماء من إنهاء فتاواهم بعبارة (والله اعلم).

ويضرب لنا الإمام علي بن أبي طالب أروع مثل في تعامله مع الرأي الآخر، في المسائل الدينية، فهو مع مقامه العلمي الشامخ، الذي لا يطاوله فيه أحد، ومع مكانته العظيمة التي اختص بها عند الله ورسوله، حيث قال له رسول الله ﷺ: (أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلّا أنه لا نبي بعدي)[٢]. وروي عن النبي ﷺ

---

(١) السيد محمد تقي الحكيم. الأصول العامة للفقه المقارن، الطبعة الثالثة١٩٧٩م، (بيروت: دار الأندلس)، ص٦٠٩-٦١١.

(٢) صحيح البخاري، باب (مناقب علي بن أبي طالب)، مسلم بن الحجاج القشيري، صحيح مسلم، باب (من فضائل علي بن أبي طالب)، ج٧، ص١٢٠.

أنه قال: (أقضاهم عليّ)[١].

إلّا أنه حينما تولى الخلافة، لم يمنع الناس من صلاة نافلة رمضان جماعة في المسجد، (صلاة التراويح)، بل سمح لهم بذلك، مع أنه لا يرى ذلك من الناحية الشرعية، كما هو رأي أئمة أهل البيت جميعًا.

فقد روي عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنه قال: (لما قدم أمير المؤمنين عليه السلام، الكوفة، أمر الحسن بن علي أن ينادي في الناس: لا صلاة في شهر رمضان في المساجد جماعة، فنادى في الناس الحسن بن علي عليه السلام، بما أمره به أمير المؤمنين عليه السلام فلما سمع الناس مقالة الحسن بن علي، صاحوا: واعمراه، واعمراه، فلما رجع الحسن إلى أمير المؤمنين عليه السلام قال له: ما هذا الصوت؟ فقال: يا أمير المؤمنين يصيحون: واعمراه، واعمراه، فقال أمير المؤمنين عليه السلام: قل لهم صلّوا)[٢].

في رواية أخرى: (لما كان أمير المؤمنين عليه السلام بالكوفة، أتاه الناس فقالوا له: اجعل لنا إمامًا يؤمّنا في رمضان، فقال لهم: لا، ونهاهم أن يجتمعوا فيه، فلما أمسوا جعلوا يقولون: ابكوا رمضان، وارمضاناه، فأتى الحارث بن الأعور في أناس فقال: يا أمير المؤمنين، ضج الناس وكرهوا قولك، قال: فقال عند ذلك: دعوهم وما يريدون ليصلِّ بهم من شاؤوا)[٣].

وروي أنّ الخليفة الثاني عمر بن الخطاب» لقي رجلًا فقال: ما صنعت - يعني في مسألة كانت معروضة للفصل فيها - فقال الرجل: قضى عليّ وزيد بكذا.. فقال

---

(١) أبو الحسن الندوي. المرتضى، طبعة ١٩٨٩م، (دمشق: دار القلم)، ص١٠٣.

(٢) محمد بن الحسن الطوسي. تهذيب الأحكام، ج٣، الطبعة الثانية ١٩٥٩م، (النجف: مطبعة النعمان)، ص٧٠.

(٣) وسائل الشيعة، ج٨، ص٧١.

عمر: لو كنت أنا لقضيت بكذا.. فقال الرجل: فما يمنعك والأمر إليك؟ قال: لو كنت أردك إلى كتاب الله، أو إلى سنة نبيه ﷺ لفعلت، ولكني أردك إلى رأي، والرأي مشترك)[١].

وسئل الشيخ ابن تيمية: عمّن وَلِيَ أمرًا من أمور المسلمين، ومذهبه لا يجوّز (شركة الأبدان) فهل يجوز له منع الناس من العمل بها؟

فأجاب: ليس له منع الناس من مثل ذلك، ولا من نظائره مما يسوغ فيه الاجتهاد، وليس معه بالمنع نص من كتاب، ولا سنة، ولا إجماع، ولا ما هو في معنى ذلك[٢].

وحقّ الاختلاف ووجود الرأي الآخر مصون، بغضّ النظر عن قلة أو كثرة أصحابه وأتباعه، يقول الدكتور القرضاوي: ويقول بعض الإخوة: إنّ الرأي الذي ينفرد به فقيه أو اثنان خلافًا لجمهور الأمة، يجب ألّا يعتدّ به ولا يعوّل عليه.

وقال غيرهم: إنّ ما خالف المذاهب الأربعة التي تلقتها الأمة بالقبول، يجب أن يرفض ولا يقام له اعتبار.

والحقّ أنّ هذا كلّه لا يقوم عليه دليل من كتاب أو سنة.

فالإجماع الذي هو حجة - على ما قيل فيه - هو اتفاق جميع المجتهدين على حكم شرعي، ولم يقل أحد: إنه اتفاق الأكثرية، أو الجمهور، فالأمر ليس أمر تصويت بالعدد.

صحيح أنّ لرأي الجمهور وزنًا يجعلنا نمعن النظر فيما خالفه، ولا نخرج عنه إلّا

(١) الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم، ص٧١.
(٢) المصدر نفسه، ص٦٩.

لاعتبارات أقوى منه، ولكنه ليس معصومًا على كلّ حال.

وكم من صحابي انفرد عن سائر الصحابة برأي لم يوافق عليه سائرهم، ولا يضره ذلك.

وكم من فقهاء التابعين من كان له رأي خالفه آراء الآخرين، ولم يسقط ذلك قوله، فالمدار على الحجة لا على الكثرة.

وكم من الأئمة الأربعة من انفرد عن الثلاثة بآراء وأقوال، مضى عليها أتباع مذهبه مؤيدين ومصححين.

ومذهب أحمد بن حنبل، وهو المذهب المشهور باتّباع الأثر، قد عرف بـ (مفرداته) التي نظّمها من نظّم، وألّف فيها من ألّف، وغدا من المعروف المألوف أن يقرأ الباحث فيه هذه العبارة: (وهذا من مفردات المذهب).

والمذاهب الأربعة، على مالها من اعتبار وتقدير لدى جمهور الأمة، ليست حجة في دين الله، إنما الحجة ما تستند إليه من أدلة شرعية، منقولة أو معقولة.

وما يقال عن بعض الآراء: إنها شاذة أو مهجورة أو ضعيفة، فهذا لا يؤخذ على إطلاقه وعمومه، فكم من رأي مهجور أصبح مشهورًا، وكم من قول ضعيف في عصر جاء من قوّاه ونصره، وكم من قول شاذ في وقتٍ هيأ الله له من عرّف به وصححه وأقام عليه الأدلة، حتى غدا هو عمدة الفتوى[1].

وجميل جدًّا ما ينقل عن الإمام الشافعي أنه قال: (رأيي صواب يحتمل الخطأ

(١) المصدر نفسه، ص٧٣-٧٤.

ورأي غيري خطأ يحتمل الصواب)[١].

الاطلاع والانفتاح على الرأي الآخر

المهمة الأساس، والغاية الكبرى لرجل الدين، هي معرفة الحقائق الدينية والأحكام الشرعية، على حقيقتها وواقعها.

والآراء العلمية المختلفة في أيّ مسألة اعتقادية أو فقهية، إنما هي احتمالات وأوجه لتلك المسألة، فقد يكون أحد تلك الآراء مصيبًا لها بشكل كامل، أو بشكل نسبي.

ومن أجل أن يتأكد العالم من صحة اجتهاده، وصواب رأيه، لا بدّ له من الاطّلاع على جميع الاحتمالات والوجوه الواردة في الموضوع. يقول العلامة الشاطبي في كتابه الموافقات:

(فعن قتادة: من لم يعرف الاختلاف لم يشم أنفه الفقه.

(وعن هشام بن عبيد الله الرازي: من لم يعرف اختلاف القراءة فليس بقارئ، ومن لم يعرف اختلاف الفقهاء فليس بفقيه.

(وعن عطاء: لا ينبغي لأحد أن يفتي الناس حتى يكون عالمًا باختلاف الناس، فإنه إن لم يكن كذلك ردّ من العلم ما هو أوثق من الذي في يديه.

(وعن مالك: لا تجوز الفتيا إلّا لمن علم ما اختلف الناس فيه)[٢].

---

(١) المصدر نفسه، ص٩٨.

(٢) أبو إسحاق الشاطبي. الموافقات في أصول الشريعة، ج٤، الطبعة الأولى١٩٩١م، (بيروت: دار الكتب العلمية)، ص١١٦.

ونقل عن الإمام أحمد بن حنبل: (لا ينبغي لأحدٍ أن يفتي إلّا أن يعرف أقاويل العلماء في الفتاوي الشرعية، ويعرف مذاهبهم..) ومثل هذا ما رواه ابن القيم عن رواية ابن حنبل: (ينبغي لمن أفتى أن يكون عالمًا بقول من تقدّم وإلّا فلا يفتي)(٣).

وتبعًا لاهتمام علماء السلف بالاطّلاع على مختلف الآراء، ودراستها ومناقشتها، وُلِدَ علم جديد أطلق عليه (الفقه المقارن) أو (علم الخلاف) وعرفوه بأنه (علم يقتدر به على حفظ الأحكام الفرعية المختلف فيها بين الأئمة، أو هدمها بتقرير الحجج الشرعية وقوادح الأدلة)(٤).

وأصبحت لدينا مكتبة علمية، تزخر بالمؤلفات والمصنفات المتخصصة في نقل الآراء المتعددة والمختلفة، في موضوع بعينه أو في جميع أبواب الفقه، ككتاب (اختلاف الفقهاء الكبير والصغير) لأحمد بن نصر المروزي، وكتاب (الاختلاف في الفقه) لأبي يحيى زكريا الساجي، وكتاب (اختلاف الفقهاء) للإمام محمد بن جرير الطبري.

وللشيخ محمد بن الحسن الطوسي (٣٨٥-٤٦٠هـ) موسوعة مهمّة تقع في ثلاثة مجلدات، بعنوان (كتاب الاختلاف) طبع أخيرًا طبعة جديدة محققة، من قبل مؤسسة النشر التابعة لجماعة المدرسين في قم سنة ١٤٠٧هـ.

كما أن الاطّلاع والانفتاح على الرأي الآخر، يتيح للعالم فرصة الدراسة والتقويم لذلك الرأي، ولمستند صاحبه وأدلته، فيكون موقفه من الرأي الآخر معتمدًا على المعرفة والدراية.

---

(٣) الدكتور محمد أبو الفتح البيانوني. دراسات في الاختلافات الفقهية، طبعة١٩٧٥م، (حلب: مكتبة الهدى)، ص١٥٩.

(٤) الأصول العامة في الفقه المقارن، ص١٣.

وهذا يستدعي أن يكون التعرّف على الرأي الآخر من مصادره الصحيحة والأساس، لا أن يؤخذ من الإشاعات والنقولات غير الموثقة، أو من الجهات المضادة والمناوئة.

فمما يؤسف عليه اعتماد البعض من العلماء، في تقويمه وانطباعاته عن الآخرين المخالفين له في الرأي والتوجه، على ما يقوله المعادون لهم، كما هو ملحوظ في كثير من كتب الجدل المذهبي والنزاع الطائفي.

ملحوظة على كتاب

قبل أيام كنت أطالع في الجزء السابع من كتاب (الفقه الإسلامي وأدلته) للدكتور وهبة الزحيلي، رئيس قسم الفقه الإسلامي ومذاهبه في جامعة دمشق، حول مسألة فقهية من مسائل كتاب النكاح، الفصل الثالث، المحرمات من النساء أو الأنكحة المحرمة، ولفت نظري عند ذكره لحرمة المرأة الخامسة لمتزوج بأربع سواها قوله: (لا يجوز للرجل في مذهب أهل السنة أن يتزوج أكثر من أربع زوجات في عصمته في وقت واحد، ولو في عدة مطلقة) إلى أن يقول: (وذهب الظاهرية والإمامية إلى أنه يجوز للرجل أن يتزوج تسعًا، أخذًا بظاهر الآية: ﴿**مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ**﴾ فالواو للجمع لا للتخيير، أي يكون المجموع تسعة)[١].

وما نسبه الدكتور الزحيلي إلى الشيعة في هذه المسألة، هو نموذج للاعتماد على النقولات والإشاعات، دون الرجوع إلى مصادر الجهة ذاتها.

فمصادر الشيعة في التفسير والحديث والفقه، مجمعة على عدم جواز الزواج من أكثر من أربع زوجات، بالزواج الدائم، في وقت واحد، كما هو رأي أهل السنة.

---

(١) الفقه الإسلامي وأدلته، ج٧، ص١٦٦.

فمن أقدم التفاسير الشيعية جاء في (التبيان في تفسير القرآن) للشيخ محمد بن الحسن الطوسي (٣٨٥-٤٦٠)، ما يلي: (ومن استدل بهذه الآية مثنى وثلاث ورباع على أن نكاح التسع جائز فقد أخطأ؛ لأن ذلك خلاف الإجماع... فتقدير الآية ﴿**فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلاثَ**﴾، فثلاث بدل من مثنى، ورباع بدل من ثلاث[١]).

وجاء في (مجمع البيان في تفسير القرآن) للشيخ الفضل بن الحسن الطبرسي، من أعلام القرن السادس الهجري، ما يلي: (وقوله: ﴿**مَثْنَى وَثُلاثَ وَرُبَاعَ**﴾: معناها اثنتين اثنتين، وثلاثًا ثلاثًا، وأربعًا أربعًا، فلا يقال إنّ هذا يؤدي إلى جواز نكاح التسع، فإن اثنتين وثلاثة وأربعة تسعة، لما ذكرناه، فإنّ من قال: دخل القوم البلد مثنى، وثلاث، ورباع، لا يقتضي اجتماع الأعداد في الدخول، ولأنّ لهذا العدد لفظًا موضوعًا، وهو تسع، فالعدول عنه إلى مثنى وثلاث ورباع نوع من العيّ، جلّ كلامه عن ذلك وتقدس)[٢].

وإلى أواخر التفاسير الشيعية حيث جاء في (الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل) للشيخ ناصر مكارم الشيرازي ما يلي: (ولا بدّ من التنبيه إلى أن (الواو) هنا أتت بمعنى (أو) فليس معنى هذه الجملة هو أنه يجوز لكم أن تتزوجوا باثنتين وثلاث وأربع ليكون المجموع تسع زوجات؛ لأنّ المراد لو كان هذا لوجب أن يذكر بصراحة فيقول: وانكحوا تسعًا، لا أن يذكره بهذه الصورة المتقطعة المبهمة، هذا مضافًا إلى أنّ حرمة الزواج بأكثر من أربع نسوة من ضروريات الفقه الإسلامي،

(١) محمد بن الحسن الطوسي. التبيان في تفسير القرآن، ج٣، (بيروت: دار إحياء التراث العربي)، ص١٠٧.
(٢) مجمع البيان في تفسير القرآن. ج٣، ص٨٤.

وأحكامه القطعية المسلمة)[1].

ومصادر الفقه الشيعية أيضًا كلّها تنص على ذلك، فمن أين أتى الدكتور الزحيلي بهذه النسبة للشيعة؟ فهو لم ينسبها إلى مصدر محدد، ولم يقل: إنّ عالمًا معينًا من الإمامية يقول بذلك، بل نسبها للإمامية بأجمعهم، وأرسل النسبة إرسال المسلمات، وحينما راجعت كشف المصادر التي اعتمدها للفقه الشيعي، والمذكورة في المجلد الأخير، وجدت أنها أربعة مصادر، هي: (الكافي للكليني) وهو كتاب حديث لا فقه، و (المختصر النافع في فقه الإمامية) و (الروضة البهية في شرح اللمعة الدمشقية) و (مفتاح الكرامة) للحسيني العاملي، وبالرجوع إلى هذه المصادر الأربعة تبيّن لي عدم وجود ما يدل على تلك النسبة إلى الشيعة فيها.

ومرة أخرى، أتساءل: من أين جاء الدكتور الزحيلي بهذه المسألة، ولا أثر لها في مصادر الشيعة؟ مع أنه قد ذكر في تقديم الكتاب حول منهج الكتاب ما يلي: (وهو ليس كتابًا مذهبيًّا محدودًا، وإنما هو فقه مقارن بين المذاهب الأربعة (الحنفية والمالكية والشافعية والحنابلة) وبعض المذاهب الأخرى أحيانًا، بالاعتماد الدقيق في تحقيق كلّ مذهب على مؤلفاته الموثوقة لديه، والإحالة على المصادر المعتمدة عند اتباعه؛ لأنّ نقل حكم مذهب من كتب المذهب الأخرى لا يخلو من الوقوع في غلط في بيان الرأي الراجح المقرر، وقد عثرت على أمثلة كثيرة من هذا النوع)[2].

آمل أن يكون ذلك خطأ غير مكرر في موارد أخرى، وأنه قد حدث عن غفلة، كما ينبغي تصحيحه في الطبعات الجديدة للكتاب إن شاء الله.

---

(١) ناصر مكارم الشيرازي. الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، ج٣، الطبعة الأولى ١٩٩٢م (بيروت: مؤسسة البعثة)، ص٨٤.

(٢) الفقه الإسلامي وأدلته، ج١، ص٩.

الحوار مع الطرف الآخر

للحوار دور كبير في توضيح صورة كلّ طرف أمام الطرف الآخر، وفي استجلاء حقيقة رأيه، وفهم أدلته ومستنداته، كما قد يساهم في تجاوز الحساسيات والحواجز النفسية.

والمشكلة التي يعاني منها كثير من علماء الدين، هي تحّول الاختلاف في الرأي بينهم إلى موقف نفسي وشخصي، يبدأ بإساءة الظن في الطرف الآخر، وأن رأيه نابع من الجهل أو المصلحة، وأنه يتعمد الخطأ و مخالفة الحقّ.

ثم يرّتب على ذلك موقف المقاطعة له، وهجره باعتباره مبتدعًا منحرفًا.

وإني لأتعجب كثيرًا من تسرّع بعض العلماء الأجلاّء في اتهام أقرانهم بالبدعة والانحراف، والتحرج عن التعاطي معهم، حتى في حدود المجاملات والعلاقات الإنسانية، لا لشيء إلّا لأنهم يختلفون معهم في الرأي.

وفي كتاب (فرائد الأصول) للشيخ مرتضى الأنصاري والمعروف بـ (الرسائل) وهو من الكتب التي تدرس في الحوزات العلمية الشيعية في مجال علم الأصول، ضمن مناهج السطوح العالية، وردت قصة غريبة في هذا السياق، وقفت عندها طويلًا أيام دراستي للكتاب مناقشًا لأستاذي حولها، وكان عالمًا جليلًا فاضل الخلق، حاول تبريرها لكن دون جدوى.

تقول القصة: (حكى السيد المحدّث الجزائري عمن يثق به: أنه قد زار السيد صاحب المدارك (السيد محمد بن علي الموسوي العاملي صاحب كتاب مدارك الأحكام)، (٩٤٦-١٠٠٩هـ) المشهد الغروي (النجف الأشرف في العراق) فزاره

العلماء وزارهم، إلّا المولى عبد الله التستري، فقيل للسيد في ذلك، فاعتذر بأنه لا يرى العمل بأخبار الآحاد، فهو مبدع، ونقل في ذلك رواية مضمونها: إن من زار مبدعًا فقد خرب الدين)[1].

والشيخ عبد الله التستري مرجع وفقيه بارز في عصره، وهو قد بادر لزيارة السيد محمد صاحب المدارك، لكنه لم يرد عليه الزيارة كما فعل مع العلماء الآخرين الذين زاروه؛ لأنه يستشكل شرعًا في زيارته ويعتبره مبدعًا؛ لأنّ رأيه العلمي عدم الاعتماد على الأخبار غير المتواترة التي يرويها الآحاد!!

وأعجب من ذلك ما قرأته في حياة الشيخ ملا محمد تقي بن محمد البرغاني القزويني، من كبار علماء قزوين في إيران، وكان عالمًا فقيهًا واعظًا عابدًا، جاء في ترجمته (إنه يحضر مجلس وعظه كثير من العلماء والطلاب، ويكتبون ما يعظ به، وكان كثير العبادة، حتى إنه كان يذهب إلى مسجده عند منتصف الليل، ويبقى حتى طلوع الفجر الصادق، مشتغلًا بالمناجاة والأدعية والتضرع والأنين والتولول والبكاء والتأوه، ويقرأ المناجاة الخمسة عشر غيبًا)[2] وقد استشهد على يد البابية البهائية.

هذا العالم كان مختلفًا مع الشيخ أحمد زين الدين الأحسائي، (١١٦٦-١٢٤١هـ) الذي سافر إلى قزوين، فالتف حوله جمع من العلماء، وذاعت شهرته وصيته هناك، وفي العديد من مناطق إيران.

وتلافيًا للخلاف، حاول حاكم مدينة قزوين عقد مجلس حوار ومصالحة

(١) مصطفى الاعتمادي. شرح الرسائل، ج١، الطبعة الثانية، (قم: مكتبة العلامة)، ص٢٨١.
(٢) محمد بن سليمان التنكابني. قصص العلماء، الطبعة الأولى ١٩٩٢م، (بيروت: دار المحجة البيضاء)، ص٢٦.

بينهما، يقول التنكابني في قصص العلماء: (أراد حاكم المدينة ابن السلطان، ركن الدولة الميرزا علي تقي، أن يرفع عن نفسه السوء إذ حصل ذلك في قزوين، وهذا لن يسعد السلطان أبدًا، فسعى في تبديل الشقاق إلى وفاق، ودعا العلماء في ليلة إلى الضيافة، ومن بينهم الشهيد (ملا محمد تقي البرغاني) والشيخ (أحمد الأحسائي). وفي المجلس جلس الشيخ في الصدر، ثم الشهيد، لكن كانت بينهما فاصلة، وعندما وضعوا المائدة وضعوا للشهيد والشيخ سفرة واحدة، لكن الشهيد لم يشارك في هذه السفرة، وكان يتناول الغذاء من سفرة أخرى! وعند الجلوس وضع يده على جهة من وجهه المحاذية للشيخ!، وبعد انتهاء الطعام قال الأمير المضيف مفتتحًا الكلام: إنّ الشيخ من رؤوس علماء العرب والعجم، واحترامه لازم، والشهيد أيضًا لا يجوز التقصير في احترامه، فيجب قلع كلام المفسدين بين هذين العالمين، وقطع شجرة العناد وقمعها.

(فقال الشهيد: إنه لا إصلاح ومصالحة بين الكفر والإيمان، وللشيخ مذهب في المعاد يخالف ضرورة من ضروريات دين الإسلام، ومنكر الضروري كافر!! وانقضى المجلس والشهيد أكثر تأكيدًا وتشديدًا في تكفير الشيخ!!)[1].

ومثل هذه النماذج والقصص متكرر في بعض أوساط العلماء، مع الأسف الشديد، حيث تنعدم أجواء الحوار، وتنقطع كلّ الأواصر الاجتماعية والعلاقات الإنسانية، بمبرر الاختلاف في الرأي.

معطيات الحوار

١. بالحوار يتأكد الإنسان ويتحقق من صحة رأيه وموقفه، فقد تسيطر على

---

(١) المصدر نفسه، ص٤٩.

ذهنه فكرة، أو يبدو له رأي يرتاح له، غير ملتفت إلى ثغرات تلك الفكرة، أو نقاط ضعف ذلك الرأي، ولكنه حينما يواجه الرأي الآخر، والطرف الآخر، بما لديه من نقد وملاحظة واعتراض على رأيه، وبما يقدمه من رأي بديل، له أدلته وحججه، فيكون ذلك مدعاة له للتفكير والتحقق، مما يؤدي إلى تعميق رأيه وازدياد ثقته في موقفه، أو إلى تراجعه عنه أن اكتشف خطأه.

يقول الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: (من استقبل وجوه الآراء عرف مواقع الخطأ)[1].

٢. بالحوار يقدم الإنسان نفسه ورأيه للآخرين، فيتعرفون حقيقة موقفه، ويطلعون على منطلقاته ومبرراته، فتكون صورته واضحة أمام الآخرين، وتزول الالتباسات والشكوك، يقول الإمام علي عليه السلام: (تكلموا تعرفوا، فإن المرء مخبوء تحت لسانه)[2].

وفي المقابل تتاح للإنسان عبر الحوار، فرصة التعرف إلى الآخرين وآرائهم، فيكون انطباعه وتقويمه للرأي الآخر أكثر واقعية وصدقًا.

٣. والحوار هو الطريق الصحيح والأمثل للتبشير بالرأي والموقف الذي يؤمن به الإنسان؛ ذلك لأنّ الرأي لا يفرض بالقوة، وإنما بالاقتناع، الذي لا يتحقق بشكل عميق إلّا بالحوار.

لذا كان الحوار هو منطق الأنبياء والرسل والأئمة والمصلحين، حيث كانوا يعرضون رسالات الله، ويبلّغون أحكامه للناس، مع إتاحة الفرصة للنقاش

---

(١) نهج البلاغة، قصار الحكم، رقم ١٧٣.

(٢) المصدر نفسه، قصار الحكم، رقم ٣٩٢.

والأخذ والردّ، لكي يندفع الآخر بقناعة وإخلاص لتقبل دين الله وأمره.

يقول تعالى: ﴿**ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**﴾[١].

الموضوعية وترك التعصب

حينما يبذل كلّ مجتهد جهده لاستنباط الحكم الشرعي، وتختلف النتائج التي يصل إليها المجتهدون، وتتعدد آراؤهم في المسألة الواحدة إلى حدّ التضاد، حيث يرى البعض إباحة شيء، بينما يرى آخرون وجوبه، بل قد يكون الأمر دائرًا بين الوجوب أو الحرمة، فهنا، أين هو حكم الله الواقعي في المسألة؟

لقد بحث العلماء هذا الموضوع تحت عنوان (التخطئة أو التصويب)، وذهب عدد قليل من العلماء إلى القول بالتصويب، وأطلق عليهم (المصّوبة)، حيث يرون أن نتيجة أيّ اجتهاد هي نتيجة صائبة، وأن حكم الله تعالى في المسألة الاجتهادية، هو ما اهتدى إليه المجتهد باجتهاده، وليس لله فيها حكم معيّن من قبل، فكلّ ما يصل إليه اجتهاده فهو الصواب، وبهذا ينتهون إلى تصويب كلّ مجتهد، أو أنّ لله حكمًا معيّنًا إلّا أنه لم يكلِّف بإصابته، ويكون ما ينتهي إليه منه مصيبًا فيه وإن أخطأ[٢].

وعمّم بعضهم ذلك، حتى شمل به القضايا العقلية العقائدية، حيث ذهب إلى أنّ الحق، حتى في العقائد غير متعيّن، وأنه يتعدّد، وهو ما يصل إليه كلّ مجتهد باجتهاده، فيكون كلّ مجتهد حتى في العقليات والعقائد مصيبًا[٣].

---

(١) سورة النحل، الآية: ١٢٥.

(٢) محمد بحر العلوم. الاجتهاد أصوله وأحكامه، طبعة١٩٧٧م، (بيروت: دار الزهراء)، ص٢٠٢.

(٣) المصدر نفسه. ص٢٠١.

لكن رأي اغلب علماء الأمة، بمختلف مذاهبها، هو القول بالتخطئة، ومفاده أنّ الله تعالى أحكامًا معينة في كلّ مسألة اجتهادية، فمن هداه اجتهاده إلى ذلك الحكم فقد أصاب، وإلّا فهو مخطئ، وهو معذور ومأجور في الحالين.

وبناءً على ذلك، فإنه حين تتعدد آراء المجتهدين في مسألة ما، فهناك احتمالان لا ثالث لهما:

الاحتمال الأول:

إنّ جميع تلك الآراء خاطئة، لا يعبّر شيء منها عن الحكم الشرعي.

الاحتمال الثاني:

إنّ رأيًا واحدًا فقط من بين تلك الآراء قد أصاب الحكم الشرعي وما عداه فهو خاطئ.

وإذا كان اختلاف الفتاوى وتعدّد الآراء أمرًا طبيعيًّا له مبرراته وأسبابه، إلّا أنه قد يمكن التقليل من ذلك، وتقريب وجهات النظر، والاتفاق على قسم لا بأس به من القضايا الدينية، والمسائل الشرعية، عندما تسود الأجواء العلمية وأوساط العلماء أخلاقيات وضوابط الاختلاف.

وفي طليعة تلك الأخلاقيات والضوابط، الموضوعية في البحث، والتجرد والإخلاص للحقيقة، وترك التعصب.

إنّ من أسوأ الآفات والأمراض التي تضرّ بالدين والعلم، وتفتك بالعلماء، هو مرض التعصب للرأي، بأن يتشبث الإنسان برأيه، ويتمسك بموقفه، وكأنه يمثل وجوده وشخصيته واعتباره.

فهو غير مستعدّ للمناقشة والحوار، وإذا ما ناقش، فمع التصميم على عدم التنازل عن رأيه، وإن اتضح له مخالفته للحق، ويتمحّل التبريرات، ويفتعل الأدلة، للدفاع عن رأيه، ويكابر ويعاند حتى مع تجلّي الحقيقة له.

وهذه الصفة السيئة تتنافى مع حقيقة العبودية لله تعالى، حيث يصف الله عباده بقوله: ﴿**فَبَشِّرْ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ الله وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ**﴾[١].

جاء في رواية عن الإمام الصادق عليه السلام: (عن أبي الربيع قال: قلت: ما أدنى ما يخرج به الرجل من الإيمان؟ قال: الرأي يراه مخالفًا للحق فيقيم عليه[٢].

وقد يتعصب الإنسان لمذهبه، فيتمسك بأيّ رأي أو فكرة يقرّها المذهب، وإن اتضح له مخالفتها للحق، وقد يدافع عن قول لمذهبه أو عن موقف لاتباع مذهبه، دفاع المستميت مع معرفته بخطأ ذلك.

ومع تشكّل الحركات والأحزاب، في الساحة الإسلامية، أصبح لدينا لون جديد من التعصب، هو التعصب الفئوي الحزبي، حيث يتقيد المنتمي بآراء ومواقف فئته وجماعته، وإن كان مخالفًا للشرع أو للمصلحة العامة.

عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: (من تعصّب عصبّه الله بعصابة من نار)[٣].

---

(١) سورة الزمر، الآيتان: ١٧-١٨.

(٢) بحار الأنوار، ج٦٩، ص٢٢٠.

(٣) المصدر نفسه. ج٧٠، ص٢٨٤.

الاختلاف في القضايا الثانوية:

ليس أمام فكر الإنسان حدود، بل يعمل ضمن مساحة واسعة، سعة امتداد الكون والحياة، كما إنّ كلّ قضية يمكن أن تكون موضوعًا للرأي الديني، والحكم الشرعي، ضمن دائرة الوجوب، أو الحرمة أو الإباحة، بتقسيماتها المعروفة.

من هنا كانت أرجاء الفكر الإسلامي، والتشريع الإسلامي، رحبة واسعة، تبدأ بما فوق الطبيعة، وما هو خارج الإدراك الحسي المادي للإنسان، وتشمل كلّ قضايا الوجود والحياة، وتمتد لآفاق المستقبل، ولما بعد الحياة.

فمثلًا في مجال التشريع الإسلامي يقدّر أحد الفقهاء أنّ عدد المسائل الشرعية التي يناقشها الفقهاء يصل إلى ما يزيد على نصف مليون مسألة[١].

وذلك راجع بالطبع إلى تفريعات المسائل وتفاصيلها.

وهناك قصة نقلها الرواة في حياة الإمام محمد الجواد بن علي الرضا عليهما السلام تصلح شاهدًا على كثرة التفريعات في المسائل الشرعية.

ففي مجلس عقده المأمون، سابع الخلفاء العباسيين، لامتحان المستوى العلمي للإمام محمد الجواد، الذي كان صغير السن آنذاك، وأُحضر في مقابله قاضي القضاة يحيى بن أكثم، فطرح على الإمام الجواد المسألة التالية:

ما تقول أصلحك الله في محرم قتل صيدًا؟

وقبل الإجابة ردّ الإمام عليه السؤال، لعرض تفريعات المسألة وتفصيلاتها

---

(١) السيد محمد الشيرازي. شهر رمضان شهر البناء والتقدم، الطبعة الأولى ١٩٩٥م، ص٣٣.

قائلًا:

قتله في حلّ أو حرم؟

عالمًا كان المحرم أم جاهلًا؟

قتله عمدًا أو خطأ؟

حرًّا كان المحرم أم عبدًا؟

صغيرًا كان أو كبيرًا؟

مبتدئًا بالقتل أم معيدًا؟

من ذوات الطير كان الصيد أم من غيرها؟

من صغار الصيد كان أم من كباره؟

مصرًّا على ما فعل أو نادمًا؟

في الليل كان قتله للصيد في أوكارها أم نهارًا وعيانًا؟

محرمًا كان بالعمرة إذ قتله أو بالحج كان محرمًا؟

ثم شرع الإمام في تبيين الحكم الشرعي، لكلّ تفريع من تلك التفريعات[1].

ومع كثرة المسائل الشرعية التي يبحثها الفقهاء، ويُعملون فيها نظرهم، فإن فرص الاختلاف تزداد في أحكام تلك المسائل.

وكذلك الحال في المجال الفكري العقائدي، فكلما طرأت تساؤلات، واستجدت

(١) أعيان الشيعة. ج٢، ص٣٤.

أفكار، وحصلت تطورات معرفية، اتّسع ميدان البحث الفكري، فيتسع معه مجال الاختلاف.

ولأنّ أحداث العهود الإسلامية الأولى، تعتبر مصدرًا مؤثرًا في الفكر والتشريع الإسلاميين، فقد اهتم العلماء بالبحوث التاريخية، وهنا تختلف الآراء في تقويم الروايات والنقولات، ما فتح أبواب الاختلاف في قضايا التاريخ على مصراعيها.

وإذا كان الاختلاف طبيعيًا ومشروعًا، في كلّ تلك الأبعاد الفكرية والتشريعية والتاريخية وسائر مجالات المعرفة...

فإنّ من غير الطبيعي تركيز الاهتمام على الاختلاف في المسائل الثانوية، والقضايا الجانبية، على حساب ما هو أهم من قضايا الدين، ومصلحة الأمة، حيث نلاحظ نشوب كثير من معارك الخلاف على مسائل ليست ذات أولويّة، ينشغل بها الوسط العلمي الديني، وتنقسم على أساسها المجتمعات، بين مؤيد لهذا الرأي أو ذاك.

وبذلك تتزيّف الاهتمامات، وتضيع الأولويات.

نقل لي بعض الإخوة المؤمنين من الهند، عن إحدى مناطقهم، أنّ مشكلة كبيرة حصلت في تلك المنطقة، قسّمت الناس إلى قسمين متنازعين، منذ عدة سنوات إلى الآن، وسبب تلك المشكلة اختلاف خطيبين، كانا يحييان موسم عاشوراء، وذكرى شهادة الإمام الحسين عليه السلام، حول مسألة وجود الماء في خيام الحسين ليلة العاشر من المحرم، أو عدم وجوده! حيث تحدث أحد الخطيبين عن أن الماء كان موجودًا، ولا يصح أبدًا أن يتعذّر وجود الماء على إمام معصوم، له مكانته المميزة عند الله، وأنّ القول بعدم وجود الماء، يعني التشكيك في قدرة الإمام وعظمته ومكانته! أما الخطيب الآخر فقد تحدث، على العكس من ذلك، نافيًا وجود الماء في خيام الإمام

الحسين، بالأدلة التاريخية والنقلية، واعتبر أنّ إنكار ذلك يعني التقليل من مظلومية الإمام الحسين، والتبرير لأعدائه! وانقسم الناس إلى معسكرين، وحصلت بينهما مناوشات وصدامات، واستمرت حالة الانقسام والفرز إلى الآن!

ومثل ذلك ما عايشناه في بعض مناطقنا من الخلاف على موضوع زواج القاسم بن الإمام الحسن، على بنت للإمام الحسين في اليوم العاشر من المحرم، حيث ورد ذلك في بعض الكتب غير المعتمدة، واعتاد الجمهور على الاحتفاء بهذا الزواج المدعى بصورة مأساوية في اليوم الثامن من المحرم، والمخصص عندهم لذكرى شهادة القاسم بن الحسن، لكن بعض العلماء والخطباء اعترضوا على هذه الرواية وفنّدوها، وحصل وقتها خلاف شغل العديد من المجالس والخطابات، واستمر لسنوات إلى أن تلاشى وخفت أخيرًا.

وقد عاشت الأمة الإسلامية، في أواخر القرن الثاني، وأوائل القرن الثالث للهجرة، فتنة عمياء، عنوانها محنة خلق القرآن، حيت احتدم الجدل والنقاش بين علماء المسلمين، حول تحديد هوية القرآن، هل هو مخلوق محدث أوجده الله؟ أو هو قديم لانتسابه لله سبحانه؟

وبالرغم من أن نتيجة البحث بالقول بخلق القرآن أو قدمه لا تأثير لها على أصول العقيدة، ولا برامج التشريع، ولا مصالح الحياة، إلّا أنها سيطرت على الأجواء العامة لحياة الأمة، حيث تبنتها السلطات الحاكمة آنذاك.

وأصبح الموقف من هذه المسألة حدًّا فاصلًا بين الإيمان والكفر. يقول أبو عبد الله محمد بن يحيى الدهليّ المتوفى سنة ٢٥٥هـ: (من زعم أنّ القرآن مخلوق فقد كفر، وبانت منه امرأته، فإن تاب وإلّا ضربت عنقه، ولا يدفن في مقابر المسلمين!)

وشاع التكفير حتى عند النساء، كما يروي الخطيب البغدادي في (تاريخ بغداد)، أنّ امرأة تقدمت إلى قاضي الشرقية، عبد الله بن محمد الحنفي فقالت: إن زوجي لا يقول بمقالة أمير المؤمنين في القرآن، ففرِّق بيني وبينه!!

واتسع الخلاف بين المسلمين من تكفير البعض للبعض، فطائفة تقول: إنّ من قال القرآن غير مخلوق فهو كافر، وعليه ابن أبي داوود وجماعته[١].

لقد نهى رسول الله ﷺ أصحابه أن يخوضوا في أبحاث جدلية كلامية، تشغلهم عن مهمة تركيز الإسلام، وحماية الدعوة، التي كانت تواجه مؤامرات المشركين واليهود آنذاك، كما جاء في سنن ابن ماجه: عن عمر وابن شعيب عن أبيه عن جدّه قال: (خرج رسول الله ﷺ على أصحابه، وهم يختصمون في القدر، فكأنما يفقأ في وجهه حبّ الرمان من الغضب، فقال: بهذا أُمرتم؟ أو لهذا خلقتم؟ تضربون القرآن بعضه ببعض، بهذا هلكت الأمم من قبلكم)[٢].

ومرة سأل أبو أحمد الخراساني الإمام موسى الكاظم بن جعفر الصادق عليهما السلام: (قال له: الكفر أقدم أم الشرك؟ فردّه الإمام، قائلًا: مالك ولهذا؟)[٣].

وحينما استفتى أحد العراقيين عبد الله بن عمر، عن دم البعوض، قال ابن عمر: انظروا إلى أهل العراق، يسألون عن دم البعوض، وقد قتلوا ابن بنت رسول الله!

ولا تزال الساحة الإسلامية تعاني من مثل هذه الخلافات والمعارك المفتعلة، حول قضايا جانبية، تشغل بال الأمة عن التحديات الخطيرة التي تواجهها، وهموم الواقع المعيش.

---

(١) الإمام الصادق والمذاهب الأربعة. ج١، ص٢٠١.

(٢) أبو الحسن الحنفي السندي. شرح سنن ابن ماجه، ج٢، (بيروت: دار الجيل)، ص٤٤.

(٣) تحف العقول عن آل الرسول. ج١، ص٥٨.

وقبل فترة وجيزة اطّلعت على كتاب طُبع مؤخرًا تحت عنوان (الإصابة في تصحيح حديث الذبابة) وهو ردٌّ على المشككين في صحة حديث يرويه أبو هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: (إذا وقع الذباب في شراب أحدكم فليغمسه كلّه ثم لينتزعه فإنّ في إحدى جناحيه داء وفي الأخرى شفاء). وبطريق آخر عن أبي سعيد الخدري أنه قال: (إنّ أحد جناحي الذباب سمّ والآخر شفاء، فإذا وقع في الطعام، فأملقوه، فإنه يقدم السمّ، ويؤخر الشفاء)[١].

ولسنا الآن في معرض الكلام عن صحة الحديث أو عدم صحته، وإنما في مدى أهميّة الموضوع وتوقيت طرحه.

التزام الآداب واحترام الحقوق

هناك حقوق أقرّها الإسلام فيما بين الناس، لتنتظم بها علاقاتهم الاجتماعية، وليشعروا بإنسانيتهم، وليعيشوا الكرامة والاحترام فيما بينهم.

وهناك آداب سنّها الدين، في التعامل الاجتماعي، تتعمّق بالمحافظة عليها مشاعر المودة والحب، ويزداد التماسك والتآلف، وينال بها كلّ فرد ما يستحقه من الاحترام والتقدير.

هذه الحقوق الاجتماعية ثابتة للإنسان بما هو إنسان، ولعضويته في المجتمع المسلم، وبغض النظر عن أفكاره وآرائه المختلفة، ما دام محافظًا على حقوق الآخرين، وملتزمًا باحترام هوية المجتمع واختياراته.

وتشير بعض النصوص الدينية بصراحة إلى ثبوت هذه الحقوق، وإلى الالتزام

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة. ج١، ص٨٥.

بالآداب والأخلاق الإنسانية الإسلامية، حتى مع اختلاف الدين والمذهب والرأي والتوجه.

١. ففي مجال حقوق الأرحام، تؤكد النصوص الدينية أهمية المحافظة عليها، حتى مع اختلاف الدين أو المذهب، فالوالدان لا بدّ من احترامهما وبرّهما، وإن كانا مشركين، بل وإن كانا يضغطان على الولد المؤمن ليترك إيمانه، فعليه التمسك بإيمانه، وعدم الاستجابة لضغوطهما، لكن مع حسن الأدب في التعامل مع والديه، يقول تعالى: ﴿**أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ* وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا**﴾[١].

جاء في (تفسير التحرير والتنوير) لابن عاشور: (إنّ الأمر بمعاشرتهما بالمعروف، شامل لحالة كون الأبوين مشركين، فإنّ على الابن معاشرتهما بالمعروف، كالإحسان إليهما وصلتهما، وفي الحديث: إنّ أسماء بنت أبي بكر قالت لرسول الله ﷺ: إنّ أمي جاءت راغبة أفأصِلُها؟ فقال: نعم، صلي أمك، وكانت مشركة، (وهي قتيلة بنت عبد العزى). وشمل المعروف ما هو معروف لهما أن يفعلاه في أنفسهما، وإن كان منكرًا للمسلم، فلذلك قال فقهاؤنا: إذا أنفق الولد على أبويه الكافرين الفقيرين، وكان عادتهما شرب الخمر اشترى لهما الخمر؛ لأنّ شرب الخمر ليس بمنكر للكافر، فإن كان الفعل منكرًا في الدينين فلا يحلّ للمسلم أن يشايع أحد أبويه عليه)[٢].

وسأل الجهم بن حميد الإمام جعفر الصادق عليه السلام، قال: قلت لأبي عبد الله: تكون لي القرابة على غير أمري، ألهم عليّ حقّ؟ قال: (نعم، حقّ الرحم لا يقطعه شيء،

(١) سورة لقمان، الآيتان ١٤-١٥.

(٢) الشيخ محمد طاهر (ابن عاشور). تفسير التحرير والتنوير، ج٢١، ص١٦١.

وإذا كانوا على أمرك كان لهم حقّان: حقّ الرحم وحقّ الإسلام)[١].

وفي رواية أخرى عن معمر بن خلاّد قال: (قلت لأبي الحسن علي الرضا ﵇: أدعو لوالدي إذا كانا لا يعرفان الحقّ؟ قال: ادعُ لهما وتصدّق عنهما، وإن كانا حيّين لا يعرفان الحقّ فدارهما، فإنّ رسول الله ﷺ قال: إنّ الله بعثني بالرحمة لا بالعقوق)[٢].

٢. والذين يجاورون الإنسان، ويعيشون معه في منطقة واحدة، لهم عليه حقّ الجوار، وقد اهتم الإسلام بتأكيد حقّ الجار، دون أن يشترط في ثبوت ذلك الحقّ التوافق الديني أو الفكري، بل هو حقّ مطلق ثابت لكلّ جارٍ.

ولرفع هذه الشبهة جاءت النصوص الدينية مؤكدة مراعاة هذا الحقّ، وإن اختلف معك جارك في العقيدة أو الاتجاه.

يقول تعالى: ﴿**وَاعْبُدُوا الله وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ**﴾ سورة النساء، الآية ٣٥، حيث ذكر المفسرون أنّ من معاني ﴿**الْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ**﴾: أنّ الجار ذي القربى منك بالإسلام، والجار الجنب: المشرك البعيد في الدين، واستدلوا بما ورد عنه ﷺ أنه قال: (الجيران ثلاثة: جار له ثلاثة حقوق: حقّ الجوار، وحقّ القرابة، وحقّ الإسلام، وجار له حقّان: حقّ الجوار، وحقّ الإسلام، وجار له حقّ الجوار، المشرك من أهل الكتاب)[٣].

وقد حث الإسلام على الإحسان في معاملة الجار ولو كان غير مسلم، فقد عاد

---

(١) الكافي. ج٢، ص١٥٧.

(٢) المصدر نفسه. ص١٥٩.

(٣) مجمع البيان في تفسير القرآن. ج٣، ص٨٣.

النبي ﷺ ابن جاره اليهودي، وذبح ابن عمر شاة، فجعل يقول لغلامه: أهديت لجارنا اليهودي؟ أهديت لجارنا اليهودي؟ سمعت رسول الله ﷺ يقول: (ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه)[١].

وأغلب النصوص الواردة في حقوق الجار، تتحدث بلغة مطلقة، لتشمل كلّ من ينطبق عليه عنوان الجار، بغضّ النظر عن أيّ صفات أخرى.

كقوله ﷺ: (أحسن مجاورة من جاورك تكن مؤمنًا)[٢].

وقوله ﷺ: (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذي جاره)[٣].

وقوله ﷺ: (ما آمن بي من بات شبعانًا وجاره طاوي، ما آمن بي من بات كاسيًا وجاره عاري)[٤].

٣. وقد ضرب الإمام علي بن أبي طالب، عليه السلام، أروع الأمثلة في حفظ حقوق الطرف الآخر وإن كان مخالفًا في الرأي والموقف.

ففي أثناء خلافته، وحينما انشق عليه الخوارج، واتهموه في دينه وكفروه، فإنه واجههم في حدود ردعهم عن التخريب، وممارسة الإرهاب، والتزم بمعاملتهم كسائر المواطنين، وإعطائهم حقوقهم الكاملة.

وكان علي عليه السلام، يقول: (إنا لا نمنعهم الفيء، ولا نحول بينهم وبين دخول

---

(١) التفسير المنير. ج٥، ص٦٧.

(٢) بحار الأنوار. ج٦٦، ص٣٦٨.

(٣) الكافي. ج١، ص٧.

(٤) مستدرك الوسائل. ج١٦، ص٢٦٥.

مساجد الله، ولا نهيّجهم ما لم يسفكوا دمًا، وما لم ينالوا محرمًا)[١].

وبذلك ضمن لهم رواتبهم، ونصيبهم من الغنائم والصدقات، وأعطاهم حق إبداء الرأي، وفسح لهم مجال التواجد في الأماكن العامة.

ولم يتعدَّ الإمام على حقوق أحد معارضيه والمخالفين له، بل حفظ لهم حتى حقوقهم المعنوية، حيث لم يقبل بأن يوصفوا بالشرك أو النفاق.

فعن الإمام جعفر الصادق عليه السلام، عن أبيه الإمام محمد الباقر عليه السلام: أن عليًا عليه السلام، لم يكن ينسب أحدًا من أهل حربه إلى الشرك ولا إلى النفاق، ولكنه كان يقول: (هم أخواننا بغوا علينا)[٢].

وسئل الإمام علي عليه السلام، عن أهل الجمل: أمشركون هم؟

قال: من الشرك فروّا.

قيل: أمنافقون هم؟

قال: إن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلًا.

قيل: فما هم؟

قال: أخواننا بغوا علينا[٣].

ونقل الغزالي في (المستصفى) أن علي بن أبي طالب، استشاره قضاته في البصرة،

(١) دراسات في ولاية الفقيه. ج٢ ص٨٠٦.
(٢) وسائل الشيعة. ج١٥، ص٨٣.
(٣) دراسات في ولاية الفقيه. ج٢، ص٨٠٧.

في القضاء بشهادة أهل البصرة من الخوارج، أو عدم قبول شهادتهم، فأمر بقبولها[(١)].

من كل ما سبق، يتبين لنا كيف أنّ الإسلام يوجهنا إلى احترام بعضنا بعضًا، وإلى حفظ الحقوق المتبادلة، والتزام آداب التعامل الاجتماعي، وإن لم يكن هناك توافق في العقيدة والفكر والاتجاه.

فكيف يصح للبعض أن يسيء إلى إخوانه المسلمين، ويسقط حقوقهم، ويتعدّى على حرماتهم، لا لشيء إلّا لأنهم يختلفون معه في المذهب، أو في الانتماء السياسي؟

بل وفي بعض الأحيان تسوء العلاقة بين أبناء المذهب الواحد، ويحصل الهجر والمقاطعة والخصام، للاختلاف في بعض التوجهات الفكرية، أو الآراء الفقهية، أو تعدّد مراجع التقليد والاتّباع!

ويلجأ البعض إلى تبرير هذا الموقف العدائي بعذر هو أقبح من الذنب، حيث يحكمون على مخالفهم بالخروج من ربقة الإسلام، أو يتهمونه بالابتداع والضلال، ثم يرتبون على ذلك موقف العداء له، والتشهير به، والنيل من حقوقه المادية والمعنوية.

وهذا ما يحصل غالبًا في أوساط رجال الدين. لذلك ينقل عن العالم التقي الشيخ عباس القمي، رحمة الله عليه، أنه كان يقول: إني أعفو وأصفح عمّن يستغيبني من الناس العاديين، لكني لا أعفو عمّن يستغيبني من رجال الدين! فلمّا سئل عن ذلك، قال: لأنّ الشخص العادي يستغيبني وهو يدرك أنه يرتكب خطأً، فأنا أعفو عنه. أما رجل الدين فلأنه قبل أن يستغيبني يبرر ذلك باتهامي بالابتداع أو التجاهر بالفسق حتى تحلّ له غيبتي!

---

(١) عبد الجيل عيسى. ما لا يجوز الخلاف فيه بين المسلمين، ص١٢١.

والغريب في الأمر أنّ رجال الدين يعرفون أكثر من غيرهم، تأكيد الإسلام وبيانه أهمية حفظ حقوق المسلم. وقد أحسن العلامة الشيخ مرتضى الأنصاري رحمه الله حينما استرسل في ذكر بعض الروايات والأحاديث، مما ورد من حقوق المسلم على أخيه المسلم، وذلك عند بحثه موضوع الغيبة في كتابه (المكاسب) الذي يدرسه طلاب العلوم الدينية في الحوزات العلمية.

ومن الأحاديث التي أثبتها الحديث التالي:

(عن علي، عليه السلام، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: للمسلم على أخيه المسلم ثلاثون حقًّا لا براءة له منها إلّا بأدائها أو العفو: يغفر زلته، ويرحم عبرته، ويستر عورته، ويقيل عثرته، ويقبل معذرته، ويرد غيبته، ويديم نصيحته، ويحفظ خلته، ويرعى ذمته، ويعود مرضه، ويشهد ميّته، ويجيب دعوته، ويقبل هديته، ويكافئ صلته، ويشكر نعمته، ويحسن نصرته، ويحفظ حليلته، ويقضي حاجته، ويستنجح مسألته، ويسمت عطسته، ويرشد ضالته، ويرد سلامه، ويطيب كلامه، ويبر أنعامه، ويصدّق أقسامه، ويوالي وليه، ولا يعاديه، وينصره ظالمًا ومظلومًا، فأما نصرته ظالمًا فيرده عن ظلمه، وأما نصرته مظلومًا فيعينه على أخذ حقه، ولا يسلمه ولا يخذله، ويحب له من الخير ما يحب لنفسه، ويكره له من الشر ما يكره لنفسه.

(ثم قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: إنّ أحدكم ليدع من حقوق أخيه شيئًا فيطالبه به يوم القيامة، فيُقضى له عليه)[1].

فهل تتبخّر كلّ هذه الحقوق، وتسقط كلّ الآداب، وتُباح الحرمات، حينما يكون اختلاف في الرأي، ولكلٍّ من الطرفين أدلته ومبرراته لرأيه وموقفه؟

(١) السيد محمد الشيرازي. إيصال الطالب إلى المكاسب، ج٣، طبعة ١٤٠٨هـ،(طهران: مؤسسة الأعلمي)، ص١٢٩.

ثم أين نحن عن الأحاديث والنصوص التي تحذّر من إيذاء المسلم، أو الاعتداء على كرامته، أو شيء من حقوقه؟ كما روي عن الإمام محمد الباقر عليه السلام، أنه قال: (من أعان على مسلم بشطر كلمة كتب بين عينيه يوم القيامة: آيس من رحمة الله)[1].

مواقع الاتفاق ومساحات الالتقاء

كم هي نسبة الاختلاف العلمي في قضايا الفكر ومسائل الفقه بين علماء الدين؟

فإذا كانت المعارف الإسلامية تحتوي مثلًا على ألف قضية ومسألة، فكم تشكل القضايا و المسائل المختلف فيها، من نسبة هذا العدد؟

هل هي بمقدار ٥٪ أو ١٠٪ أو ٢٠٪ من هذه القضايا والمسائل؟

أعتقد أنّ أيّ باحث مطلّع على التراث الإسلامي لن يجد أنّ هذه النسبة، وعلى أكبر الفروض والتقديرات، تزيد على ٢٠٪ من المعارف الإسلامية.

وليست القضايا والمسائل كلّها من الأساسيات، بل إنّ نصف ما يُختلف فيه أو أكثر، هو من القضايا النظرية المجردة، أو العملية الجزئية الجانبية.

وتقلّ هذه النسبة كثيرًا فيما بين العلماء من أتباع المذهب الواحد، وتنخفض لتصل إلى أقل من ٥٪ من القضايا والمسائل.

ولنفترض أنّ الخلاف العلمي بين عالم وآخر كان في درجته العليا ٢٠٪ فهذا يعني أنّ مساحة الاتفاق والتطابق هي بنسبة ٨٠٪. لكن المؤسف والمحزن في الأمر، هو تجاهل مساحة الاتفاق الواسعة وتجاوزها، للانشغال بمنطقة الخلاف المحدودة والوقوف عندها.

---

(١) بحار الأنوار. ج٧٢، ص١٤٩.

ففي الثقافة السائدة في أوساط الأمة، هناك تركيز بارز على القضايا والمسائل الخلافية، مع محدوديتها وثانويتها، وهناك إهمال واضح للمتفق عليه مع سعته وأولويته.

١. إنّ كلّ علماء الإسلام يتفقون على أصول العقيدة، وهي الإيمان بالله تعالى، ونبوة النبي محمد ﷺ وأنه خاتم الرسل والأنبياء، وبالمصير إلى الله، والمعاد إليه في يوم القيامة، وإن اختلفوا في بعض تفاصيل هذه العقائد.

كما يتفقون على معالم الشريعة، وأركان الدين، من صلاة وصوم وحج وزكاة وخمس وجهاد وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر، فهذه المعالم والأركان، يجمع علماء الإسلام على وجوبها، ويتفقون على مقوماتها الأساس، وخطوطها العريضة، وإذا ما كان هناك اختلاف، ففي بعض الجزئيات والتفاصيل من فروع مسائلها.

وينهل العلماء من منهل واحد، هو الكتاب والسنة، حيث يجمع المسلمون على حجيتهما، ولزوم الأخذ بما ورد فيهما، وتحريم أيّ مخالفة أو معارضة لهما.

وإن فهم نصوص الكتاب الكريم، والسنة الثابتة، لا يكون إلّا بالتدبر والتأمل والاجتهاد والنظر، مع معذورية كلّ مجتهد في الأخذ بما وصل إليه نظره واجتهاده.

وضمن كلّ مذهب من المذاهب الإسلامية، هناك اتفاق على قواعد الاستنباط وضوابط الاجتهاد، والكثير من التفاصيل العقيدية والفكرية.

هذا فيما يرتبط بأصول الدين ومعالم الشريعة.

٢. وحفظ الإسلام، وإعلاء كلمته، وتطبيق أحكامه وتعاليمه، هو الهدف المشترك لجميع علماء الدين.

ومما يهم العلماء جميعًا، حماية مصالح الأمة الإسلامية، وتحسين أوضاعها، والدفاع عن مقدساتها وحقوقها، وإعزاز مكانتها بين الأمم، لتكون كما أرادها الله تعالى ﴿**خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ**﴾.

٣. وهناك تحدّيات قائمة، يشعر بها كلّ واحد من علماء الدين، وأبرزها طغيان مدّ الأهواء والشهوات والانجراف المادي، الذي يصد الناس عن التوجه الروحي، والالتزام الديني. والتيارات الفكرية المادية التي تمتلك وسائل الإعلام، ومراكز القوة والقرار، وتعمل بإمكاناتها الضخمة ضد الحالة الدينية.

وهناك قوى العدوان والاستكبار العالمي، التي تعلن مواجهتها للصحوة الإسلامية، وتراها الآن الخطر الأكبر على الحضارة المادية الرأسمالية، وخاصة بعد سقوط المعسكر الشرقي، كما هو مفاد مقولة صموئيل هانتنغتون في (صدام الحضارات).

وهناك القوى المصلحية والمتسلطة في داخل الأمة الإسلامية، التي تمارس الاستبداد والقمع، وتنفذ خطط الأعداء، بوعي أو بغير وعي، وتقلّص دور العلماء في التبليغ والدعوة إلى الله.

وهناك أمراض التخلف التي تعاني منها الأمة، وأخطرها الجهل بالدين والحياة.

هذه التحديات الخطيرة القائمة، التي يفترض أن يستشعرها كلّ رجل دين، يجب أن تكون دافعًا لتقارب علماء الدين، وتعاونهم على مواجهتها.

والأهداف الكثيرة المشتركة التي يؤمنون بها جميعًا ينبغي أن توحد صفوفهم، وتنظّم حركتهم باتجاه تحقيقها.

وما دامت أصول العقيدة، ومعالم الشريعة، ومنابع الأحكام، واحدة، فإنها تشكل أرضية خصبة للتوافق والتلاقي، وتجاوز موارد الاختلاف في الفروع والجزئيات، والمسائل الثانوية والتفصيلية.

والسؤال الذي يشغل بال المخلصين في الأمة، هو: لماذا يغفل العلماء ويتجاهلون مساحات التلاقي الواسعة بينهم، ومواقع الاتفاق العريضة، وينشغلون بنقاط الخلاف المحدودة والجانبية؟

إنّ ذلك يقعد بهم عن مواجهة التحديات القائمة، ويضعفهم تجاهها، كما يمنعهم من تحقيق أهدافهم الكبيرة، ويعرقل سيرهم نحوها، وقد يؤدي النزاع والخلاف بينهم على الفروع والجزئيات إلى ضياع أصول الدين، وأسسه ومعالمه.

والمطلوب، كخطوة أولى، إعادة النظر في طرح القضايا والمسائل الدينية من قبل العلماء، ليكون التركيز والاهتمام بمواقع الاتفاق أولًا، واعتبارها هي الأصل والقاعدة والمنطلق.

وذلك يتيح الفرصة أكثر لتقريب الآراء في موارد الخلاف، التي يجب أن تبقى ضمن حجمها وحدودها الطبيعية، دون تضخيم أو تهويل.

إنّ البدء من موارد الخلاف والتركيز عليها، قد يحول دون استثمار مساحات اللقاء الواسعة، بما يخلق من حساسيات وانفعالات.

بينما الانطلاق من مواقع الاتفاق، يهيئ النفوس لمعالجة موارد الخلاف بمرونة وموضوعية، مما يتيح فرص التقارب، وتضييق حالات الاختلاف.

وقد ظهرت في هذا العصر، والحمد لله، مبادرات طيبة، من قبل المخلصين من

علماء الأمة، لإعادة صياغة اهتمامات العلماء، باتجاه التركيز على مساحات اللقاء، وتحجيم موارد الاختلاف، كمبادرة (دار التقريب بين المذاهب الإسلامية) التي انطلقت في القاهرة في الستينيّات من القرن الماضي، والمبادرة الجديدة المشابهة لها في الجمهورية الإسلامية الإيرانية.

وبرزت دعوات وحدوية لمفكرين غيارى على مصلحة الدين، ومستقبل الأمة، تبشر بـ(فقه الوفاق) الذي يركز على تأصيل وحدة الأمة، ومن أوائل الداعين إلى هذه الفكرة الرائدة، والطرح الوحدوي، سماحة الشيخ محمد مهدي شمس الدين، رئيس المجلس الإسلامي الشيعي الأعلى في لبنان، حيث أوضح معالم هذا التوجه في محاضرة له ضمن مؤتمر تكريم المفكر الإسلامي الكبير، السيد عبد الحسين شرف الدين، الذي انعقد في بيروت (١٨-١٩ شباط ١٩٩٣م).

ودعا إلى الفكرة نفسها الدكتور وهبة الزحيلي، رئيس قسم الفقه الإسلامي ومذاهبه في جامعة دمشق وكلية الشريعة.

يقول الدكتور الزحيلي: (ولم يتخلص العلماء بالذات، فضلًا عن العوام، من العناية بالخلافات، وضخموا مسائل الاختلاف، وهوّلوا وقائع النزاع، وتركوا نقاط الخلاف والتلاقي، وصنفوا العديد من المصنفات في بيان أسباب الاختلاف بين الفقهاء، إما بحسن نية ليعذر الناس العلماء في ما اختلفوا فيه، أو بسبب الولع بتتبّع الخلافات، الأمر الذي أنسى الأمة في خزانة الفكر الإسلامي أو الإنساني، ظاهرة الوفاق والتوحد، ورصدوا الكثير من مسوغات الخلاف، ما جعل المسلم يعنى بالاختلاف، وينسى الاتحاد أو الوحدة.

(لذا لم أجد مصنفًا واحدًا في القديم والحديث، عُني بالأمر البدهي أو الأصل الإسلامي، وهو وحدة الفكر والمصدر والاستنباط، لحمل الناس عليه، علمًا بأنّ

نقاط الاتفاق والاتحاد أكثر بكثير من نقاط الخلاف والخصام والتعصب المذهبي.

(إننا، نحن العلماء، آثمون أشدّ الإثم، من حيث ندري أو لا ندري، إذا لم نعد حساباتنا، ونفكر في مصائرنا، ونعمل من جديد على إعادة وحدة الأمة في السياسة والاقتصاد، والاجتماع والاعتقاد، والاجتهاد والاستنباط، والتربية والتعليم، والتوجيه والتثقيف، وبناء حياة مزدانة بكلّ عناصر القوة والمجد، والجدية والنهوض من الكبوات، ونسيان الخلافات الماضية التي ليس لإثارتها أو إحيائها أو التحدث فيها أي معنى، بل إنها سمٌّ زعاف، وضرر محض، يؤدي لإحياء الحديث في تلك الخلافات التي تفرق ولا تجمع، تهدم ولا تبني، وتمزق ولا ترقأ، وتضعف ولا تقوي أو تعالج، وتثير النزاع ولا تؤاخي أو تضمد الجراح.

(إنني أشك في أمانة العالم أو المؤرخ، الذي يكثر من الحديث أو التحقيق أو الإعلان أو المقال الآن عن جراح الماضي، وما أدت إليه من الفرقة المذهبية، والتشتت الوجداني، والضياع القائم، وما على العالم أو الفقيه إلّا أن ينبّه إلى العمل بأوجه اللقاء والتفاهم، والترفع عن الأحقاد والخصومات، وتناسي الثارات، والعمل على صعيد مشترك يحقق الوحدة الإسلامية.

(إنني أعيد الحساب بنفسي، لعلّ غيري يقلدني، ويبدأ الجميع في نسج فكر واحد، وبناء مجد واحد، والتصدي لعدوٍّ شرس خطير واحد، فهل من متذكر أو مستجيب؟

(إنّ الصلح في الفكر والتراث وكلّ النزاعات، ولا سيما أمام المخاطر، هو جوهر صفاء الدعوة إلى الله وإلى الإسلام الحق، وإلى الوجود الدولي الإسلامي الواحد)[1].

---

(١) الدكتور وهبة الزحيلي. (نقاط الالتقاء بين المذاهب الإسلامية)، مجلة المنهاج، العدد ٣، السنة الأولى

المراجع والمصادر

١. القرآن الكريم.

٢. محمود الآلوسي. روح المعاني في تفسير القرآن، الطبعة الرابعة ١٩٨٥م، (بيروت: دار إحياء التراث العربي).

٣. عبد الواحد الآمدي التميمي. غرر الحكم ودرر الكلم، الطبعة الأولى ١٩٨٧م، (بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات،).

٤. محمد بن مكرم ابن منظور، لسان العرب، نشر أدب الحوزة، قم، إيران ١٤٠٥هـ.

٥. الحافظ علي بن الحسن ابن عساكر. (ترجمة الإمام علي)، تاريخ دمشق، الطبعة الثالثة ١٩٨٠م، تحقيق محمد باقر المحمودي.

٦. ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ١٩٧٩م، (بيروت: دار الصادر).

٧. ابن عاشور، محمد طاهر، تفسير التنوير والتحرير.

١٩٩٦م، بيروت، ص٣٤.

٨. عبد العزيز البدري. الإسلام بين العلماء والحكام، ١٩٦٦م (المدينة المنورة: منشورات المكتبة العلمية).

٩. الدكتور عبد الرحمن بدوي. موسوعة الفلسفة، الطبعة الأولى ١٩٨٤م، (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر).

١٠. محمد بن إسماعيل البخاري. صحيح البخاري.

١١. الدكتور محمد أبو الفتح البيانوني. دراسات في الاختلافات الفقهية، ١٩٧٥م، (حلب: مكتبة الهدى).

١٢. محمد بحر العلوم. الاجتهاد أصوله وأحكامه، ١٩٧٧م، (بيروت: دار الزهراء).

١٣. تبليغات إسلامي حوزة علمية، قم، حوزة، مجلة شهرية باللغة الفارسية، عدد ٢٣.

١٤. محمد بن سليمان التنكابني. قصص العلماء، الطبعة الأولى ١٩٩٢م، (بيروت: دار المحجة البيضاء).

١٥. التوحيد، مجلة إسلامية شهرية، طهران، العدد ٦٨، تشرين الثاني ١٩٩٣م.

١٦. محمد بن الحسن بن شعبة الحراني. تحف العقول فيما ورد عن آل الرسول، الطبعة الخامسة ١٩٧٤م، (بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات).

١٧. محمد بن الحسن الحر العاملي. تفصيل وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ، (قم: مؤسسة آل البيت لتحقيق التراث).

١٨. أحمد بن تيمية الحراني. منهاج السنة، الطبعة الأولى ١٣٢١هـ، (مصر: المطبعة الكبرى الأميرية).

١٩. محمد رضا الحكيمي ومحمد علي الحكيمي. الطبعة الثانية ١٤٠٠هـ، (بيروت: الحياة، الدار الإسلامية).

٢٠. السيد محسن الطباطبائي الحكيم. مستمسك العروة الوثقى، (بيروت: دار إحياء التراث العربي).

٢١. السيد محمد تقي الحكيم. الأصول العامة للفقه المقارن، الطبعة الثالثة ١٩٧٩م، (بيروت: دار الأندلس).

٢٢. أسد حيدر. الإمام الصادق والمذاهب الأربعة، الطبعة الثانية١٩٧١م، (بيروت: دار الكتاب العربي).

٢٣. علي الخاقاني. شعراء الغري، الطبعة الثانية ١٤٠٨هـ، (قم: مكتبة آية الله العظمى المرعشي).

٢٤. الخميني، روح الله الموسوي، الحكومة الإسلامية.

٢٥. محمد باقر الخونساري. روضات الجنات في تراجم العلماء والسادات.

٢٦. الدكتور وهبة الزحيلي. التفسير المنير، الطبعة الأولى ١٩٩١م، (دمشق: دار الفكر).

٢٧. الدكتور وهبة الزحيلي. الفقه الإسلامي وأدلته، الطبعة الثالثة، ١٩٨٩م، (دمشق: دار الفكر).

٢٨. الدكتور وهبة الزحيلي. (نقاط الالتقاء بين المذاهب الإسلامية)، المنهاج، مجلة فصلية، بيروت، ١٩٦٦م.

٢٩. الشيخ جعفر السبحاني. الملل والنحل، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ، قم.

٣٠. السيد عبد الأعلى السبزواري. مواهب الرحمن في تفسير القرآن، الطبعة الثانية

١٩٩٠م، (بيروت: مؤسسة أهل البيت).

٣١. الشيخ عبد الرحمن السعدي. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ١٩٩٧م، (بيروت: دار الذخائر، مؤسسة الريان).

٣٢. أبو الحسن الحنفي السندي. شرح سنن ابن ماجه، (بيروت: دار الجيل).

٣٣. أبو إسحاق الشاطبي. الموافقات في أصول الشريعة، الطبعة الأولى ١٩٩١م، (بيروت: دار الكتب العلمية).

٣٤. علي عبد الكريم الفضيل شرف الدين. الزيدية نظرية وتطبيق، الطبعة الأولى ١٩٨٥م.

٣٥. السيد محمد الحسيني الشيرازي. الوصول إلى كفاية الأصول، الطبعة الثانية ١٩٨٨م، (قم: دار الإيمان).

٣٦. السيد محمد الحسيني الشيرازي. نحو يقظة إسلامية، الطبعة الأولى ١٩٨٧م، (بيروت: دار العلوم).

٣٧. السيد محمد الحسيني الشيرازي. السبيل إلى إنهاض المسلمين، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ.

٣٨. السيد محمد الحسيني الشيرازي، الفقه ـ الحكم في الإسلام، الطبعة الثانية ١٩٨٩م، (بيروت: دار العلوم).

٣٩. السيد محمد الشيرازي. شهر رمضان شهر البناء والتقدم، الطبعة الأولى ١٩٩٥م.

٤٠. السيد محمد الحسيني الشيرازي. إيصال الطالب إلى المكاسب، ١٤٠٨هـ، (طهران: مؤسسة الأعلمي).

٤١. ناصر مكارم الشيرازي. الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، الطبعة الأولى

١٩٩٢م، (بيروت: مؤسسة البعثة).

٤٢. السيد محمد باقر الصدر. اقتصادنا، ١٩٩١م، (بيروت: دار التعارف للمطبوعات).

٤٣. محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي. من لا يحضره الفقيه، الطبعة الخامسة ١٣٩٠هـ، (طهران: دار الكتب الإسلامية).

٤٤. الدكتور حسن صعب. علم السياسة، الطبعة السابعة ١٩٨١م، (بيروت: دار العلم للملايين).

٤٥. محمد حسين الطباطبائي. الميزان في تفسير القرآن، ١٩٩١م، (بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات).

٤٦. الفضل بن الحسن الطبرسي. مجمع البيان في تفسير القرآن، (بيروت: منشورات دار مكتبة الحياة).

٤٧. محمد بن جرير الطبري. تاريخ الأمم والملوك، (بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات).

٤٨. محمد سعيد الطريحي. الموسم، مجلة فصلية تراثية، العدد الخامس، المجلد الثاني ١٩٩٠م.

٤٩. فخر الدين الطريحي. مجمع البحرين، الطبعة الثانية ١٩٨٣م، (بيروت: مؤسسة الوفاء).

٥٠. محمد بن الحسن الطوسي. تهذيب الأحكام، الطبعة الثانية ١٩٥٩م، (النجف: مطبعة النعمان).

٥١. محمد بن الحسن الطوسي. التبيان في تفسير القرآن، (بيروت: دار إحياء التراث العربي).

٥٢. زين الدين العاملي. منية المريد في آداب المفيد والمستفيد، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ، (قم: مكتب الإعلام الإسلامي).

٥٣. فاروق عبدالسلام. الإسلام والأحزاب السياسية، ١٩٧٨م، (القاهرة: مكتب قليوب للطبع والنشر).

٥٤. مصطفى الاعتمادي. شرح الرسائل، الطبعة الثانية، (قم: مكتبة العلامة).

٥٥. مرتضى العسكري. مقدمة مرآة العقول، ١٤٠٤هـ، (طهران: دار الكتب الإسلامية).

٥٦. الشيخ فرج العمران. الأزهار الأرجية، مطبعة النجف ١٣٨٣هـ.

٥٧. نبيل العمري. فتح المنان إلى شرح وتحقيق المسند الجامع للإمام الدارمي، الطبعة الأولى ١٩٩٦م، (بيروت: دار البشائر الإسلامية، مكة المكرمة: المكتبة المكية).

٥٨. عبد الجليل عيسى. ما لا يجوز الخلاف فيه بين المسلمين.

٥٩. أبو حامد محمد بن محمد الغزالي. إحياء علوم الدين، (بيروت: دار المعرفة).

٦٠. الفيصل، مجلة أدبية شهرية، الرياض، العدد ١٣٥، رمضان ١٤٠٨هـ.

٦١. مسلم بن الحجاج القشيري، صحيح مسلم.

٦٢. باقر شريف القرشي. حياة الإمام موسى بن جعفر، الطبعة الثانية ١٩٧٠م.

٦٣. باقر شريف القرشي. حياة الإمام زين العابدين، الطبعة الأولى ١٩٨٨م، (بيروت: دار الأضواء).

٦٤. الدكتور يوسف القرضاوي. الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم، الطبعة الثالثة ١٩٩٣م.

٦٥. سيد قطب. في ظلال القرآن، الطبعة الخامسة ١٩٦٧م، (بيروت: دار إحياء

التراث العربي).

٦٦. المولى محسن الفيض الكاشاني. المحجة البيضاء في تهذيب الأحياء، الطبعة الثانية، قم، إيران.

٦٧. محمد بن يعقوب الكليني. الكافي، الطبعة الثالثة ١٣٨٨هـ، (طهران: دار الكتب الإسلامية).

٦٨. محمد ناصر الدين الألباني. سلسلة الأحاديث الصحيحة، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ، (عمّان: المكتبة الإسلامية، الكويت: الدار السلفية).

٦٩. عبد الكريم آل نجف. (السيد هبة الدين الشهرستاني طليعة التحديث الإسلامي)، التوحيد، مجلة فكرية شهرية، طهران.

٧٠. محمد باقر المجلسي. بحار الأنوار، الطبعة الثانية ١٩٨٣م، (بيروت: مؤسسة الوفاء).

٧١. الدكتور علي عبد الحليم محمود، جمال الدين الأفغاني، (الرياض: دار عكاظ للطباعة والنشر).

٧٢. المستشارية الثقافية للجمهورية الإسلامية الإيرانية بدمشق، المصلح الإسلامي السيد محسن الأمين، طبع سنة ١٩٩٢م.

٧٣. المستشارية الثقافية للجمهورية الإسلامية الإيرانية بدمشق، المطهري العبقري الرسالي.

٧٤. المسلمون، جريدة أسبوعية، لندن، بتاريخ ١٣/ ٧/ ١٤١٢هـ.

٧٥. مرتضى المطهري. الاجتهاد في الإسلام، مؤسسة البعثة، طهران، ترجمة جعفر صادق الخليلي.

٧٦. محمد بن عبد الواحد المقدسي، فضائل الأعمال، الطبعة الأولى ١٩٨٧م،

(بيروت: مؤسسة الرسالة).

٧٧. حسين علي المنتظري. دراسات في ولاية الفقيه، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ، قم.

٧٨. الشريف الرضي الموسوي. نهج البلاغة.

٧٩. السيد محسن الأمين. أعيان الشيعة، الطبعة الثانية ١٩٨٣م، (بيروت: دار التعارف للمطبوعات).

٨٠. عبد الحسين الأميني. الغدير في الكتاب والسنة والأدب، طبعة ١٤١٤هـ، (بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات).

٨١. الدكتور محمد فاروق النبهان. المدخل للتشريع الإسلامي، الطبعة الثانية ١٩٨١م، (الكويت: وكالة المطبوعات، بيروت: دار القلم).

٨٢. يوسف النبهاني. وسائل الوصول إلى شمائل الرسول، ١٩٧٠م، (بيروت: دار مكتبة الحياة).

٨٣. أبو الحسن الندوي. المرتضى، ١٩٨٩م، (دمشق: دار القلم).

٨٤. محمد مهدي النراقي. جامع السعادات، الطبعة الرابعة، (بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات).

٨٥. سعد الأنصاري. الفقهاء حكام على الملوك، الطبعة الأولى ١٩٨٦م، دار الهدى.

٨٦. علي المتقي بن حسام الدين الهندي. كنز العمال، الطبعة الخامسة١٤٠٣هـ، (بيروت: مؤسسة الرسالة).

٨٧. أحمد بن حجر الهيثمي. الصواعق المحرقة في الرد على أهل البدع والزندقة، ١٣٧٥هـ مكتبة القاهرة.

٨٨. فهمي هويدي. أزمة الوعي الديني، ١٩٨٨م، (صنعاء: دار الحكمة اليمانية).

٨٩. السيد محمد كاظم اليزدي. العروة الوثقى.

٩٠. فتحي يكن. الموسوعة الحركية، الطبعة الثانية، (عمّان: دار البشير).

٩١. أحمد بن محمد الأردبيلي. مجمع الفوائد والبرهان، ج٣، الطبعة الثانية ١٤١٩هـ، (قم: مؤسسة النشر الإسلامي).

٩٢. جعفر السبحاني. البلوغ، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ، (قم: مؤسسة الإمام الصادق).

٩٣. محمد بن عيسى بن سورة الترمذي، سنن الترمذي، ج٣، الطبعة الأولى ٢٠٠٠م، (بيروت: دار الكتب العلمية).

٩٤. محمد بن عبد اللهَّ الزركشي. البرهان في علوم القرآن، ج١، طبعة ١٩٨٨م، (بيروت: دار الجيل).

٩٥. عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني. قواعد التدبر الأمثل، الطبعة الثانية ١٩٨٩م، (دمشق: دار القلم).

٩٦. عبدالله العلمي الغزيّ. مؤتمر تفسير سورة يوسف عليه السلام، ج٢، الطبعة الأولى ١٣٨١هـ-١٩٦١م، (دمشق: مطابع دار الفكر).

٩٧. محمد مهدي شمس الدين. الاجتهاد والتقليد، الطبعة الأولى ١٩٩٨م، (بيروت: المؤسسة الدولية للدراسات والنشر).

٩٨. السيد هاشم الشخص. أعلام هجر، ج١، الطبعة الثانية ١٤١٦هـ، (قم: مؤسسة أم القرى).

٩٩. الشيخ علي البلادي البحراني. أنوار البدرين، الطبعة الثانية ١٤٠٧هـ، (قم: مكتبة المرعشي النجفي).

١٠٠. المجلة: مجلة أسبوعية تصدر من لندن.

١٠١. الشرق الأوسط: جريدة يومية تصدر من لندن.

١٠٢. علي بن جمعة العروسي الحويزي. تفسير نور الثقلين. تحقيق السيد علي عاشور، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ (بيروت: مؤسسة التاريخ العربي).

١٠٣. الخميني. صحيفة النور.

١٠٤. محمد بن يوسف الصالحي الشامي. سبل الهدى والرشاد، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ، (بيروت: دار الكتب العلمية).

١٠٥. وجهات نظر: مجلة تصدر عن الشركة المصرية للنشر العربي والدولي، القاهرة.

١٠٦. جلال الدين السيوطي. الدر المنثور، (بيروت: دار الفكر).

١٠٧. علي بن محمد الليثي الواسطي. عيون الحكم والمواعظ .

١٠٨. الحسيني ورام بن أبي فراس المالكي الأشتري. تنبيه الخواطر ونزهة النواظر، طبعه طهران سنة ١٣٠٩هـ.

١٠٩. محمد بن علي بن بابويه القمي. عيون أخبار الرضا، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ، (بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات).

المحتويات

مقدمة ٧
مدخل ١١

الفصل الأول علماء الدين والشأن الثقافي

مدخل ٢٣
التوجيه الفكري والحصانة الثقافية ٣١
نحو فاعلية ثقافية ٣٩
العمل الجمعي والمؤسساتي ٤٩
تنقية الثقافة ٥٧
الفقيه ومتغيرات البيئة الاجتماعية ٧١
زكاة العلم ٨١

الفصل الثاني الخطاب الديني التحديات والأولويات

الخطاب الديني والعولمة ٩٣

الانتماء للعصر ٩٩

أنسنة الخطاب الديني ١٠٧

صنع المشاكل أم تقديم الحلول ١١٣

أولويات الطرح في الخطاب الديني ١١٩

الخطاب الديني والتحديات الداخلية ١٢٥

الإصلاح الثقافي ومداراة الجمهور ١٣٣

الفصل الثالث علماء الدين والشأن الاجتماعي

انكماش الدور الاجتماعي، لماذا؟ ١٤١

عالم الدين بين التواضع وتضخّم الذات ١٦٧

ثمرة العلم التواضع ١٧٩

المجتمع وعلماء الدين ١٩١

آفاق أخرى للعمل الديني ١٩٩

علماء الدين بين التقديس والنقد ٢٠٥

الفصل الرابع علماء الدّين والشأن السّياسي

الإنسان كائن سياسي ٢١٧

وظيفة التوعية السياسية ٢٢٧
التصدي السياسي ٢٣٣
المرجعية الدينية والانتماء الوطني ٢٥١

الفصل الخامس علماء الدّين ومسؤوليّة الوحدة

مدخل ٢٦٥
الاختلاف العلمي ٢٨٥
اختلاف المصالح والأهواء ٢٩٩
أخلاقيّات الاختلاف العلمي ٣١١
المراجع والمصادر ٣٤٧